الجامعة المستنصرية

كلية الآداب

قسم اللغة العربية

المدارس الصوتية عند العرب
النشأة والتطور

أطروحة قدمها

علاء جبر محمد الموسوي

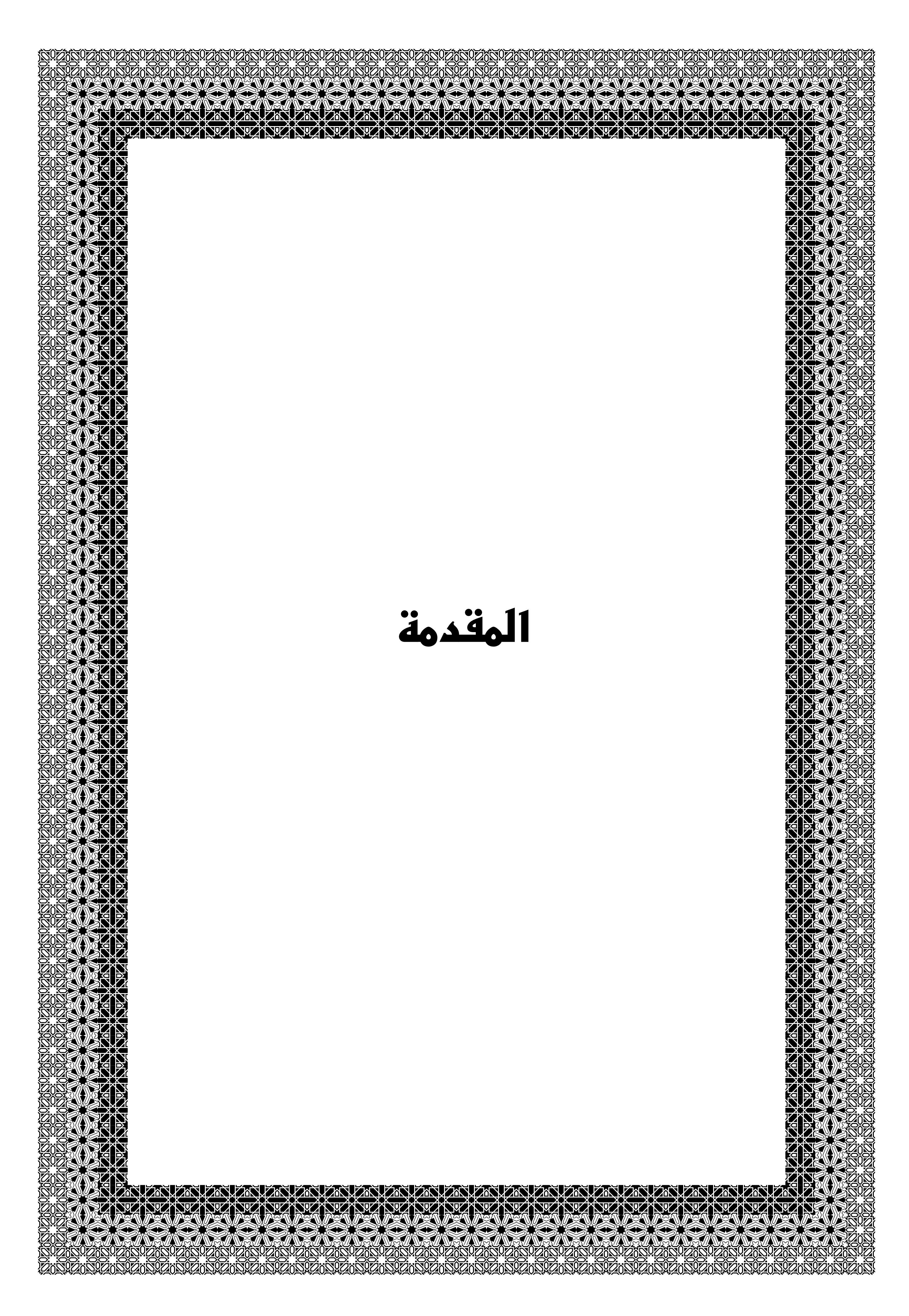
إلى مجلس كلية الآداب في الجامعة المستنصرية قسم اللغة العربية ، جزءا من متطلبات نيل شهادة الدكتوراه فلسفة في اللغة العربية وآدابها

بإشراف

الأستاذ الدكتور : عبد الله أحمد الجبوري

١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م

المحتويات



المقدمة

المقدمة

الحمد لله حمدا كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا ، والصلاة والسلام على رسوله الذي أرسله بالحق مبشرا ونذيرا وشاهدا وهاديا وسراجا منيرا ، وعلى آله الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا .

وبعد :

فالصوت ظاهرة طبيعية،تستلزم وجود جسم في حالة اهتزاز أو تذبذب،وهذه الاهتزازات أو الذبذبات تنقل عبر وسط معين حتى تصل إلى أذن الإنسان ، وقد تكون ناتجة عن اصطدام جسم بآخر ، أو سقوط جسم أو انفجار أو غير ذلك ، كما أنها قد تكون صادرة عن الحيوانات إلى جانب صدورها عن الإنسان ؛ وقد فرّق العلماء بين نوعين من الأصوات؛ النوع الأول هو الصوت الطبيعي ، وهو ما يصدر عن كل ظواهر الطبيعة وكل الموجودات فيها ، والنوع الآخر هو ما يصدر عن الإنسان دون غيره . فالجهاز النطقي للإنسان قادر على إنتاج أصوات كثيرة،كما أنه قادر على إنتاج أنواع من الضجيج والضوضاء تبعد عن اللغة بقدر ما تبعد عنها أصوات الطبيعة فليس كل صوت يصدر عن الإنسان مفهماً وإرادياً ، أي إنه الأثر السمعي الذي يصدر طواعية واختياراً عن أعضاء النطق ، إذ إن الصوت حتى يكون لغوياً لابد أن يكون صادراً بقصد عن المتكلم ، إذ إن هناك بعض الأصوات قد تصدر عن المتكلم من دون قصد منه ، وقد تصدر ويكون المتكلم قد أصدرها بقصد وعناية ، فهذه الأصوات تكون مرة طبيعية ومرة لغوية .

وللعرب القدماء جهود مشكورة في الدرس الصوتي تنم عن فهم مبكر دقيق لطبيعة الصوت اللغوي ، كما تدل على معرفة تامة بالجهاز النطقي وأعضائه ، فقد عكفوا على دراسة أصوات لغتهم ، وتمكنوا من وصفها وصفاً دقيقاً ، ووضعوا القواعد والقوانين لتلك الأصوات وخصائصها وعلاقاتها مع بعضها ، يتضح ذلك فيما فعله أبو الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ) من نقط الإعراب بملاحظته الذاتية ، وما قدمه الخليل بن أحمد (ت١٧٥هـ) من تقسيم لأصوات اللغة،وتحديد مخارجها معتمداً على حسه الصوتي الذي سار عليه عدد من العلماء متخذين منه منهجا مكونين بذلك مدرسة صوتية خاصة بهم عرفت عندنا بـ (مدرسة المعجميين الصوتية) .

وقسّم سيبويه (ت١٨٠هـ) أصوات العربية بحسب مخارجها وأحيازها ، ووصف كل صوت منها وصفاً دقيقاً ، وقد كان فعله هذا منارا للنحاة في دراستهم الصوتية وتقسيماتهم حتى نشأت مدرسة النحاة الصوتية،ومثل هذا ما نجده عند المجودين والقراء ، والفلاسفة ، والبلاغيين . مقدمين بذلك ملاحظات قيمة في مجال الدراسة الصوتية،تبدو واضحة في ما خلفوه من دراسات شملت أصوات العربية كافة .

وممّا لا شكَّ فيه أن علوم اللغة العربية تترابط فيما بينها فهي تدور في محيط انبثقت منه وهو القران الكريم ، وكل قسم منها يحتاج إلى الآخر، فقلّما تجد موضوعاً نحوياً إلاّ واللغةُ في آخره ، أو لغوياً إلا ومسائل التصريف في أثنائه ، تعضده وتقيم أمره ، ومن هذه الخصوصية تنوعت الدراسات سواء على مستوى الدراسة العامة أو على مستوى الخصوص في الدراسة الواحدة ووجهة النظر إليها كما هو الحال في وجهة نظر العلماء إلى المادة الصوتية .

وقد حاولت هذه الدراسة أن تنهض بمهمة جمع شتات هذه المدارس وإيضاح خطاها عن طريق تصنيف عمل كل مدرسة والأسس التي سارت عليها والغاية التي درست من اجلها المادة الصوتية ، فكان أن وقفت على خمس مدارس كانت هي مادة الفصول الخمسة لهذا العمل ،وقد سبقت هذه الفصول بتمهيد حمل عنوان (المدارس الصوتية في التراث المعرفي عند العرب) فكان مدخلا لبيان مفهوم المدرسة ومدى انطباقه على المدارس الصوتية عند علماء العربية .

أما الفصل الأول فكان تحت اسم (مدرسة المعجميين الصوتية) ، وتناول هذا الفصل المادة الصوتية عند مدرسة المعجميين التي بدأت بالخليل بن أحمد الفراهيدي الذي كان رأس المدرسة وتبعه بعد ذلك عدد من المعجميين الذي ساروا على خطاه مثل أبي على القالي(ت٣٥٦هـ) في كتابه (البارع) ، وأبي منصور الأزهري (ت٣٧٠هـ) في كتابه (تهذيب اللغة) والصاحب بن عباد (ت٣٨٥هـ) في كتابه (المحيط في اللغة) ، وابن سيده (ت٤٥٨هـ) في كتابه (المحكم).

وتناول الفصل الثاني الدراسة الصوتية عند علماء النحو العربي وسمي بـ(مدرسة النحاة الصوتية) حيث مرت الدراسة الصوتية عند النحاة بمرحلة من التطور بدأت بالدراسات التي سبقت سيبويه (ت١٨٠هـ) ، ثم جاء النضوج التام لها والذي يظهر في المادة الصوتية التي أوردها سيبويه في كتابه المشهور ، إذ ضم هذا الكتاب مادة صوتية دقيقة استقى منها

النحويون أسس علم الأصوات في قواعده وتطبيقاته وتابعه بذلك من جاء بعده من النحاة مع فوارق قليلة شكلت مذاهبا منهجية متنوعة انطوت تحت الباب الواسع (المدرسة) .

وجاء بعد هذا الفصل الثالث والذي سمي بـ(مدرسة المجودين والقراء الصوتية) وتناول هذا الفصل جهود طائفة من العلماء أولت الدراسة الصوتية اهتماما خاصا فجعلته المادة الأساس التي قامت عليه دراستهم إذ انه من المؤكد أن معطيات الدراسة تتنوع بتنوع مرجعيات الدارسين وأصولهم المعرفية، فضلاً عن تنوع آليات اشتغالهم وأدوات تحليلهم النابعة من تنوع حقولهم المعرفية ومن هنا كانت جهود علماء التجويد والقراءة القرآنية لبنة رئيسة من لبنات الهيكل العام لتراثنا اللساني ، يُعده الصوتي . على نحو الخصوص . .

وجاء بعد ذلك الفصل الرابع من فصول هذه الدراسة والذي تناول جهود عدد من العلماء العرب اتخذت لنفسها مسارا متميزا عن غيرها في الدرس الصوتي فنظرت إليه من جانب فيزيائي ونطقي وهم الفلاسفة فسمي الفصل بـ(مدرسة الفلاسفة المسلمين الصوتية) فعلى الرغم من أن هذه المدرسة شغلت حقبة زمنية طويلة وتعدد علمائها إلا أنها لم تستطع أن تستميل اهتمام الدارسين وتحرك أقلامهم إلا عددا قليلا منهم حاولوا دراسة الجوانب اللغوية عندهم،ومن بينها الجانب الصوتي الذي درسه علماء هذه المدرسة من جوانب متعددة كان أبرزها الجانب الفيزيائي الذي أولوه عناية خاصة، إذ لم تقف هذه المدرسة عند الأمور العامة لهذا الجانب من الدراسة بل وقفت على الخصائص الجزئية في علم الصوت .

أما الفصل الخامس وهو الأخير فقد نهض بدراسة جهد صوتي مهم لم ترصده الدراسات الصوتية إلاّ من باب ضيق وهو الدرس الصوتي عند علماء البلاغة العربية فسمي الفصل بـ(مدرسة البلاغيين الصوتية) فبعد أن دققنا في مضامين المتن البلاغي العربي ، وجدناه يتعلق بمستويات متعددة أهمها المستوى الصوتي والمستوى البنائي والمستوى التركيبي، إذ يأتي هذا التنوع الدراسي في المتن البلاغي العربي ، من باب أن : الحقول المعرفية يخدم بعضها بعضاً ، ومن غير الممكن أن يستغني حقل من الحقول عن غيره – إلاّ ما ندر – ، وقد أضاف هذا التداخل إلى الحقول المعرفية ، جوانب تحليلية متنوعة ، منها :تنوع مستويات التحليل في المتن البلاغي العربي . بحيث تطرق البلاغيون إلى المقدمات الصوتية المهمة سعياً منهم لفهم التنوعات الصوتية والإيقاعية المختلفة في اللسان العربي .

ولقد واجه الباحث الكثير من الصعوبات كان أبرزها صعوبات الحياة التي يعرفها الجميع ، بالإضافة إلى صعوبات الحصول على الكتاب لما حلّ بمكتباتنا العامة من دمار شهده الجميع أيضاً

، وكانت سعة الموضوع وضيق الوقت من الصعوبات الأخرى التي عانى منها الباحث إلاّ أن هذه الأمور لم تثنِ العزم على إكمال البحث بشكل حقق هدفه المنشود منه .

ولا يسعني هنا إلا أن أدعو الله أن يجزي بالخير أيادٍ كثيرة كانت وراء إتمام هذا البحث ولولاها لما كان بصورته التي هو عليها الآن و أخص من بينهم أستاذي الدكتور عبد الله احمد الجبوري الذي كان بحق مشرفا وأباً تحمل مني الكثير من التقصير فضلا عن استفادتي من ملاحظاته وتوجيهاته التي كان لها الأثر الكبير في شكل الأطروحة النهائي .

وبعد ، فهذا جُهد مقلٍّ ، وَنَفَسُ مُقصِّر ، لا يدعي الكمال ولا الإتمام ، بل يعترف بالنقص ويؤمن بالتقصير ، ولو أَتبعتُ نفسي هواها ، وتَبِعت حرصها في المراجعة والتدقيقِ والتمحيص وتتبع الكتب مادة مادة وحرفاً حرفاً لما ظهر هذا البحث كاملا لأنه كما قالت العرب بابٌ واسعٌ جداً .

والله أسأل أن ينفع بهذه الكلمات ، ويؤجرني عليها ، ويجعلني ممن أخلص النيّة ، فتُقبل بقبولٍ حسنٍ في الدنيا والآخرة ، وآخر دعوانا أن الحمدلله ربِّ العالمين وصلى الله ُ وسلّم على نبيّنا محمّد وآله الطيبين الميامين .

التمهيد

المدارس الصوتية في التراث المعرفي عند العرب

التمهيد

((المدارس الصوتية في التراث المعرفي عند العرب))

كـان الاهتمام باللسان الإنساني قديماً قِدَم التشكّل الحضاري ، وكانت و سائله مختلفة باختلاف إمكانات أصحاب الاهتمام ، لكن الطابع الغالب عليه هو تأسيس قواعد أساسية لفهم ظاهرة النطق و الآليات الكفيلة بتجسيدها مادياً على الألواح و الرقم الطينية و غيرها من مواد الكتابة القديمة .

إذ تتصف ((اللغات بادئ ذي بدء بكونها كلاماً منطوقاً يُتداول مشافهة ، فلقد عرف الإنسان الكلام المنطوق قبل أن يخترع الكتابة بأحقاب طويلة لا ندري مداها في القدم ابتداءً . ولم يكن اختراع الكتابة متأتياً من معرفة الطبيعة الشفهية للغة ومحاولة تقييدها بالكتابة ، بل كانت محاولة لتسجيل معنى الكلمة بتمامها عن طريق الصور و الرسوم . وظل مفهوم الأصوات المفردة غائباً حتى توصّل الإنسان إلى الأبجدية ، أي إلى العناصر الصوتية المفردة التي تشكّل بائتلافها الكلمات . ومع أنّ توصّل الإنسان إلى الكتابة أمر مهم جدّاً على صعيد العلم و الحضارة ، فإنه لم يقلل من أهمية المشافهة في تداول اللغات و نقلها من جيل إلى آخر . بل إن الأمية التي عرفتها الشعوب القديمة على نطاق واسع لم تَحُل دون إبداع لغات عظيمة ذات آداب متفوقة كالعربية))[1].

و تبعاً لذلك جاءتنا الكتابات الإنسانية القديمة متنوعة الأنماط وفقاً للآلية المتبعة في نقل الصوت من أثر إلى مادة مرئية غير مسموعة ، فضلا عن الإمكانات العقلية و الذكائية لأصحابها ، فكانت الكتابة الصورية في وادي الرافدين ، ثم تطورت الكتابة المسمارية الى المرحلة الرمزية ،ولم تقتصر الكتابة الصورية على وادي الرافدين ففي حدود نهاية الالف الرابع قبل الميلاد ابتدع ابناء وادي النيل شكلا جديدا من الكتابة الصورية تكتب بشكل عمودي وبشكل افقي عرفت باسم الكتابة (الهيروغليفية)[2] .

ولم يكن الاهتمام بتفسير ظاهرة النطق و موضوعه الرئيس غائباً عن الذهنية الحضارية الأولى بل كان له حضور كبير شغل جلّ نتاجات الحضارات الإنسانية القديمة ، بحيث يُعزى الاهتمام الأثير الأول إلى الحضارة الهندية القديمة ممثلة بلغويها السنسكريتي الشهير " بانيني : Panini " ، الذي طرح مقولاته اللسانية الرائدة التي تعدّ

---

١) مبادئ اللسانيات : ٣٥ ، و ينظر : مبادئ اللسانيات العامة : ١٠ – ١١ .

٢) ينظر : كتابة الصورة :حنا بقاعين (بحث) ، وينظر حضارة العراق ٢٢١/١وما بعدها .

أساس الفكر الصوتي عند الشرقيين القدامى ، وكانت غايته من هذه المقولات الكشف عن مغزى تلك الظاهرة الأساسية في تداول الناس و تواصلهم اللساني ، فضلا عن الغاية الدينية التي كانت مهاداً معرفياً أولياً دفع الهنود إلى الاهتمام بالنطق[1].

فالأناشيد و التراتيل الدينية التي يلقونها في معابدهم الخاصة تحتاج إلى تربية صوتية تساعد المُنشد على تأدية التراتيل على نحو صحيح ليؤثر في المتلقين الذين يقصدون الإذعان لمعبوداتهم من خلال تأثير المُنشد .

وكذا اهتّم الأوربيون بتفسير هذه الظاهرة الكبيرة المهمة في كتاباتهم ولاسيما في كتابات الإغريق القدامى الذين اهتموا بآلية النطق من باب المعرفة التكميلية ؛ لأن النتاج الفلسفي كان عماد التراث المعرفي عند الإغريقيين ، و الفلسفة تعني : حبّ الحكمة ، و الحكمة هي سبيل الكشف عن الحقائق ، لذا كان تكميل الرؤى الإنسانية بتفسير الظواهر المحيطة بالبشر –الأساسية و الثانوية –منفذاً مفاهيمياً لمعرفة الحقيقة و الوصول إلى كنهها[2].

أما الحضارة العربية فلم تغفل هذا الاهتمام المعرفي الذي استقطب عقول أغلب علماء الحضارات الإنسانية ، بل عمل المفكرون من أسلافنا – لا سيما في الأعصر الإسلامية – على تأسيس حقول معرفية تهتم باللسان و آلية التوصيل والمادة الأساسية لهما و المتمثلة في " الصوت " ، فأنتجوا مقولات أولية كانت الأساس الذي استند إليه علماؤنا بعد أن قّعّدت العلوم و وزّعت الوظائف على كل علم[3].

ومن الطبيعي أن يقدّم كل علم وظيفة معينة تكسبه إمكان التواصل مع سائر العلوم الأخرى ؛ لأنه من غير الممكن أن يتحلق العلماء حول حقل معين من دون أن يكون لذلك الحقل وظيفة يسعى إلى تقديمها ، فأنتج العلماء قواعدهم و مقولاتهم في كل علم بما ينسجم و الوظيفة المزمع تقديمها من خلال تشكيل ذلك العلم .

ولعل الغاية الرئيسة من تأسيس علوم العربية الأساسية هي الغاية الدينية المتمثلة في الحفاظ على اللسان العربي سليماً صحيحاً فصيحاً خالياً من العيوب و اللحون التي قد

---

١) ينظر : تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين : ٦٧ وما بعدها ، و علم اللسان : مابيه : ترجمة : محمد مندور : ٦٤ " ضمن كتاب منهج البحث في الأدب و اللغة " .

٢) ينظر : مبادئ اللسانيات العامة: ٨٤ .

٣) ينظر :المدخل إلى فقه اللغة العربية: ١٠٣ وما بعدها .

تطرأ عليه من خلال الاحتكاك بالأقوام الأخرى بفعل : التجاور أو التزاور أو الغزو أو غيرها من عوامل الاحتكاك البشري على مختلف مستوياته التعاملية .

وسبب هذا الاهتمام باللسان العربي ، على الرغم من أنّ التداخل و التأثر و التأثير بين اللغات الإنسانية قضية طبيعية حتمية في الآن نفسه ، هو التحوّل الوظيفي للسان العربي ؛ فالوظيفة التي كان يقدمها هي وظيفة عامة يشترك فيها مع سائر الألسنة البشرية الأخرى ؛ وبعد نزول القرآن الكريم على صدر الحبيب محمد (ص) بلسان العرب درجاً على القاعدة الإلهية القاضية بكون الرسالة نازلة بلغة القوم المُوسَل إليهم ذلك الرسول أو النبي ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[1]،أصبحت الوظيفة التواصلية التي يقدمها اللسان العربي تبعاً لهذا التطور ذات مستويين :

المستوى الأول : الوظيفة التواصلية .

المستوى الاخر : الوظيفة الدينية .

وبناءً على هذه التعددية في المستويات اتسعت دائرة اهتمام العرب باللسان العربي؛ لتحصيل حماية البناء اللغوي بمستوياته المختلفة ، ثّم لتخدم هذه الحماية الغايةَ الكبرى المتمثلة بالحفاظ على البناء اللغوي للقرآن الكريم ، ففهم النص يساعد على فهم التشريع الذي يرمي إليه نزول ذلك النصّ ، ومن المؤكد أن فهم النصّ يتوقف على لغته التي بُني منها :لفظاً و دلالةً .

و بعد أن اتسعت رقعة الدعوة الإسلامية و دخلت في بناء المجتمع الإسلامي عناصر غير عربية ، بدأت المخاطر تحيط باللسان العربي الذي تحوّل من لغة " قوم " فقط إلى لغة " دين و قوم "،فمرجعها التداولي بذلك " قومي " : يكشف عن هوية الناطق العِرقية، و " ديني " : يكشف عن هوية الناطق التعبدية .

و أخذت ظاهرة لغوية غريبة تتفشى في هيكل اللسان العربي ، شكّلت خطراً كبيراً على نسقه البنائي المثالي ، فعملت هذه الظاهرة على تحريك بنية اللغة و العدول بأغلب مستوياتها . ولاسيما النطقية منها . عن المسار القاعدي الذي تعارف عليه العرب في تخاطباتهم و مكاتباتهم .

وعرف علماء العربية هذه الظاهرة بـ " ظاهرة اللحن " ، وحاولوا حدّها و تحديد ملامحها المعرفية ليستطيعوا وضع العلاج الأمثل لها ، فعرفت بأّنها : ((عيب لساني

---

١) إبراهيم /من الاية ٤.

يقوم على تحريف الكلام عن قواعد الصرف و النحو ، كما يقوم على مخالفة النطق الفصيح و اللفظ السليم . من أبرز حالاته : استبدال كلمة بأخرى ، نحو : " افتحوا سيوفكم " ، بدل "سلّوا سيوفكم " ، و العجز عن لفظ الحروف كتحويل " الراء " إلى " ياء " ، نحو : شّيف أي شّرف أو العجز عن لفظ الكلمات ، أو عن تهجيتها ، أو الخطأ في تحريك بعض الحروف بغير حركتها الأصلية ، أو الخطأ في الزام قواعد الصرف و النحو))[١] .

ومن المعروف أنّ اللغة الإنسانية تتكون من مستويات معينة تعمل على تشكيل هيكلها و تساعد على تسهيل تداولها بين الناطقين بها ، و قد حصر علماء اللغة هذه المستويات في ثلاثة هي :

١- المستوى النطقي .
٢- المستوى التركيبي .
٣- المستوى الدلالي .

وتبعاً لهذا التصنيف حاول علماء العربية تأسيس حقول معرفية تضم مفردات هذه المسوّيات ، لكن العرب لم يتحددوا بهذا التصنيف الثلاثي بل فّرعوا منه فروعاً مثّلت خانات تكّون بمجموعها منظومة كل مستوى .

ففّرعوا المستوى الثاني إلى خانتين اهتمت الخانة الأولى بالتركيب الصغير ، في حين اهتمت الخانة الثانية بالتركيب الكبير ، وكان الحقل المعرفي الذي يدرس فقرات التركيب الصغير يعرف بـ" علم الصرف " الذي كان يهتم بتركيب الأصوات لتأليف البنية التركيبية الصغرى المسماة بـ " اللفظة " ، في حين سّموا الحقل المعرفي الذي يهتم بفقرات التركيب الكبير " علم النحو " الذي كان يهتم بتأليف الألفاظ لتكوين البنية التركيبية الكبرى المعروفة بـ" الجمل و العبارات " ليكونا بذلك مدرسة واحدة هي المدرسة النحوية الصوتية .

في حين فّرعوا المستوى الثالث إلى خانتين أيضاً ، اهتمت الخانة الأولى بالنسق المباشر من دلالة الألفاظ التي يمكن أن نخصصها بـ " المعنى " ، ولا يدخل هذا في النسق أساليب المجاز و التعابير غير المباشرة وقد عرض " علم المعجم " لهذه الوظيفة ، في حين عرضت الخانة الثانية " البلاغة " إلى النسق غير المباشر للمعاني سواء أكان على مستوى التراكيب أم الألفاظ .

---

١) المعجم المفصل في علوم العربية " الألسنيات " : ٤٩٧/١ .

ولما اختلفت الوظائف المُقدَّمة من كل حقل من هذه الحقول المعرفية سواء أكان رئيساً أم فرعياً ، استدعى هذا الأمر اختلاف الغايات التي من أجلها أُسّست و كذا الحال بالنسبة إلى القواعد التي قّعدها علماء كلّ حقل فضلا عن الاهتمامات المخصصة بجملة من جوانب اللسان التي يختصّ بها كلّ حقل .

و استدعى هذا التنّوع بالاهتمام و التأسيس القاعدي تنّوعاً في التجمعات الفكرية التي يتحلق حولها علماء كلّ حقل ، فكان هذا التجّمع المتفق في الحقل الواحد و الحقول المختلفة موازنة بتجّمع الحقول الأخرى لبنة رائدة لتشكّل المدارس المعرفية في تراثنا اللساني .

فكانت المدرسة التركيبية التي حملت اسم: المدرسة التركيبية النحوية ، والتي سّمي أصحابها بـ " النحاة " .

وكذا الأمر في المدرسة الأخرى التي عرفت بالمدرسة الدلالية التي تفّرعت هي الأخرى إلى فرعين ، مفاد الأول " المدرسة المعجمية " التي سُمّي أتباعها " المعجميين " ، في حين عُرفت الأخرى بـ " المدرسة البلاغية " و سُمّي أتباعها " البلاغيين " .

في حين كانت المدرسة الصوتية ثابتة في تصنيف الحقول التابعة لتراثنا العربي اللساني ، وكان الممثلون الرئيسون لها أصحاب التجويد و القّراء .

ومن خلال ما مّر من حديث نستطيع تعريف " **المدرسة** " بأنها تجّمع معرفي يتأّسس على تآلف فكري معين يدعو إلى تحقيق وظيفة معينة من خلال اتّباع سبيل معين .

وقد مارست كلّ مدرسة من هذه المدارس نشاطين معرفيين تلّخصا بالوظيفة المعرفية التي تقّدمها ، وبعد التدقيق في هيكل كلّ و ظيفة تبّين لنا أن هناك ضربين من الوظائف التي تقّدمها كل مدرسة ، يمكن تلخيصهما بالآتي :

الوظائف المحضة :

وهي مجمل الافرازات المعرفية التي تسعى كل مدرسة إلى حيازتها و تقديمها إلى الناطقين بلسانها ، و تتنّوع هذه الافرازات بتنّوع المدارس .

فالمدرسة النحوية تقّدم وظيفة معرفية تعمل على استخلاص ((قواعد Grammair)) تمّيز الصيغ السليمة من غيرها ، ولذلك يجد الدارس أشكالاً من درس النحو الذي اهتّم منذ بروزه ببيان حدود الخطأ و الصواب وفق المواضعات اللغوية الخاصة

بهذه اللغة أو تلك))[١] ،وتسعى هذه المدرسة إلى تقديم وظيفة معينة تتلخّص في دراسة الوحدة البنيوية / التركيبية الكبرى المعروفة بالجملة والصغرى المعروفة في أدبيات الدرس اللساني الحديث بـ " المورفيم : Morpheme ". وذلك من خلال المكّونات البنائية كـ " المقاطع " وغيرها[٢] .

وتسعى هذه المدرسة أيضا إلى رصد النظام الأساسي لبناء الجملة العربية وتمييزه عن بقية اللغات كيما تتم عملية التمييز من خلال الطرائق التركيبية الخاصة بكلّ لغة ، إذ ((تختلف الأنظمة الصرفية من لغة إلى أخرى ، فبعض اللغات يتصف صرفها بأنه إلصاقي Agglutintive أو تسلسلي Concatenative و بعضها غير تسلسلي أو متصرف Inflected ولقد ذهب الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري إلى ان أهّم ما يمتاز به صرف العربية أنه غير تسلسلي ، وهذا القول على إطلاقه غير دقيق ، فليس ثمة أنظمة خالصة تماماً ، و إنما هناك سمة غالبة ، أو طابع عام ، فهذه العربية التي تتسم بأنها متصرفة نجد فيها أمثلة للصرف الإلصاقي أو التسلسلي ، و يتجسد ذلك في التثنية وجمع السلامة بنوعيه ، و التوكيد بالنون و النسب ... وفي مقابل ذلك نجد في الانجليزية أمثلة على التصريف غير التسلسلي ، و أبرز مثال على ذلك الفعل " to be " للمفرد الغائب ...بقي أن نقول نظراً إلى أنّ الصرف يشكّل أحد ركني قواعد اللغة ، فإنه ينبني على هذا أنّ اللغات التي لا قواعد لها ، لا صرف لها ، و المثال المشهور على هذا النوع من اللغات هو اللغة الصينية))[٣].

وتختصّ المدرسة المعجمية بوظيفة معينة تميزها من سواها من المدارس اللسانية ، و تتمثل وظيفة هذه المدرسة في بيان النظام المعجمي للغات و ذلك بالاستناد إلى "الوحدة المعجمية الصغرى :Lexical item "[٤]،فضلا عن بيان المعاني المباشرة للألفاظ [٥].

أما المدرسة البلاغية فتسعى إلى تقديم وظيفة معرفية تتحدد بالكشف عن الظواهر الجمالية في البناء اللغوي و تراكيبه ؛ لأنها ((دراسة واعية لأدوات التعبير اللغوية و كيفية

---

١) مبادئ اللسانيات : ٢١٥ .

٢) ينظر : المقطع الصوتي في تراثنا اللغوي : ٥٩ وما بعدها .

٣) تأملات في بعض ظواهر الحذف الصرفي : ١٥ – ١٦ .

٤) ينظر : Dictionary of Modern Linguistics : S.A. Hanna & other : pp: 80-81.

٥) ينظر: مقدمة لنظرية المعجم : ٣٧ وما بعده .

إنتاجها للمعنى ، مع الاحتفاظ لكل أداة بموقعها في محاور البلاغة الثلاثة : المعاني و البيان و البديع وهي محاور لها فلسفتها النظرية))[١].

أما المدرسة الفلسفية فقد سعت إلى تقديم بناء معرفي صوتي قائم على رصد الجانب الفيزيائي للعملية الصوتية ،فضلا عن استثمار الوعي الطبي الذي فرضته المعرفة الموسوعية على علمائها في تحديد أعضاء النطق وبيان وظائفها الصوتية فضلا عن الإدلاء بآرائها في مخارج الأصوات وكيفية اختلاف بعضها عن بعض .

<u>الوظائف المتداخلة :</u>

وهي مجمل الافرازات المعرفية التي يقدمها التداخل بين حقلين أو أكثر من حقول المعرفة للاستعانة بها في زيادة التفسير للظاهرة اللسانية ، فضلا عن إثبات الحقيقة اللغوية المتجسدة في : أنّ الحقول المعرفية المندرجة تحت مسّمى العلوم العربية هي علوم تكميلية ، أي ان كلّ علم يكّمل العلم الآخر و مجموع تلك العلوم يقدّم تفسيراً كاملاً للظاهرة اللسانية ، فالصرف ليس منفصلاً عن قريبه النحو ، كما أّنه ليس منفصلاً عن المعجم، و كذا حال البلاغة و سائر علوم العربية .

ويتداخل علم الصرف مع علم النحو ؛ ذلك انه ((مستوى من التحليل اللغوي بين المستويين : الفونولوجي و النحوي ، وعلى هذا ، فهو يمثل السقف للدراسة الصوتية ، و الأساس بالنسبة للدراسة النحوية))[٢]، فالكلمة التي تدخل مثلاً ضمن التحليل الصرفي تتوزّع تحليلاتها بين ثلاثة مكّونات ، هي :

- **<u>المكّون النطقي</u>** : كالنبر .
- **<u>المكّون البنائي</u>** : كالمقطع .
- **<u>المكون الدلالي</u>** : كالتنغيم .

وفي النتيجة نجد أنّ الأساس الإجرائي لهذه المكّونات الثلاثة هو أساس صوتي / نطقي[٣].

أما صلته بالنحو فلأنه : ((نقطة الانطلاق لدراسة النحو ، علم قواعد الجملة ، فلا يتأتى لنا بحال من الأحوال أن نحكم قواعد الجملة على نحو تام ومرضٍ ، ما لم نحكم أولاً

١) البلاغة العربية قراءة أخرى : د. محمد عبد المطلب : ٤ .

٢) تأملات في بعض ظواهر الحذف الصرفي :١١ (بحث) .

٣) ينظر : دروس في علم الصرف : أبو أوس إبراهيم الشمسان : ٢ / ٨٣ وما بعدها .

قواعد الكلمة ، قال ماثيوز (Matthews)متسائلاً : " كيف يتأتى للمرء أن يخوض في دراسة النحو إذا لم تكن لديه القدرة على تحديد و تصنيف العناصر الى وظيفتها و توزيعها فهو ما نحن بصدده "[1]))[2] ، وبناءً على هذا التصوّر أسّس علماء اللغة المحدثون مفهوماً لسانياً جديداً يحكم هذه القناة الوسطية بين الصرف و النحو عرفت بـ " العلاقات البراديجماتية : Paradigmatic relation " وقد عُرِّفَت بأنها ((العلاقات الرأسية في مقابل العلاقات الأفقية النحوية Syntactic relations و يتمثل في تصنيف الصيغ الصرفية في فصائل أو أبواب صرفية Morphological categories وهذه الفصائل أو الأبواب الصرفية هي العناصر التي تؤدي دوراً مهماً في تشكيل التراكيب و بنائها . وتحديد هذه العناصر هو الخطوة الأولى التي تسبق التحليل اللغوي للجمل))[3].

فعلم النحو يتداخَلَ مع علم الصرف مكونا بذلك مدرسة صوتية واحدة ، وقد أكّد هذا التداخل الدكتور كمال محمد بشر حين قال : ((النحو هو قمّة البحث اللغوي ، وهو الهدف الأساسي الذي يسعى اللغويون إلى تحقيقه عند النظر في اللغة المعينة ، و إنه لمن الخطل و الخطأ في آن أن يهمل النحاة الحقائق الصوتية في إجراء بحوثهم و تحليل مادتهم . فهذه المادة بكل بساطة إنما تتألف من عناصر صوتية و أخرى صرفية . وهذا من الناحية المنهجية ربط النحو ربطاً و ثيقاً بعلم الأصوات و الصرف))[4].

أما علم المعجم فيتداخل مع علوم كثيرة لعلّ أهمها علم الأصوات ؛ ((فمن الوظائف الأساسية للمعجم تسجيل طريقة النطق الصحيح للكلمات ، إذ ينبغي أن يكون مرجعاً موثوقاً به من هذه الناحية ، وليس من النادر أن تعجز الأبجدية الإملائية العادية عن القيام بهذا الدور ، كما هو الحال في كثير من اللغات كالإنجليزية و الفرنسية و غيرهما . وبهذا يصبح من الضروري الاعتماد على الرموز الصوتية التي تكفل لنا الوصول إلى هذا الهدف بسهولة ويسر .فهذه الرموز لها قيم محددة في مقدورها تسجيل النطق تسجيلاً أميناً دقيقاً إلى حدّ كبير))[5].

---

١) Matthews.P.H:Morphology , p :8.

٢) تأملات في بعض ظواهر الحذف الصرفي : ١١ .

٣) Dictionary of Modern Linguistics : S.A. Hanna & other : pp:98-99.

٤) علم اللغة العام " الأصوات " : ١٨٧ ، و ينظر : قضايا صوتية في النحو العربي : ٣٦٦ وما بعدها .

٥) المصدر نفسه : ١٩٦ ، وينظر : دور القواعد الصوتية في استعمال المعجم : ١٤٥ وما بعدها .

وكذا الحال في البلاغة فقد تداخلت مع علم الصوت و النحو و الصرف من خلال ((اتساقها الجوهري مع " علم المنطق " ؛ لأنها تستهدف مع الجمال إنتاج " الصحة " و"السلامة " ، ومن ثم امتدت مباحثها من منطقة الصوت المفرد ، إلى الكلمة المفردة ، إلى التركيب المفيد ، إلى التراكيب المتصلة أو المنفصلة))[١].

أما الفلاسفة فقد اهتموا بدراسة النغم الذي كان مدخلا مهما عندهم لدراسة التنغيم والنبر والمقطع الصوتي وهي أمور بنيت عليها هيأة الكلمة في العربية فضلا عن تفسيرها للكثير من الغموض المعرفي في بناء الكلمة العربية وهو أمر كشف الغطاء عن السبب الذي جعل صور بعض الكلمات بالشكل الذي وصل إلينا .

ولا ننسى أن كل حقل معرفي يسعى لتجسيد تلك الوظيفة من خلال منهج معين يستعين به لتلمس خطوات البحث و التحليل ، فضلا عن آلية التمايز التي تفصله عمّا سواه من حقول المعرفة الأخرى التي تتقاطع معه في الهيكل العام و تفارقه في التصنيف الخاص .

وقد سلك أتباع كلّ مدرسة من المدارس التي تقدم ذكرها منهجاً خاصّاً لتحقيق الوظيفة المبتغى تحقيقها من خلال عملهم التقعيدي و التحليلي .

وعلى هذا الأساس يكون التمييز بين هذه المدارس من معيارين رئيسين هما:

١- **معيار الوظيفة .**

٢- **معيار المنهج .**

وفي ضوء هذين المعيارين سنؤسّس هيكل كلّ مدرسة فضلا عن عرضنا لأهم المواضع الصوتية لكل مدرسة ، مع ضرورة التنبيه على ان المعيار الأول متأسّس في فقرات هذه الدراسة على " الوظائف المتداخلة " ؛ لأنها تستمد حضورها في كل مدرسة من المدارس المذكورة في هذه الدراسة من إفادة علوم العربية من معطيات الحقل الصوتي ، حيث تأخذ كل مدرسة ما يفيدها أو يهمها في عملية التقعيد و التحليل .

---

١) البلاغة العربية قراءة أخرى : ٤ ، وينظر: في البنية و الدلالة : ٦ .

الفصل الأول

مدرسة المعجميين الصوتية

المدخل

المبحث الأول : آلية إنتاج الأصوات

المبحث الثاني : مخارج الأصوات

المبحث الثالث : صفات الأصوات

المبحث الرابع : منهج المدرسة المحاسن والمآخذ

المدخل

لا يجد أحد ممن عرف علم الخليل أي مبالغة في وصف معاصريه أنه رجل خُلق من الذهب والمسك ، ولا في وصف المعاصرين أنه كان يمثل بأعماله "نهضة" متكاملة الأركان،إذ قام الخليل بإنجاز أعمال علمية نهضت بالعقل العربي وارتقت به من مستوى تفكيري معين في صياغة فكره إلى مستوى آخر .

إنّ ما وضعه الخليل بن احمد الفراهيدي يُظهر مقدار العبقرية الفريدة من نوعها فقد كان الخليل يقف وقفة العالم المجدد الذي لم تكبله قيود المتقدمين ، إذ كانت روحه تتوق إلى الابتكار وبناء علمه على أسس علمية مسوغة تحرص على استنباط كنه العلم واستخلاص نتائجه،فجاء بأفكار واضحة جلية سرعان ما تغدو قواعد يحتذي بها كل العلماء الذين ساروا على منهجه في بناء المعجم العربي،فأخذوا يفيدون من فكرة الخليل ويطورون فيها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ؛ فقد كان الجانب اللغوي من تراث الخليل واقصد به على وجه التحديد "كتاب العين ." قبلة التف حولها التلاميذ المخلصون لينهلوا من علمه ويسعوا إلى مواصلة الإبداع الفكري الذي بدأه ويحفظوا مسيرته الفكرية حتى اصبح الخليل وتلاميذه من بعده علماء شكلوا بمجموعهم مدرسة صوتية عرفت عندنا بمدرسة المعجميين الصوتية[١] .

ولا نريد أن نتحدث هنا عمن شكّك في نسبة كتاب (العين) إلى الخليل وراح ينسبه إلى مؤلف آخر، كما شكك في كتاب العين ذاته – من حيث مادته –،فقد فند الدارسون لعلم الخليل هذه المقولات ولم يتركوا رأيا إلا وفندوه[٢] .

ومن كتاب العين انطلق عدد من المؤلفين في وضع كتب أخرى مثل "البارع " لأبي على القالي(ت٣٥٦هـ) و"تهذيب اللغة" لابي منصور الأزهري(٣٧٠هـ) و"المحيط في اللغة" للصاحب بن عباد (ت٣٨٥هـ) ،و"المحكم" لابن سيده (ت٤٥٨هـ).

ومن هنا كان الخليل منعطفا مهماً في تاريخ النطق باللغة العربية وصار بمثابة نهاية عصر وبداية عصر جديد في التعامل مع اللغة العربية عن طريق الضوابط التي

---

١) لمعرفة المزيد حول أثر الخليل في الدراسات المعجمية في غير الجانب الصوتي ينظر: بحوث في المعجمية العربية(المعجم اللغوي): ٨٤ وما بعدها .

٢) ينظر الخليل بن أحمد الفراهيدي أعماله ومنهجه : ١٥وما بعدها ، وينظر الدراسات اللغوية عند العرب:٢٥٧ ، ينظر مقدمة في التراث المعجمي العربي :٣ .

وضعها بنتاج فكره الرصين ، فقد قام منهج تأليف " العين " على نظرية صوتية وضعها الخليل وهي الأخذ بالمخرج الصوتي لترتيب الحروف في المعجم ترتيبا يبدأ من الحروف التي تخرج من الحلق ثم تقدم شيئا فشيئا حتى أنتهى بالحروف التي تخرج من الشفة ، ثم بعد ذلك حروف العلة ثم الهمزة.

ثم يأخذ في كل باب يركب الحرف الذي يبدأ به الباب مع ما يأتي بعده من حروف متناولا كل حرف على حدة ، وكان أول الكتب هو كتاب " العين " الذي اختير ليكون عنوان المعجم بكامله إذ نلاحظ أنّ الترتيب الصوتي عند الخليل بدأ بحرف العين الذي يخرج من أقصى الحلق وانتهى بحرف الميم الذي يخرج من طرف الشفة وبعده حروف العلة الواو والألف والياء ثم الهمزة .

المبحث الأول

آلية إنتاج الأصوات

عند الحديث عن آلية إنتاج الأصوات اللغوية عند المعجميين لابدّ من الوقوف على حد المخرج عندهم لانه يمثل نقطة ولادة الصوت ، فإذا كان العلماء العرب قد حددوا المخرج من حيث انه المنطقة التي يولد فيها الصوت اللغوي ، فإنّ أصحاب المعجمات يُعدّون من أوائل العلماء العرب الذين حددوا بدقة مخرج الصوت مُتمثّلين بالخليل بن احمد الفراهيدي إذ انه أطلق على المنطقة التي يولد منها الصوت اللغوي اسم (المخرج) إضافة إلى المسميات الأخرى(الحيز والموضع والمدرج)[١]،وسنحاول الوقوف على سبب هذا التنوع بالتسميات محاولين فكّ الإشكالية الدلالية التي يمكن أن تنشأ منها، والذي يبدو أن الجامع المشترك لهذه التسميات يقوم على أساس تصنيفي تخضع له الأصوات اللغوية عند تذوقها.

فالمخرج هو الموضع الذي يعترض لمجرى الهواء في الجهاز النطقي عند النطق بالصوت اللغوي ، وهو يشير في الوقت نفسه إلى ابعد نقطة مخرجية يمكن تحسسها ، أما الحيز فهو الفراغ الذي يمكن أن يشغله اكبر قدر ممكن من الأصوات، ويعني المدرج الموضع الذي يبدأ منه الصوت في منطقة اعتراض الهواء ، لذلك نرى الخليل يقول أن مدرج الباء من بين الشفتين ومدرج التاء من بين أطراف اللسان وأطراف الثنايا ، وعلى ذلك فلكل صوت لغوي مدرجه الخاص به[٢] .

والذي يبدو من خلال متابعة النصوص أن الخليل ومن سار على هديه كانوا يفرقون بين هذه المصطلحات على الرغم من عدم وضوح الفكرة في نصوصهم وتداخل المفاهيم في بعض هذه النصوص[٣] ، فهم عندما يطلقون مصطلح المخرج كان الكلام عندهم عاما أما حينما يطلقون مصطلح فيقصدون به الحيز[٤] .

وقد ذهب بعض الدارسين إلى خلاف ذلك الأمر قال : ((الحيز عنده أوسع من

---

١) ينظر العين : ٥٨/١ .

٢) ينظر الخليل رائد علم الصوت:١٠٠،١٠١ (بحث) ،والتفكير الصوتي عند الخليل :٣٦ .

٣) ينظر العين :٤٨/١ و٥٠ و٥٢ .

٤) ينظر :أثر التفكير الصوتي في دراسة العربية (اطروحة) :١٣ .

المخرج ويتمثل بالفراغ الذي يشغله الصوت في الحلق والفم))[1] .

وعلى الرغم من أنّ اكثر اتباع هذه المدرسة كانوا معتمدين على ما يطرحه الخليل في هذا الموطن نجد أن فكرة هذه المصطلحات كانت واضحة عند الأزهري الذي حاول أن يميز بين مصطلحي (المخرج والحيز) واضعا عنوانين في مقدمة معجمه، كان الأول تحت مسمى(باب ألقاب الحروف ومدارجها)،أماالثاني فعنونه بـ(باب أحياز الحروف)[2]

وقد ذهب أحد الدارسين إلى القول أن الأزهري كان مدركا تماما للفارق بين المصطلحين ؛ وذلك لان وضع هذه التسميات للأبواب يوصلنا إلى أن المراد باللقب هو الوصف وهو قسيم الوصف الصوتي . بمفهومه المعروف . ؛ لذلك عندما أراد الأزهري أن يوضح قسمي الصوت وضع المدرج قبالة اللقب ، وانه قام بتضمين حديثه عن مخارج الأصوات في الباب الأول وذلك لالتقاء مصطلح المخرج مع مكان إصدار الحرف ، وهو ما يطابق مفهوم المخرج المتعارف ، على حين تحدث عن المجموعات الصوتية ذات الموضع الواحد في الجهاز النطقي عندما تحدث عن الأحياز التي قسمها على النحو الآتي:

١- حيز لـ (ع،ح،ه).
٢- حيز لـ (خ،غ) .
٣- حيز لـ (ق،ك) .
٤- حيز لـ (ج،ش،ض) .
٥- حيز لـ (ص،س،ز) .
٦- حيز لـ (ط،د،ت) .
٧- حيز لـ (ظ،ذ،ث) .
٨- حيز لـ(ر،ل،ن) .
٩- حيز لـ (ف،ب،م) .
١٠- حيز لـ(و،ا،ي).

فضلا عن هذا فان مصطلح المخرج تكرر في البابين وهذا ان دلّ على شيء فإنّما يدل على أن هذا المصطلح كان يستعمل عنده بالمفهوم العام ، فهو يشمل (المدرج والحيز)[3]

---

١) مقدمة في التراث المعجمي العربي :حلمي خليل :١٣٢.

٢) ينظر :تهذيب اللغة :٤٤/١ و ٤٥ .

٣) ينظر :أثر التفكير الصوتي في دراسة العربية (اطروحة) ١٤.١٣ .

إنّ هذه التسميات لأسماء المواضع مما سبقت إليه مدرسة المعجميين غيرها من المدارس فهي أول مدرسة صوتية عالجت آلية إنتاج الأصوات من تلك المواضع ، وهو أمر أخذه منها علماء العربية ممن جاء بعد الخليل إذ تلقوا هذه المصطلحات بدلالتها .

ومن هنا كانت عملية تحديد الآلية الصوتية عند علماء هذه المدرسة تعتمد على أساس ذوقي بحت ، فهم بعد تسكين الحرف يدخلون عليه همزة أطلقوا عليها (همزة الوصل) ليوصل بها إلى نطق الحرف فيستقر اللسان في موضعه فيتبين من ذلك مخرجه[١] .

وهذه العملية تستند إلى أن يكون الحرف المراد نطقه خالصا من أي حركة،فيقوم الناطق بفتح فمه بالألف أو ما يسمى (همزة الوصل) ،لأنّ الصوت :أب، أت، أغ ، وهذه الطريقة تعد من ابتكار الخليل بن احمد ثم سار عليها علماء العربية في نطق الأصوات مع إخضاعها لتغيير بسيط لا يغير من جوهر طريقتها،فكان سيبويه قد اخذ هذه الطريقة من الخليل ولكنه أجرى عليها تغييرا طفيفا وذلك بنطق همزة الوصل مكسورة في حين كانت عند الخليل مفتوحة[٢] .

وعلى الرغم من أن علم الأصوات الحديث يخالف هذه الطريقة مخالفة تامة لانه يرى وجوب نطق الصوت مجردا من كل شيء ، وذلك لان الاستعانة بهمزة الوصل يؤدي إلى خلط الخصائص الصوتية للصوتين ، من حيث أن هذه الهمزة صوت واجتماع صوتين عند النطق بهما دفعة واحدة يؤدي إلى عدم معرفة خصائص كل منها[٣] .

إلاّ أنّ ذلك لا يمنع من أن طريقة القدماء قد اقتربت من الصواب في تعيين مخارج الأصوات ؛فقد اتفقت إلى حدّ كبير مع ما توصل إليه المحدثون من نتائج في هذا المجال،لكن لكل فريق طريقته في تعيين وتذوق الأصوات ، وان كانت طريقة المحدثين اكثر علمية،لان المعجميين قد وقعوا تحت تأثير بناء اللفظة وأبنية الكلم،أي إن النطق بأول الكلمة هو الذي قادهم إلى تذوق الأصوات بهذه الطريقة بدليل قول الخليل: ((أُدخِلت هذه الألفات في الأفعال وأمثالها من الكلام لتكون الألف عمادا وسلّما للسان إلى صرف البناء ، لان اللسان لا ينطلق بالساكن من الحروف فيحتاج إلى ألف الوصل))[٤] .

---

١) ينظر :العين: ٤٧/١، وتهذيب اللغة :٤١/١ .

٢) ينظر: الكتاب :٣٢٠/٣-٣٢١ .

٣) ينظر :علم اللغة العام /الأصوات :١١٣ .

٤) العين :٤٩/١ .

وكان الأجدر بالمعجميين أن يعدوا هذه الألف زائدة في البناء فتسلم بذلك نظرتهم ولكن عدّهم إياها وسيلة لإخراج الصوت ، وكأنّ أي صوت لا يمكن للناطق أن ينطقه ولا يأخذ الصوت مادته وصفته إلا بعد الاعتماد على صوت الألف قبله تقدير غير سليم من حيث إن نطق اللفظة برمتها شيء ونطق الصوت وحده شيء آخر ، فيمكن نطق الصوت وحده من دون هذه الهمزة أو الألف ، وهذا ما قامت عليه الدراسات الحديثة للأصوات،ولكن لا يمكن الابتداء بالساكن في العربية وهذه حقيقة مؤكدة وذلك على مستوى اللفظة كاملة ومستوى الكلام ، لا من حيث الأصوات بوصفها وحدات منفصلة يحتفظ فيها كل صوت بصفاته الخاصة به بمعزل عن أي تأثير خارجي سواء كان إلحاقاً أو غير إلحاق .

ومهما يكن من أمر فان معرفة مخارج الأصوات اللغوية عند هذه المدرسة قد سارت على تحسس موضع نطق الصوت،ومعرفة مكان ولادته من أبعد نقطة مخرجية في جهاز النطق الإنساني فتحسسوا أعضاء النطق في الجهاز الصوتي لمعرفة تلك الأعضاء وأثرها في إنتاج الأصوات اللغوية فأشاروا إلى الفم والحلق والشفتين واللسان بأجزائه المختلفة والثنايا واللهاة،وأقصى الفم وأقصى الحلق والنطع (نطع الغار الأعلى) واللثة وغيرها من الأعضاء التي يمر بها الصوت اللغوي[١] .

ووقوفهم على هذه الأعضاء كان بسبب الأهمية التي تحتلها في إنتاج الأصوات اللغوية لذلك نسبوا كل صوت إلى عضو من هذه الأعضاء فمنها ما هو لثوي (الظاء والذال والثاء)لان مبدأ هذه الأصوات من اللثة،ومنها ما هو لهوي لان مبدأها من اللهاة،وهكذا بقية الأصوات الأخرى التي توزعت على أعضاء النطق الإنساني[٢] .

وبعد ذلك عندما تحسس المعجميون أصوات اللغة ووجدوا أنَّ آلية إنتاجها تبدأ من أقصى نقطة مخرجية يمكن أن نقف عليها من خلال التجربة الذاتية والملاحظة فوجدوا أن الكلام كلّه من الحلق فبدأوا بأدخل الأصوات في الحلق ،وهي الأصوات الحلقية، لتكون النقطة الأولى أو العضو الأول في جهاز النطق عند المعجميين هو أقصى الحلق، فنسبوا إليه مجموعة من الأصوات وبعدها اللهاة وتشمل صوتين هما (القاف والكاف) وهكذا انتقلوا من مخرج إلى آخر حتى انتهوا إلى الشفتين[٣] .

---

١) ينظر :المصدر نفسه :٥١/١ .٥٨،والجمهرة ٦/١، والبارع :٨/١ و٢٨،وتهذيب اللغة ٤٤/١ .
٢) ينظر :العين ٥٨/١ .
٣) ينظر: العين : ٥٨/١ .

وبذلك نجد أنّ إنتاج الأصوات اللغوية عند هذه المدرسة يبدأ بنقطة محددة(أقصى الحلق)وينتهي بنقطة محددة أخرى (الشفتين) وتتخللهما نقاط أخرى لإصدار الأصوات وكل صوت يخرج من منطقة محددة يتصف بصفة معينة يأخذها من العضو الذي يُنتج ذلك الصوت فشاعت في هذه المدرسة وانبثقت عنها أوصاف وألقاب من مثل(الحلقية واللهوية والشجرية) وغيرها ، تلك الألقاب التي تعد مدرسة المعجميين من أوائل المدارس التي أطلقت هذه الأوصاف على الأصوات اللغوية ، وقد حاول بعض الباحثين إنكار نسبة تلك الألقاب إلى هذه المدرسة وخصوصا نسبتها إلى الخليل بدعوى أنها ظهرت في أوائل القرن الرابع الهجري ولم تأخذ صداها في كتاب سيبويه[١] .

وهذا المذهب ليس سديدا فقد أدهشه عقل الخليل لنضوج الفكرة ودقتها فحاول أن ينسبها إلى عصر متأخر عن عصره ،وليس بالضرورة أن يأخذ سيبويه كل علم الخليل وعلى ذلك فان مجرد عدم ورودها في كتاب سيبويه لا يحكم عليها بأنها ليست من أفكار الخليل ، ويكفي الرد على ذلك بأنها وردت عند ابن دريد وغيره من علماء العربية،والذي يرجع إلى المباحث الصوتية في كتاب العين سيجد بصورة واضحة وجلية لا تقبل الشك أن مثل هذه الألقاب من إبداع الخليل وحده[٢] .

ومهما يكن من أمر ، فان المعجميين قد وقفوا على مواضع نطق الأصوات وتتبعوا هذه المواضع من أبعد نقطة مخرجية يمكن أن يتحسسها الإنسان وهي الحلق ،وهي أهم نقطة لإنتاج الأصوات اللغوية ، وهذا يعني من جملة ما يعني أن إدراك العلماء العرب لنشوء الصوت يستند إلى النظر للجهاز الصوتي الذي يشكل دائرة إنتاج الصوت اللغوي،ولكنهم حصروه بأقصى الحلق ولا يعني ذلك أن هذه النقطة هي نهاية الجزء المنتج للصوت اللغوي وانما يعني أنها عندهم تشمل جميع الأعضاء الصوتية التي يمكن رؤيتها أو تحسس موضعها بدليل انهم يعدّون الهمزة من أصوات أقصى الحلق بنص كلام الخليل مع أنها صوت حنجري بالوصف الحديث ، والحال يصدق على القاف إذ يعدونها صوتا من أقصى الحلق ، وهذا يدل على أن منطقة أقصى الحلق تمثل أبعد نقطة مخرجية شاملة في إنتاج الأصوات اللغوية عند هذه المدرسة .

---

١) ينظر : الأصوات اللغوية :٧٧ .

٢) ينظر :أصوات اللغة العربية:١٣٤ .

المبحث الثاني

مخارج الأصوات

تناولت المدرسة المعجمية مخارج الأصوات باهتمام كبير وجعلت من ذلك المرتكز الأساس في التصنيف المعجمي ولاسيما عند راس المدرسة ومؤسسها الخليل بن احمد الفراهيدي ، فقد اعتمدت على الترتيب المخرجي اعتمادا كليا في رصد الألفاظ العربية وبناء المعجم العربي إذ أن تناولهم لهذه المخارج يستند إلى رهافة حسهم وخبرتهم في تذوق الأصوات العربية .

لذلك يمكن النظر إلى تعامل هذه المدرسة مع الأصوات اللغوية ومخارجها من زاوية التقسيم الذي اتبعته في دراسة أصوات العربية وإخضاعها لقسمة ثنائية تعد الأشهر بين تقسيمات الأصوات اللغوية، إذ إنّ هذه المدرسة تجعل أصوات العربية تسعة وعشرين صوتا مقسمة على قسمين :

الأول : الأصوات الصحيحة وتضم خمسة وعشرين صوتا وهذه المجموعة لها مخارجها الصوتية الخاصة بها .

الثاني : الأصوات المعتلة أو أصوات الجوف،وتضم أربعة أصوات وهي (الواو والياء والألف والهمزة) ليس لها مخارج تنسب إليها فهي تخرج من الجوف .

وعلى هذا التقسيم يمكن النظر إلى مخارج الأصوات عند هذه المدرسة على النحو الآتي :

١. العين والهاء[١] والغين والخاء والحاء وهي أصوات حلقية ، لان مبدأها من الحلق .
٢. القاف والكاف وهما صوتان لهويان ، لان مبدأهما من اللهاة .
٣. الجيم والشين والضاد وهي شجرية ، لان مخرجها من شجر الفم أي مفتح الفم.
٤. الصاد والسين والزاي وهي أسلية ، لان مبدأها من أسلة اللسان .
٥. الطاء والتاء والدال وهي نطعية ، لان مبدأها من نطع الغار الأعلى .
٦. الظاء والذال والثاء وهي لثوية ، لان مبدأها من اللثة .
٧. الراء واللام والنون ذلقية ، لان مبدأها من ذلق اللسان .
٨. الفاء والباء والميم ، وهي شفوية أو شفهية ، لان مبدأها من الشفة .

---

١) لم يذكرها الخليل في هذا الموضع ، واعتمدت في ذكرها هنا على ما أورده في ١/٥٧ .

وبذلك تكون مخارج الأصوات الرئيسة في هذه المدرسة ثمانية مخارج يضاف إليها حيز الأصوات التي ليس لها مخرج محدد وهي (الياء والواو والألف والهمزة) لتحتل الترتيب المخرجي الأخير وهو الجوف [١] .

إن ترتيب مخارج الأصوات على هذه الطريقة قد بينها الخليل عندما بدأ بالعين لأنها أقصى الحروف ووضع بعدها الحاء التي لولا بحة فيها لأشبهت العين لقرب مخرجها منه ثم الهاء التي لولا الهتة لأشبهت الحاء ،وذلك للتقارب المخرجي بينهما وبذلك اخذ هذا التسلسل المخرجي مجاله عند الخليل ليسير بعد ذلك على المدرسة جميعها [٢].

أما تلك الأصوات التي احتلت الترتيب المخرجي الأخير واعني بها حروف الجوف، فقد خضعت لمعيار صوتي مختلف وذلك لبيان الفرق بينها وبين الأصوات الأخرى، وذلك كونها تميزت عن غيرها من الأصوات بحرية مرور الهواء عند النطق بها لذلك أصبحت صنفا أخر وتقسيما يناظر الأصوات الصحيحة التي لا تمتلك هذه الخاصة ،وقد كان الخليل ومن تبعه مدركا لهذه الخواص والميزات التي تتصف بها الأصوات فأخضعها لتلك القسمة الثنائية وأعطى كل قسمة مخارجها الصحيحة في جهاز النطق .

ولكن اللافت للنظر في ترتيب مخارج الأصوات هذه انه جعل الهمزة مع الأصوات الهوائية وكذلك جعل الهاء مع الأصوات الحلقية ،في حين يوضعان عند المحدثين مع الأصوات الحنجرية لان مكان النطق بهما هو الحنجرة[٣] .

ومن الممكن القول إن الخليل كان يذهب إلى أن الحنجرة واقعة ضمن منطقة الحلق وان الهمزة بالذات تخرج من أقصى الحلق يؤيد ذلك قوله:((أما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق مهتوتة مضغوطة فإذا رُفّه عنها لانت فصارت الياء والواو والألف عن غير طريقة الحروف الصَّحاح))[٤] .

أما فيما يخص (الواو والياء) فهما من حروف العلة عند الخليل بل هما من الأصوات الهوائية أو الجوفية وقد اغفل الخليل ومن تبعه من علماء هذه المدرسة ان هذين الصوتين

---

١) ينظر : العين :٥٨/١ .

٢) ينظر :المصدر نفسه :٥٧/١ والجمهرة ١ /٦ وما بعدها .

٣) ينظر الأصوات اللغوية:٨٩ .

٤) العين : ٥٢/١ .

قد يردان صائتين في أحوال معينة وقد يردان شبيهين بالأصوات الصامتة في أحوال أخرى))[1] .

وقد عدّ الخليل الفاء صوتا شفويا من دون الإشارة إلى الأثر الذي تؤديه الأسنان في نطق هذا الصوت،فالفاء صوت شفوي أسناني في الوصف القديم كما هو عند سيبويه وكذلك في الوصف الحديث[2].

ويمكن أن يُعتذر للخليل في ذلك بأنه قد تحسس الجزء الأهم في نطق هذا الصوت وهو الشفة، ولعل مظهر استدارة الشفة عند النطق بهذا الصوت سوغ للخليل وصفها بالشفوية،والأمر ذاته يصدق على أصوات (الذال والتاء والظاء) فهي عنده تخرج من حيز واحد ولم يشر إلى أنها تخرج من أطراف الثنايا العليا .

وينسحب ذلك الأمر على(الضاد) فهي عنده شجرية إلى جانب(الشين والجيم) وقد اعتذر للخليل ان الضاد فيها تفش وكذلك الشين لذلك جعل الاثنين من مخرج واحد بالنظر إلى الصفة البارزة فيهما فعلى ذلك يمكن تقريب المسألة بصورة اكثر عند ملاحظة أن الضاد عند الخليل في المفهوم الحديث هي صوت أسناني ، في حين هي في الوصف الحديث أسنانية لثوية من مخرج (الطاء والتاء والدال)[3] .

ونحن لا نريد أن نتوسع في هذه المسألة ، فقد تناولها بالدرس باحثون كثر[4]، لان الضاد القديمة التي وصفها العرب قد اختفت في نطقنا الحالي والضاد الحديثة تختلف تماما عنها فهي في الحقيقة صوت لم نقف عليه حتى نتبين الدقة في نطقه ، وقد صرح الخليل بذلك في ترتيبه لمخارج الأصوات ، وفي حديثه عن القاف وصفه بأنه صوت لهوي وعليه ربما يكون الخليل قد قصد باللهاة معناها المعروف حديثا ، وإذا كان الأمر كذلك فان الخليل سيكون مخطئا من ناحية تقديره لمواضع (الغين والخاء والكاف) لذلك فان كان ما قصده باللهاة معناها العلمي المعروف لدى المحدثين كان لزاما عليه في هذه الحالة أن

---

١) مناهج البحث في اللغة : ١١٣ .

٢) ينظر : الأصوات اللغوية : ٤٦ .

٣) ينظر :علم اللغة العام /الأصوات :١٠٧ .

٤) ينظر على سبيل المثال الضاد في النظام الصوتي العربي (رسالة) .

يعكس الترتيب ، إذ تخرج (الغين والخاء) من منطقة تلي اللهاة لا تسبقها ، ثم انه وصف الكاف بأنها لهوية وهي ليست لهوية[١] .

وعلى ذلك تكون المسألة تصورية فيما كان يقصده الخليل ، فأما أن يكون الخليل مخطئا في تصوره وتقديره في موضع الغين والخاء والكاف،وأصاب في تقدير الكاف فوصفها باللهوية،أو انه قد اخطأ في تقدير موضع القاف وهو الاحتمال الأرجح مع إمكان أن يكون العرب يشيرون إلى قاف تختلف عن التي ننطقها الآن فيكون نطقها صوتا شبيها بالكاف الفارسية ولاسيما ان مخرج القاف الفصيحة مختلف الآن مع الاختلاف بالصفة أيضا لذلك فمن المرجح أن يكون القاف صوتا خارجا من منطقة الغين والحاء أو هو بعدهما ويكون وضعه مع الكاف في منطقة واحدة عامة شاملة عملا يقربه من التصور الصحيح[٢].

أما وصف مخارج الأصوات الأخرى فكان دقيقا،وعلى ذلك يكون الترتيب المخرجي لأصوات العربية عند المعجميين قد توزع في ضوء مخارجها،فكانت هناك خمسة أصوات حلقية وصوتان لهويان وثلاثة أصوات نطعية وثلاثة أصوات لثوية وثلاثة أصوات شفوية وأربعة أصوات هوائية،وبذلك تكتمل الأبجدية الصوتية على أساس مخارجها ابتداء من أقصى الحلق حتى الشفتين كما أوضحها الخليل وهي كالآتي: ((ع،ح،هـ،خ،غ/ ق،ك/ ج،ش،ض / ص،س،ز / ط،د،ت / ظ،ذ،ث/ر،ل،ن/ف ، ب، م /و ،آ،ي،همزة)) .

إن ترتيب الأصوات بحسب مخارجها يعد من الأمور الغريبة عن العرب في ذلك الوقت فضلا عن تفرد هذه الطريقة أو المنهج عن الطرائق الأخرى المتبعة في ترتيب الأصوات ولا سيما النظام الألفبائي والنظام الأبجدي وعلى الرغم من ذلك نجد من العلماء العرب مَن سار على نهج الخليل في وضع الأبجدية الصوتية العربية مع تسليمه بصعوبتها،فقد تابعه في ذلك أبو علي القالي(ت ٣٥٦ هـ) في المنهج والطريقة ولم يخرج عنه إلا في بعض الأمور القليلة التي لا تقلل من هيمنة منهج الخليل على منهج القالي في معجمه (البارع) من ذلك تسلسل الأصوات ، فقد جاء مختلفا من حيث تقدير مخرج الصوت فأدى ذلك إلى التقديم والتأخير كما هو مبين في الجدول الآتي :

الخليل	القالي

١) ينظر: علم الأصوات: ١٠٩ .

٢) ينظر:علم الأصوات :١١٠ .

ع	هـ
ح	ح
هـ	ع
خ	خ
غ	غ
ق	ق
ك	ك
ج	ض
ش	ج
ض	ش
ص	ل
س	ر
ز	ن
ط	ط
د	د
ت	ت
ذ	ص
ث	ز
ر	س
ل	ظ
ن	ذ
ف	ث
ب	ف
م	ب
و	م
ا	و
ي	ا

	ي

فمن هذا الجدول يظهر لنا أن القالي وضع الأحرف الذلقية (ل،ر،ن) قبل الأحرف اللثوية (ظ،ذ،ث) مع تقديم الراء المكررة على اللام ، ووضع الأحرف النطعية (ط،د،ت) قبل الأحرف الأسلية (ص،س،ز) مع تقديم الزاي على السين من حيث المخرج الصوتي فضلا عن انه وضع العين وهو الصوت الحلقي في الترتيب الثالث من حيث التدرج في المخرج ، ونجد أّنه قدم الضاد على الجيم والسين .

إنّ تلك الاختلافات في ترتيب مخارج الأصوات عند الخليل في المنهج يمكن أن تحمل على تذوق الأصوات والنظر إلى خصائصها ومميزاتها فكل عالم يتذوق الأصوات بحسب حسه الموسيقي وإدراكه لموسيقى الأصوات التي تؤدي إلى تقديم الأصوات بعضها على بعض ذلك التقديم الذي لم يكن على درجة كبيرة من التفاوت لانه كان في ضمن نطاق المخرج العام من نحو تقديم الأصوات الذلقية بعضها على بعض وهذا ممكن في الدرس الصوتي ، لاسيما إذا كان هناك جامع مشترك يحصر هذه الأصوات ، يضاف إلى ذلك التقديم والتأخير لمجموعة على مجموعة أو لمخرج على آخر ،وهذه المسألة تحتاج إلى نظر لإمكان خضوعها لدرجة الاختلاف العلمي أو الصوتي ولإمكان تعرضها للصواب أوالخطأ فلا يمكن بحال من الأحوال أن يشمل تذوق الأصوات مجموعة كاملة .

ولقد تابع الأزهري (ت٣٧٠ هـ) الخليل والقالي في اعتماده النظام المخرجي في ترتيب الأصوات فبدأ بالأصوات من أقصاها مخرجا وهي أصوات أقصى الحلق إلى آخر الأصوات وهي على النحو الآتي :

((ع،ح،هـ،خ،غ/ ق،ك/ج،ش،ض/ص،س،ز/ط،د،ت/ظ،ذ،ث/ر،ل،ن/ف،ب،م/و،ا ،ي)) وقد أطلق الأزهري على هذه الأصوات الألقاب عينها التي أطلقها الخليل فشملت الأصوات الحلقية وتضم(ع،ح،هـ،خ،غ) والأصوات اللهوية وتضم(ق، ك) وهكذا بقية الألقاب التي تخص الأصوات الأخرى من نحو الأصوات الشجرية والأسلية والنطعية واللثوية والذلقية والشفوية والهوائية وهي ألقاب الخليل عينها .

ويأتي بعد هؤلاء الصاحب بن عباد (ت٣٨٥ هـ) الذي تأثر بالخليل تأثرا كبيرا وبّين منهجه الذي سار فيه على منهج الخليل فقال: ((اعلم إنّ الخليل لما هم بجمع كلام العرب اجال فكره فيما يبني عليه كتابه، ويدير عليه أبوابه ،فنظر في الحروف كلها وذاقها ووجد

مخرج الكلام كله من الحلق، أوله العين فجعلها أول الكتاب،ثم ما قرب منها الأرفع فالأرفع،وهذه صورة الحروف على الولاء،وذكر نسبتها إلى مخارجها وهي تسعة وعشرون حرفا))[1]، ومهما يكن من أمر فإن الترتيب الصوتي لأبجدية الصاحب بن عباد هي عينها أبجدية الخليل وترتيبه المخرجي لأصوات اللغة وهي : ((ع،ح،هـ،خ،غ/ق،ك/ج،ش،ض/ص،س،ز/ط،د،ت/ظ،ذ،ث/ر،ل،ن/ف،ب،م/و،ا،ي/ الهمزة)) .

ولم يكتفِ ابن عباد باتباع ترتيب الخليل فقط بل سعى جاهدا إلى الاستناد على تعليلات الخليل وحججه في ترتيب الأصوات وقد صرح بذلك بنفسه قال: ((إنّ الهمزة والهاء وان كان لهما التقدم في المخرج على أخواتهما من الحروف الحلقية ، فان الخليل إنما عدل عن الابتداء بهما لان الهمزة مهتوتة مضغوطة فإذا رفّه عنها لانت))[2].

ولم يكن ابن سيده (ت٤٥٨ هـ) مختلفا في نهجه عن علماء هذه المدرسة فقد رتب الأصوات على وفق ترتيب المدرسة ولم يشذ عنها[3]، فكان بذلك خاتمة العلماء الذين ساروا على خطى هذه المدرسة التي بدأها الخليل وذلك في اعتماد النظام المخرجي بوصفه أساسا لترتيب المعجم العربي ، فضلا عن نظام التقليب ، وبذلك كون هؤلاء العلماء مدرسة صوتية آثرنا أن نطلق عليها مدرسة المعجميين الصوتية ،فكانت المدرسة الرائدة في دراسة هذا العلم لان الخليل الذي هو رأس المدرسة كان الأسبق في دراسة هذا العلم .

ولم يكن خط هذه المدرسة سهلا ويسيرا بل على العكس،ولذلك صعُب على الكثير من العلماء السير على خطاها،حتى ان ابن دريد (ت ٣٢١ هـ) عندما اعتمد نظام الأبنية والتقاليب وهما جوهر مدرسة العين ، عرض عن ترتيب المدرسة المخرجي ورتب أصوات العربية ترتيبا ألفبائيا لانه أدرك أن هذه الطريقة صعبة فاعرض عنها لصعوبتها[4] .

ومهما يكن من أمر فقد تابع الخليل في منهجه إضافة إلى مَن تقدم من العلماء طائفة من الذين حاولوا الاستدراك على المادة اللغوية التي جاءت بها المدرسة المعجمية،من مثل

---

١) المحيط في اللغة :٦٠/١ .

٢) المحيط في اللغة :٦٤/١ .

٣) ينظر المخصص :ابن سيده :٢٠/١ .

٤) الجمهرة :٦/١ .

البشـتي (ت٣٥١هـ) فـي كتابـه التكملـة،وأبي الأزهـر البخـاري (ت ٣٢٥هـ) فـي كتابـه الحصائل ، والزبيدي (ت٣٧٩ه) في مختصر العين وغيرهم ولذلك وصفها الباحثون بأنها تكرار للعين أو تفريغ لمادته في معجماتهم وان قاموا ببعض التغيير،لان منهج الخليل ومدرسته أساس هذه المعجمات[1] .

إنّ مدرسة المعجميين الصوتية أخذت بالوقوف على كل صوت من أصوات العربية لمعرفة خصائصه الصوتية وصفاته سواء أكان ذلك بمعزل عن غيره من الأصوات أم مع غيره وذلك عن طريق التأليف بين الأصوات لبناء الكلمة العربية فكانت نظرتهم إلى الصوت من خلال طبيعته النطقية ، فقد روى ابن كيسان رواية عن الخليل تدل على عمق فهمه ودقة منهجه وطريقته في تناول أصوات العربية إذ يقول: ((سمعت من يذكر عن الخليل انه قال : لم ابدأ بالهمزة لأنها يلحقها النقص والتغيير والحذف،ولا بالألف لأنها لا تكون في ابتداء كلمة . لا اسم ولا فعل . إلا زائدة أو مبدلة،لأنها مهموسة خفية لا صوت لها،فنزلت إلى الحيز الثاني وفيه العين والحاء فوجدت العين أنصع الحرفين فابتدأت به ليكون احسن في التأليف))[2] .

أن هذه الطريقة قد عالجت السمات والتغييرات اللغوية التي تطرأ على الصوت عند إدخاله في اللفظة فضلا عن بيان صفات الصوت الأخرى كالهمس والنصاعة وغير ذلك من المعايير التي تميز كل صوت عن غيره .

وقد تحدث الخليل عن نظرة هذه المدرسة التي اتفق علماؤها معه عليها،وان اختلفوا في بعض الجزئيات ، فعلى الرغم من اختلاف عباراتهم واجتهادهم إلا أن فكرة العمل والاتجاه كانت واحدة ، فقد عمد العلماء إلى بيان مخرج كل صوت و إعطاء الصفات التي يتصف بها فيتميز بذلك عن غيره وان اشترك معه في المخرج ، فوضعوا الفواصل الدقيقة بين الأصوات المتقاربة في المخارج أو تلك التي تخرج من مخرج واحد،فكانت طريقة الخليل في التذوق تعتمد على مبدأ الأرفع فالأرفع في الترتيب المخرجي ، وهي طريقة ذوقية قد يختلف فيها علماء الصوت .

---

١) ينظر:المعجم العربي من التهذيب إلى لسان العرب :٤.

٢)المزهر : ٩٠/١ .

إلا أن هذا التذوق ، على الرغم من انه لم يعتمد على الآلات الحديثة لم يختلف كثيرا عن الدراسات الحديثة ، وان كان الكثير من الاختلافات يمكن أن يحمل على التطور الصوتي للألفاظ .

ومهما يكن من أمر فان ما جاءت به هذه المدرسة من أفكار صوتية رائدة ترمي في مجملها إلى تفاعل حقيقي بين البنية والصوت ، وان ترتيب الألفاظ مهما تنوع فانه يخضع لانسيابية صدوتية تؤدي المخارج فيها أثرا كبيرا في البناء العام للفظة وإنّ الصوت هو المنظار الحقيقي لبنية الكلمة(١) ، وهذا ما دفع الخليل ومدرسته الصوتية إلى الاهتمام به وبناء معاجم الألفاظ على هذا الأساس الذي جاء فيه وصف المخارج ضرورة ملحة لإكمال المنهج،بغض النظر عن الاختلاف في وصف المخارج سواء أكان ذلك بين علماء المدرسة أنفسهم أم بينهم وبين غيرهم من علماء المدارس الأخرى.

---

١) لقد نسبت هذه النظرة التي تذهب إلى القول بأن الصوت هو المنظار الحقيقي في بنية الكلمة إلى دي سوسير ، وقد كان العرب أسبق في القول بها ، ينظر :علم اللغة العام :١٣١.

المبحث الثالث

((صفات الأصوات))

لم تكن عناية هذه المدرسة بصفات الأصوات مثلما كانت عنايتها بمخارج الأصوات،إذ إننا أثناء دراستنا للمادة الصوتية عند هذه المدرسة وقفنا على عدد من الصفات المتفرقة في مؤلفاتهم ، التي لا يجمعها تسلسل منهجي أو علمي كالذي نجده عند النحويين ، ولعل ذلك كان مرتبطا بغايات محددة ومعينة لهذه المدرسة اذ ذكرت من الصفات ما استعملته في تطبيقاتها على ألفاظ العربية وما أفادت منه في الدراسة المعجمية ، فهم على سبيل المثال لم يستعملوا مصطلح المجهور والمهموس لأنهم لم يستفيدوا منه في تمييز الأصوات وإن أشاروا إلى صفة الهمس عند حديثهم عن صوت (الهاء) حالة التطبيق على العكس من مدرستي النحاة والمجودين عند حديثهما عن ظاهرة الإدغام،وهكذا بالنسبة إلى بقية الصفات الأخرى ، وهذا الأمر قاد بالضرورة إلى اختفاء عدد من الصفات عند علماء هذه المدرسة والتي لم تأخذ طريقها في الاستعمال إذ بقيت محصورة في نطاق محدود .

ومهما يكن من أمر فان هذه المدرسة لم تهمل الحديث عن صفات الحروف وإن كان مجال اهتمامها بها اقل ، ومن بين الصفات التي تحدث عنها علماء هذه المدرسة :

١. التفشي : .

وهي من الصفات التي أطلقها الخليل على صوت (الشين) والذين يظهر من نص الخليل هذا انه لم يوضح معنى التفشي وإنما اكتفى بقوله إنها صفة لصوت الشين[١] ، والذي يبدوا من خلال وصفه لمخرج الشين أن مفهوم التفشي عنده هو انتشار اللسان على الحنك ، فيتكون في وسطه شيء كالقناة يتسرب النفس منه ويتوزع تسربه في جنبات الفم ، ولا يقتصر على المخرج فقط[٢] ، وهو ما يفهم من شرح الخليل للمعنى اللغوي لهذه الفظة حيث يقول : ((فشا الشيء يفشو فشوا إذا ظهر... ومنه فشا اسر أي انتشر ... والتفشي التوسع وفشا وتفشى توسع وكثر وظهر))[٣] .

---

١) العين ٦/ ٢٨٩ ،وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعضهم حاول أن ينسب هذه التسمية والمصطلح إلى سيبويه إذ عده أول من استعمله ،ينظر المصطلح الصوتي : ١٨٠ .

٢) ينظر البحث الصوتي عند العرب :٥٦ .

٣) العين ٢٨٩/٦ .

وعلى الرغم من أن الخليل ومن تابعه قد خصوا صفة التفشي بصوت الشين نجد أنّ مِنَ العلماء من خارج هذه المدرسة مَن وصف بالتفشي أصواتا أخرى من نحو الصاد[1]والضاد والراء والصاد والسين والباء والتاء والميم[2]،غير أن ذلك لا يمكن أن يحمل على ما ذكرناه من أن المقصود بالتفشي هو انتشار خروج الهواء وانبساطه حتى يخيل أن هذه الأصوات قد انفرشت فضلا عمّا يحمله من دلالة الاستطالة من امتداده في مساحة اكبر في خروج الهواء من مجراه حتى يتصل في المخارج الاخرى[3] .

أما اختصاص الشين وحده بهذه الصفة عند علماء هذه المدرسة من دون غيرها فربما يحمل على أن صوت الشين يكون انتشار الهواء عند النطق به أوضح وأقوى من بقية الأصوات من حيث إشغال الصوت مساحة أوسع في اللسان ممّا يؤدي إلى هذا الانتشار البارز فيه .

٢. الجرس :.

صفة استعملها أصحاب هذه المدرسة ،إلاّ أنّها لم تأخذ مفهوما دقيقا عندهم ، وإنما كانت هناك إشارة إلى هذه الصفة وذلك عندما وصف الخليل العين والقاف بأنهما من الأصوات التي تتصف بفخامة جرسها إذا ما قيست بالأصوات الأخرى،وهذا ما يتضح من قوله في وصف هذين الصوتين إذ قال : ((ولكن العين والقاف لا تدخلان في بناء إلا حسنتاه،لأنهما أطلق الحروف وأضخمها جرسا))[4]، والجرس كما ورد عن الخليل في معجمه هو الصوت فقد قال : ((والجَرس : الصوت نفسه . وجرست الكلام : تكلمت به . وجرس الحرف : نغمة الصوت . والحروف الثلاثة الجوف لا صوت لها ولا جرس ، وهي الواو والياء والألف اللينة وسائر الحروف مجروسة))[5].

وأما ابن دريد فقد ذكر هذه الصفة في حديثه عن الألف فقال : ((واما الحرف التاسع والعشرون فجرس بلا صوت))[6]وذهب الأزهري في حديثه عن صفة الجرس إلى ما

---

١) ينظر: مخارج الحروف وصفاتها: ٨٣ .

٢) ينظر: النشر :٢٠٥/١ .

٣) ينظر: مخارج الحروف وصفاتها :٩٤ .

٤)العين ٥٣/١ .

٥) المصدر نفسه ٥١/٦ .

٦) جمهرة اللغة : ٧/١ .

ذهب إليه الخليل نفسه فقال : ((أما الجرس فهو الصوت في سكون الحرف))[١].

ولم يستطع المعجميون ترك هذه اللفظة لان الأمر يتعلق بتأليف الأصوات عند بناء الكلمة مع النظر إلى أن الكلمة العربية تتميز بانسجام أصواتها وأنها مبنية على نسق متدرج من الأصوات ، فإذا توالت أصوات متقاربة بالمخارج نظروا إلى جرس الأصوات وبدؤا من الأقوى إلى الألين ، لذلك كان لهذا المفهوم نصيب كبير في مباحث البلاغيين

٣. الخفية :.

صفة أطلقت على (الهمزة) وقد وصفها الخليل بأنها مهتوتة ،وهذا يدل على أنها تصل إلى درجة الهوائية في صفتها[٢] .وقد ورد هذه المصطلح عند سيبويه ولكنه لم يجعله صفة للهمزة بل هو عنده صفة لصوت النون فهو يقول : ((وتكون النون مع سائر حروف الفم حرفا خفيا))[٣]وهو مصطلح ظل متداولا على ما ذهب اليه سيبويه في وصفه للنون من دون أن يتغير[٤] .

٤. الذلاقة والإصمات :.

تعد هذه الصفة من أكثر الصفات التي استعملها المعجميون ،وأرادوا بها تلك الأصوات التي يكون حدوثها من طرف اللسان،وطرف كل شيء ذلقه،وهي أخف الأصوات وأحسنها امتزاجاً بغيرها[٥] .

وحدد العلماء عدد الأصوات المندرجة تحت هذه الصفة بستة أصوات ، ثلاثة منها ذلقية عن ذلق اللسان، أي طرفه وهي (اللام والراء والنون) ، وثلاثة شفوية هي (الفاء والباء والميم) .

ويبدو أن في إطلاق التسمية من جهة العموم فيه إشكال لأنّ هناك أصواتا شفوية لا دخل لذلق اللسان فيها ،لذلك ذهب بعض الباحثين إلى أن العلماء أرادوا التغليب لأنهم وجدوا (اللام والراء والنون) من طرف اللسان فجعلوا الاسم لها وضمّوا إليها الأصوات الأخرى[٦] ،وهو احتمال وجيه ولكنه بعيد ؛ فلماذا لم يعكسوا المسألة فيطلقوا عليها

---

١) جمهرة اللغة : ٥٠/١ .

٢) المصدر نفسه :٩٠/١ .

٣) الكتاب :٤٥٤/٤ .

٤) ينظر: المصطلح الصوتي : ٢٣٥ .

٥) ينظر:العين ٥١/١ .

٦) ينظر: الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني :٣٢٣ .

(الشفوية) بالتغليب لاسيما أن نصف هذه الأصوات أصوات شفوية ، ولعل سبب التسمية يرجع إلى سهولة نطقها بالاستناد إلى أنّ الذلاقة من جملة معانيها سهولة النطق لذلك لا يبعد أن تكون هذه التسمية مستمدة من خفتها على اللسان وكثرة دورانها في الكلمات العربية[1] .

أما صفة الإصمات فهي صفة تطلق على الأصوات الأخرى،لأنها أصوات صُمت أن يتكلم بها وتبنى الكلمة منها إذا كثرت فلا تجد بناءً رباعيا مصمت الأصوات لا مزاج له من أصوات الذلاقة[2] .

والذي يبدوا أن الغاية التي وضع على أساسها المعجم العربي أو هدف المدرسة المعجمية هو حصر الألفاظ العربية فكان ذلك الوصف للأصوات (الإصمات) يعد معيارا لمعرفة الألفاظ الداخلة في الكلام العربي بدليل قول الخليل:((لست واجدا من يسمع من كلام العرب كلمة واحدة رباعية أو خماسية إلا وفيها من حروف الذلق والشفوية واحدا أو اثنان أو أكثر))[3] .

وبذلك أُطلقت صفة الذلاقة والإصمات على تلك الألفاظ التي تندرج في المعجم العربي،ويبنى على ذلك شيوع الألفاظ من عدمها،ويقود ،ايضا، إلى معرفة المهمل والمستعمل،وقياس أكثر الألفاظ دورانا في كلام العرب .

٥- الصحيحة والمعتلة : .

من الصفات المهمة التي وردت عند علماء هذه المدرسة وعلى ضوئها قسمت الأصوات إلى مجموعتين رئيستين كل واحدة منهما لها مميزاتها الخاصة التي تنفرد عن غيرها،فالأصوات الصحيحة هي الأصوات التي تكون أصول أبنية الكلم والتي لها أحياز ومخارج وتضم أكبر عدد من الأصوات يبلغ (خمسة وعشرين) صوتا ، أما الأصوات المعتلة فهي الأصوات التي لا تكون أصولا في الكلمة وتشمل (أربعة) أصوات وهي (الواو والياء والألف اللينة والهمزة) والأصوات التي تتصف بهذه الصفة تنفرد بكونها لا مخرج لها وتكون لينة وهوائية وعلى رأي الخليل انها تخرج من الجوف فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان[4].

---

١) ينظر: الأصوات اللغوية: ١١٠-١١١ .

٢) ينظر: العين :٥٢/١ .

٣)العين: ٥٢/١ ، وينظر: الجمهرة :٧/١ .

٤) ينظر: العين :٥٨/١ .

والملاحظ أنّ هاتين الصفتين قد خضعتا للتقسيم على أساس نطقي أو على أساس مخرجي ، وفي الوقت نفسه لم تغفل هذه المدرسة عن أهمية هاتين الصفتين في بنية الكلمة فالأصوات المعتلة لا تعد من أصول أبنية الكلمة ، في حين إن الأصول تتمثل في الأصوات الصحاح ، فتكون الصفة مستمدة من أساس حرفي ، وهو من أهم غايات هذه المدرسة وأهدافها لمعرفة أصول الكلمة العربية لان عملية بناء المعجم تقوم على هذا الأساس ، لاسيما في عملية التقليب إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ أصوات العلة يبدل بعضها من بعض وليس لها استقرار يمكن أن يؤدي إلى إخضاعها لعملية الاحتمالات التي يقوم عليها نظام التقاليب ، بل هو جوهر العملية برمتها وهذا ما يظهره قول الخليل في وصف بعض تلك الأصوات وما تتعرض له من تغيرات صوتية إذ قال : ((لم أبدأ بالهمزة لأنها يلحقها بعض النقص والتغيير والحذف،ولا بالالف لانها لاتكون في ابتداء كلمة لا في اسم ولا فعل الا زائدة أو مبدلة ولا بالهاء لانها مهموسة خفية لا صوت لها،فنزلت إلى الحيز الثاني وفيه العين والحاء،فوجدت العين أنصع الحرفين فابتدأت به ليكون أحسن في التأليف))[١] .ومن ذلك يظهر لنا الاساس المهم في بناء المعجم بالاستناد إلى الجانب الصوتي .

٦ . الطليق :.

صفة أطلقها الأزهري أراد بها نصاعة الحرف ووضوحه في النطق،وتحددت الأصوات الطلق لديه بـ(العين والقاف) وبيّن سبب عزله لهما عن الأصوات الأخرى بقوله : ((لا تدخلان على بناء إلا حسنتاه لأنّهما أطلق الحروف،أما العين فانصع الحروف جرسا وألذّ سمعا ، وأما القاف فأصحها جرسا فإذا كانتا أو إحداهما في بناء حسن لنصاعتهما))[٢]ولم يكن الازهري المنتبه الوحيد لهذه الصفة بل سبقه الخليل بذلك لكنه لم يفضل الصوتين وذلك بعزلهما كما فعل الازهري ،ولعل ذلك يعود إلى اختلاف الهدف من التصنيف،فالخليل كان يريد التمييز بين البناء العربي الفصيح والبناء غير العربي(الوافد) في حين كان الازهري يرمي إلى رصد الأصوات التي لها فضيلة في تحسين البناء[٣] .

٧. المهتوت :.

---

١) المزهر :١/ ٩٠ .

٢) ينظر تهذيب اللغة :١/ ٤٥ . وينظر اثر التفكير الصوتي في دراسة العربية (اطروحة) :٢٨ .

٣)ينظر: أثر التفكير الصوتي في دراسة العربية(اطروحة):٢٩ .

وصف أطلقه الخليل على صوت (الهمزة) إذ وصفها بأنّها مهتوتة مضغوطة إذا رفه عنها لانت[١] ، ولم يشر الخليل إلى معنى المهتوت ولا المضغوط من الناحية الصوتية، في حين انه من الناحية اللغوية يعني (عصر الصوت) ، ولعل معنى ذلك أنّها إذا وقع ضغط أوعصرعلى الهمزة ورفه عنها لانت وزالت عنها صفة القوة.

٨. المهموس :.

لم تأخذ هذه الصفة البعد الدقيق الذي أخذته في مقولات سيبويه الصوتية ولكن هذا لا يبعد أن يكون الخليل قد استعملها وان كانت الدلالة مختلفة ، فقد أورد ابن كيسان عن الخليل في حديثه عن الهاء انه قال:((... ولا بالهاء لأنها مهموسة خفية لا صوت لها))[٢] ، وقد اكتفى الخليل في هذا النص بوصف الهاء بأنها مهموسة من دون أن يذكر معنى الهمس أو أن يضع المقابل لهذه الصفة،وقد ذكر الخليل هذا المصطلح في ثنايا معجمه مشيرا إلى أن الهمس هو ((هس الصوت في الفم مما لا إشراب له من صوت الصدر ولا جهارة في المنطق ولكنه كلام مهموس في الفم كالسر))[٣]ومن هنا لا يمكن أن نستبعد أن يكون الخليل هو الذي المح إلى سيبويه بالمدلول الاصطلاحي لهذه الصفة كما حاول أحد الباحثين فعل ذلك[٤] ، فاتخذوه مصطلحا بلاغيا تقوم على أساسه فصاحة الكلمة وبلاغتها[٥] .

---

١) ينظر: العين : ١/٥٨ و٦٤، وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك من أضاف إلى الهمزة والهاء حرفا ثالثا وصفه بالهتة وهو (الثاء) كما فعل الزمخشري وابن يعيش والرضي ،ينظر :المصطلح الصوتي :١٧٦ .

٢) المزهر :١/ ٩٠ .

٣) العين ٤/١٠ .

٤) ينظر: المصطلح الصوتي : ٩٠ .

٥) ينظر: جرس الألفاظ :٦٠ .

المبحث الرابع

منهج المدرسة ، المحاسن والمآخذ ،

أفاد المعجميون كثيرا من رأس مدرستهم الخليل بن أحمد الفراهيدي فكانوا من أوائل العلماء الذين تطرقوا إلى الحديث عن آلية نطق الصوت ومخارج الأصوات وذكر صفاتها،فقد عمل المعجميون على بناء نظام دقيق للمعجم العربي وسعوا إلى ترتيب هذا المعجم على وفق منهجية صوتية رغبة منهم في الوصول إلى أدق الأمور المعيارية التي يستطيعون بوساطتها الوصول إلى شروط اللفظ العربي الفصيح وبيان الشاذ منه والغريب(الدخيل) ، ذلك الأمر جعل هذه المدرسة تتصف بما يميزها عن غيرها من المدارس ، إلاّ أن هذا الاجتهاد أوقع هذه المدرسة في مآخذ معينة وسنحاول في هذا المبحث بيان هذه المحاسن والمآخذ :

أ . محاسن المنهج :.

بما أن لهذه المدرسة ميزة التفرد في ترتيب الأصوات اللغوية العربية على وفق أبجدية صوتية تتخذ من مخارج الأصوات أساسا لها ، فلا بد لها من أن تتماز بمميزات تعطيها صفة التفرد ، ومن هنا كان لابد من بيان مواطن هذا التفرد ولعل من أهمها :

١ـ ترتيب أصوات اللغة العربية ترتيبا صوتيا يستند إلى مخارج الأصوات وتبدأ هذه المخارج من أبعد نقطة مخرجية وصولا إلى الشفتين،فقد ابتعدت هذه المدرسة عن النظام الألفبائي في ترتيب الأصوات لانه يستند إلى الشكل من دون الجوهر ،وقد أوضح الليث برواية رواها عن الخليل العلة في ترك الترتيب القديم واللجوء إلى هذا الترتيب المبتكر بقوله : (((... فلم يمكنه أن يبتدئ التأليف من أول أ،ب،ت،ث، وهو الألف لان الألف حرف معتل فلما فاته الحرف الأول كره أن يبتدئ بالثاني وهو الباء الا بعد حجة واستقصاء النظر،فدبر ونظر إلى الحروف كلها وذاقها فوجد مخرج الكلام كله الحلق فصير أولها بالابتداء أدخلَ حرفٍ في الحلق))[١].

٢ـ تقسيم أصوات اللغة العربية،إلى مجاميع متناظرة لكل مجموعة خصائص ومميزات تتفرد بها عن غيرها،فقُسمت الأصوات عندهم إلى أصوات صحيحة (الصحاح) وعددها(٢٥) صوتا وأصوات معتلة (جوف)وعددها (٤) أصوات،فضلا عن تقسيم

---

١) العين ١/٤٧ .

الأصـوات إلـى أصـوات مصـمتة وأصـوات مذلقـة والأصـوات المذلقـة هـي سـتة أصـوات (ل،ر،ن ،ف،م) ، فضـلا عن إطـلاق ألقاب معينـة علـى مجاميع الأصوات وكل مجموعـة ينـدرج تحتهـا عـدد مـن الأصـوات،فظهرت ألقـاب معينـة اهتمـوا بهـا كالشـجرية والأسـلية والمذلقـة والحلقيـة واللهويـة وغيرها،فأصـبحت هـذه الألقـاب مسـارا لدارسـي الصـوت العربـي واستند إليهـا فيمـا بعد أصـحاب المـدارس الأخـرى ، وهـذا العمـل يعدّ مـن أبـرز السـمات المنهجية لهذه المدرسة فهو منهج يتوافق مع أحدث النظريات الصوتية الحديثة .

٣ ـ أعطت هذه المدرسة أهمية كبيرة للصوت اللغوي فـي الدراسات الغويـة المختصـة، فوضـعت يـدها علـى الأصـول فـي انطـلاق الأصـوات مـن مخارجهـا الدقيقـة، واطـلاق التسميات الدقيقة لكل صوت بالنظر إلى مدارج الأصوات ، وما يعترض ذلك من أجهزة النطق أو يتجاوزها باندفاع الهواء[1] ، فمنها ما يخرج من الجوف وليس لها حيز تنسب إليه سواه ، ومنها ما يقع في مدرج اللسان،وما يقع في مدرجه في مدارج الحلق،وما يقع من مدرج اللهاة،وما هي هوائية،وغير ذلك من التفصيلات الدقيقة[2]،وان إعطاء الصفة الأساسية لكل حيز أو لكل صوت سمة سبق بها رواد هذه المدرسة غيرهم .

٤ . ظهرت على أيدي علماء هذه المدرسة ظاهرة التعليل الصوتي وذلك من خلال ما قامت به هذه المدرسة من وضع مخطط شامل لمخرج كل صوت عن طريق الموازنة بين الأصوات ،إذ تأخذ كل مجموعة من الأصوات حيزا خاصا بها تنفرد به عن غيرها ومن هنا قامت بذكر السبب الذي جعلها تقدم صوتا معيناً على غيره من الأصوات ، متلمسة تعليلا صوتيا لهذا الأمر ،كما في حديثهم عن الحاء ؛ فانه لولا بحة فيها لأشبهت العين وذلك لقرب مخرجها من العين،وكذلك الهاء ؛ فلولا هتة فيها لأشبهت الحاء لقرب مخرج الهاء من الحاء وهذه الأصوات تقع في حيز واحد ولكن بعضها أرفع من بعض .

وهذا النسق الصـوتي لمخـارج الأصـوات يقـوم علـى فرضـية التـذوق وتحسـس الصـوت اللغوي ، ومعرفة النغمة الموسيقية لكل صوت،فهي السبب الأبرز في تقديم الأصوات بعضها على بعض وهي ضمن حيز واحد .

٥ـ استطاعت هذه المدرسة بالاستناد إلـى الأبعاد الصـوتية أن توجد معجما لغويا يقوم على معيار صوتي يحدد من خلاله أسبقية اللفظة للأخرى على وفق أسس صوتية، وذلك

---

١) ينظر الصوت اللغوي في القران :٤٤ .

٢) ينظر العين :١/ ٥٣ .٥٧ .

الذي جعل معيار الخليل الصوتي يبتعد كثيرا عن الخطأ لاسيما فيما يخص نظام التقاليب بحيث استطاع الخليل أن يحدد كل صنف من أصناف الأصوات المعجمية وعلى نسق صوتي قاده إلى خلق نظرية صوتية متكاملة للتعامل مع بنية الكلمة على أساس صوتي خالص، إذ كان هَمّ الخليل هو حصر الألفاظ ومعرفة المستعمل منها والمهمل وقد وفق إلى درجة كبيرة في عمله الرائد هذا .

٦ـ لم تكن الأبعاد المنهجية الدقيقة بعيدة عن عمل هذه المدرسة في تتبعها للصوت اللغوي ، إذ تتبعته من أبعد نقطة مخرجية (أقصى الحلق) وصولا إلى الشفتين ، وهذا يختلف عن منهج المحدثين الذين تتبعوا الصوت من الشفتين إلى أقصى الحلق ،ونرى أنّ نظرة هذه المدرسة كانت اقرب إلى الدقة لان المنهج يقتضي تتبع الصوت من أقصى نقطة(أقصى الحلق) لأنها النقطة الأولى التي يحدث فيها الصوت الذي يصدر باندفاع الهواء من الرئة .

٧. تعد المدرسة المعجمية أول المدارس التي ربطت بين الدراسة الصوتية وبنية الكلمة ، فلم تكتف هذه المدرسة بالتنظير لعلم الأصوات وإنما قامت بعملية تطبيقية لمعرفة أصالة الألفاظ العربية من خلال تناسق أصواتها،وذلك عن طريق معيار الذلاقة والإصمات الذي يعد معيارا ذوقيا لمعرفة الدخيل من الأصيل وقد أضاف إليه الأزهري فكرة الصوت الطليق وتحددت الأصوات الطلق لديه بـ(العين والقاف) وبين سبب عزله لهما عن الأصوات الأخرى بقوله : ((لا تدخلان على بناء إلا حسنتاه لأنهما أطلق الحروف ، أما العين فانصع الحروف جرسا وألذّ سمعا،واما القاف فأصحّها جرسا فإذا كانتا أو إحداهما في بناء حسن لنصاعتهما))(١) .

---

١) تهذيب اللغة :١/ ٤٥ ، وينظر: أثر التفكير الصوتي في دراسة العربية (اطروحة) :٢٨ .

ب . مآخذ المنهج :.

على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها علماء هذه المدرسة في مجال الصوتيات نجد عملهم هذا لم يكن ليخلو من بعض المآخذ شأنه شأن أي عمل في بدايته الأولى ،ويمكننا إجمال تلك المآخذ بالنقاط الآتية :.

١. إنّ مما يؤخذ على علماء هذه المدرسة عدم التفصيل في الوصف المخرجي لأصوات اللغة العربية ، فقد اكتفت المدرسة المعجمية في نسبة الأصوات إلى مناطق مخارجها من نحو الأصوات الحلقية والأصوات اللثوية واللهوية وغير ذلك .

أما إذا وجد تفصيل ما فإنه لا يكون بالسعة والتفصيل الكافيين اللذين نجدهما عند مدرسة النحاة مثلا ، ولعل مرد ذلك إلى أن علماء هذه المدرسة وجهوا اهتمامهم إلى مناطق خروج الصوت اللغوي ونسبته إلى هذه المناطق من أجل الغاية التي يرومون الوصول إليها وهي ترتيب ألفاظ العربية بحسب مخارج الأصوات والوصول إلى أبعد نقطة مخرجية ، ومن ثم التدرج في المناطق التي تمر بها الأصوات ، ومن هنا لم يصفوا مخارج الأصوات وصفا دقيقا لان الغاية المتوخاة قد تحققت .

فالهدف هو نسبة كل صوت إلى مخرجه لأن ذلك يتوقف عليه بناء المعجم وبناء الباب الأول منه لحصر ألفاظ اللغة ، وهذا ما فعله الخليل فسمّى معجمه بالعين لأن العين تقع في أبعد نقطة مخرجية تمكن من تذوقها.

٢. يعاب على المدرسة الخطأ في وصف بعض المخارج الصوتية وعدم الدقة في نسبة بعض الأصوات إلى مخارجها ، وقد بينا ذلك عند الحديث عن مخارج الأصوات فقد وصفوا مخارج الأصوات على وفق خبراتهم المستمدة من تجاربهم القائمة على الملاحظة الذاتية في رصد آلية إنتاج الأصوات اللغوية وهذه الطريقة يمكن أن يتسرب إليها الخطأ لان علم الأصوات ليس من العلوم التي تستند إلى الحدس والتخمين بل هو علم يستند إلى الدقة والعلمية في عرض مادته العلمية والأمر يتطلب معرفة دقيقة بعلم الطب وجهاز النطق الإنساني .

٣ ـ على الرغم من ثراء المادة الصوتية لدى المدرسة الصوتية المعجمية نجد أنها لم تكن بالمستوى الدقيق في بعض المعالجات الصوتية وابتعدت في أحيان أخرى عن التفسير والتوضيح ، والذي يبدو أن السبب في ذلك يعود إلى أن مجال الصوتيات عندهم كان يدور حول فكرة محورية وهي محاولة معرفة جوهر الظاهرة الصوتية ونسق بناء اللفظة

العربية لذلك عالجوا هذه المادة بعمق فكري يستند إلى التحليل الاستقرائي بوصفه تحليلا لغويا يخضع إلى آلية التطبيق المستند إلى السماع والقياس ، لذلك كان البحث عن أصالة اللفظة العربية ومعناها وانتشارها هوالسبب المباشر في دراسة مخارج الأصوات وصفاتها عند المعجميين فكانت الذلاقة والإصمات والصحة والإعلال ونظام التقاليب أدوات المعجمي في دراسة اللفظة القائمة على أساس نظام مخارج الأصوات ، وبذلك تكون فكرة دراسة الأصوات فكرة وظيفية الغاية منها البحث عن أصالة اللفظة العربية وما يطرأ عليها من تغييرات أثناء الاستعمال اللغوي،فلم تكن الغاية . إذن . دراسة علم الأصوات من حيث هو علم مستقل وانما كانت دراسة هذا العلم مرتبطة بهذه الغاية ولعل هذا الأمر يفسر لنا سبب عدم توسع علماء هذه المدرسة بدراسة تفاصيل المادة الصوتية .

٤ ـ عدم التوسع في ذكر صفات الأصوات ،فضلا عن عدم إعطاء المفاهيم العلمية الدقيقة لبعضها،ما خلا صفتي الذلاقة والإصمات لأنهما من الصفات التي تدخل في العملية التطبيقية لديهم ،أما باقي الصفات الأخرى فقد اكتفوا بذكر أسمائها من دون تفصيل يؤكد ما ترمي إليه هذه الصفة وما تحمل من دلالة من نحو (الخفاءِ) و(الهمس) وغيرهما، مما يؤكد أن هذه المدرسة اهتمت بالجانب التطبيقي والوظيفي وان اهتمامها بالصفات لم يصل إلى درجة اهتمامها بالمخارج وذلك لأهمية المخارج عندهم إذا ما قيست بالصفات .

ولعل طبيعة المنهج فرضت عليهم هذا التوجه في دراسة صفات الأصوات في مواضع متفرقة وتفاوت التفاصيل فيها وهذا ما دفع الدارس إلى رصد هذه الصفات والتعامل معها بفكر موضوعي يكشف عمّا ترمي إليه مضامينها وصولا إلى حقيقتها العلمية مع النظر إلى مجمل الظاهرة موضوع الدرس والغاية التي من أجلها درست الصفات وعلى وفق منهجهم في التعامل مع علم الأصوات .

٥ـ الاختلاف في ترتيب الأصوات بحسب مخارجها عند المعجميين ، فإمكانية رصد التفاوت في التقديم والتأخير يظهر في الوقوف على الجهود الصوتية لرجالات هذه المدرسة،فقد رأينا في معرض حديثنا على الترتيب المخرجي عندهم اختلافهم في تقديم بعض الأصوات عن بعضها وتأخيرها .

ويمكن تفسير ذلك على أساس التذوق ونظرة كل عالم إلى مخارج الأصوات وإحساسه بمناطق صدورها ، ولكن الاحتمال الأرجح الذي يبدوا لنا أن العلماء الذين ساروا على نهج

الخليل قد اقتبسوا مقدمته الصوتية ولاضطراب نسخها وتعدد رواياتها وقعوا في مثل هذا التفاوت يسند ذلك أن ابن منظور(ت ٧١١ هـ) قد نقل ترتيب الخليل في رواية عن الخليل من أحد مصادره وقد جاءت تحمل في طياتها تغيرات في الترتيب من نحو تقديم الذال على الثاء في المخرج نفسه،وجعل الواو بجوار الياء،قبل الألف، مع تقديم الياء[١]،وهو ما دفع ابن جني (ت٣٩٢هـ) إلى انتقاد ترتيب الخليل لمخارج الأصوات والتحامل عليه بشدة،ومن ثم تبنى ترتيب سيبويه لمخارج الأصوات[٢] .

وهو احتمال قائم لاسيما مع اضطراب الروايات في نقل مادة الخليل مع التسليم بأن الفكرة هي من أفكار الخليل وحده[٣].

٦ . اضطراب معالجة أصوات العلة،فلم تأخذ ترتيبا مستقراً ولاسيما عند الخليل ، فتارة نجده يقول : ((الياء والواو والألف والهمزة هوائية في حيز واحد،لأنها لا يتعلق بها شيء))[٤]، وتارة يقول : ((ثم الألف والواو والياء في حيز واحد،والهمزة في الهواء لم يكن لها حيز تنسب إليه))[٥]، وتارة أخرى يقول : ((وأربعة هوائية ، وهي الواو والياء والألف اللينة والهمزة،فأما الهمزة فسميت حرفا هوائيا لأنها تخرج من الجوف،فلا تقع في مدرج من مدارج اللسان ولا من مدارج الحلق،ولا من مدارج اللهاة،إنما هي هاوية في الهواء،لم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف، كالألف اللينة والواو والياء هوائية أي أنها في الهواء))[٦] .

وبعد ذلك يضع الهمزة في موضع آخر فيقول: ((وأما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق مهتوتة مضغوطة))[٧] ، وهذا يدل على اضطراب في النظر إلى مثل هذا الأصوات،فضلا عن أن (الهمزة) ليست هوائية وإنما هي صوت حنجري في الوصف الحديث ، ولايمكن إدراجها ضمن أصوات العلة لان أصوات العلة في الوصف الحديث هي(الواو والياء) نصف الصامتتين،أما الألف فهو صائت طويل وليس من الصوامت أو من أصوات العلة ، ولعل الرابط المشترك بينهما في نظر الخليل كان رابطا وظيفيا تعامليا

---

١) ينظر: لسان العرب:٧/١ ، والمعاجم اللغوية:٧١ .

٢) ينظر: سر صناعة الإعراب :١/ ٥١.٥٠ .

٣) ينظر: المعاجم اللغوية :٢٠ . ٢٩ .

٤) العين : ٦٥/١ .

٥) المصدر نفسه : ٦٥/١ .

٦) المصدر نفسه :٦٤/١ .

٧) المصدر نفسه : ٥٨/١ .

أو بمعنى أدق كان رابطا صرفيا يقع في حيز بناء الكلمة وما تتعرض إليه من تغيرات بسبب إبدال هذه الأصوات بعضها من بعض،فإدراجها في حيز واحد عمل وظيفي وليس عملا صوتيا يراعي الخصائص الصوتية لكل صوت .

٧ . عدم الاستقرار في نسبة الأصوات إلى مخارجها،فالخليل الذي هو رأس هذه المدرسة يجعل الجيم والشين والضاد في طبقة واحدة تخرج من شجر الفم،ولذلك أطلق عليها(الحروف الشجرية)[١]، ولكننا نقرأ عنده أن مخرج الجيم والقاف والكاف من بين عكدة اللسان وبين اللهاة في أقصى الفم[٢] .

وبذلك أخرج الجيم من هذه المجموعة ووضعها في مجموعة اللهاة ، ولعل في اضطراب النسخ أو النقل عن الخليل أثراً في عدم الاستقرار،ولكن ذلك لا يعني أن ننعت الخليل بأنه لم يملك نظاما صوتيا محكما لمخارج الأصوات، وأنه كان مضطربا بين عدة نظم يختلف بعضها عن بعض كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين[٣] ، فالخليل قد وضع فكرة لغوية عامة ونظاما صوتيا محكما .

---

١) ينظر: العين ٦٥/١ .

٢) ينظر: المصدر نفسه :٥٨/١ .

٣) ينظر: المعجم العربي نشأته وتطوره: ٢٤٥/١ .

الفصل الثاني

مدرسة النحاة الصوتية

المدخل

المبحث الأول : الأعضاء النطقية ومخارج الأصوات

المبحث الثاني : صفات الأصوات

المبحث الثالث : الظواهر الصوتية

المبحث الرابع : منهج المدرسة المحاسن والمآخذ

المدخل

كانت عملية التأريخ لنشأة النحو العربي من أبرز الموضوعات شيوعا عند الدارسين المحدثين وذلك لما احتواه هذا الموضوع من غموض كبير في معرفة الواضع الأول لهذا العلم ومعرفة الكتاب الأول الذي ألف فيه ، فألف الباحثون الكثير من الكتب التي عالجت هذا الموضوع[١] ،وليس من اختصاص بحثنا الوقوف على هذا الموضوع ولكن الذي نريد أن نؤكده هنا هو أن النحويين قد أعملوا فكرهم في الجانب الصوتي ودرسوا جوانبه المختلفة.

والأمر الذي تجدر الإشارة إليه هنا هو أن هذا النّضج الواضح في الفكر الصوتي الذي وجدناه في أول كتاب نحوي ناضج يصل إلينا. نعني كتاب سيبويه . لا بد أن يكون مسبوقا بخطوات بسيطة سلكها الدارسون حتى وصلوا إلى هذا النّضج العلمي في دراستهم،وهنا لا بدّ لنا من الوقوف على أول رواية تشير إلى هذه النشأة ،إذ تشير الرواية إلى أن أول إشارة إلى العلم قد جاءت منسوبة إلى أبي الأسود الدؤلي (ت٦٩هـ) عندما قال لاحد تلاميذه عند تنقيط المصحف الشريف: ((خذ المصحف وصبغا يخالف لون المداد،فإذا فتحت شفتي فانقط نقطة واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتها فأجعل النقطة إلى جانب الحرف،وإذا كسرتها فاجعل النقطة في أسفله،فان اتبعت شيئا من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين))[٢] .

ففي هذا النص إشارة واضحة إلى الحركات القصيرة التي تتمخض عنها الحركات الطويلة وهي (الألف والواو والياء)،وعلى الرغم من أن أبا الأسود الدؤلي لم يتعمد وضع أسس علم الأصوات عند العرب فإن إشارته هذه تعد من الإشارات المهمة في نشأة هذا العلم .

ثم مرت سلسلة التاريخ الصوتي عند النحاة بمرحلة أحدثت فجوة تاريخية بين هذه الإشارة والمادة الصوتية التي أوردها سيبويه في كتابه إذ ضم مادة صوتية دقيقة استقى منها النحويون أسس علم الأصوات في قواعده وتطبيقاته،غير أن ذلك لا يلغي النشوء

---

١) من بين الكتب والبحوث التي عالجت هذا الموضوع : نشأة النحو وتأريخ أشهر النحاة :محمد طنطاوي ، ، والمدارس النحوية: د.شوقي ضيف، والمدارس النحوية،د. خديجة الحديثي ونشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه جيرار جينيت (بحث).

٢) المحكم ،الداني : ٤ ، وينظر الفهرست : ٤٥.

التدريجي لهذا العلم حتى اكتمل على يد سيبويه في كتابه المشهور ،فهناك من النحاةَ من ألف في النحو العربي من أمثال عيسى بن عمر الثقفي (ت١٤٩هـ) ، إذ تنسب إليه المصادر كتابي (الإكمال والجامع) ، إلا انهما لم يصلا إلينا فضلا عن الشك الذي يحيط بنسبتهما إلى عيسى بن عمر الثقفي[١] ، فنحن لا نعرف حجم المادة الصوتية التي حواها الكتابان .

إلا أن الأمر الذي لا يدع مجالا للشك بوجود الكتب التي سبقت سيبويه هو اكتمال علم الأصوات عند سيبويه ، فهذا الاكتمال لم يأتِ من فراغ ، أو عن طريق طفرة علمية ، وإنما مر بمراحل تدريجية تمثلها تلك الإشارات المتناثرة هنا وهناك في كتب النحو التي سبقته .

وعلى الرغم من أن ما جاء به سيبويه من مادة صوتية مهمة تمثل نتاج الفكر الصوتي عند العرب قد نسبه بعض الباحثين إلى الخليل بن احمد الفراهيدي الذي تتلمذ سيبويه على يديه ، إلا إنّ ذلك لا يعني مصادرة حق سيبويه في الإبداع في هذا الجانب ، لاسيما أنّ ترتيب سيبويه لمادته الصوتية فضلا عن الموضوعات التي عالجها تكاد تختلف كليا عن ترتيب الخليل ومن تبعه من علماء المدرسة الصوتية المعجمية .

لقد كان كتاب سيبويه المصدر الأبرز الذي استقى منه الأصواتيون أسس علم الأصوات عند العرب وقامت على أثر ذلك الكثير من الدراسات التحليلية والوصفية والنقدية على المادة الصوتية التي ضّمها حتى قيل فيه:((إن هذا الرجل يعد الرائد الحقيقي في الدراسات الصوتية العربية ، وان أعماله في هذا المجال هي الأساس لكل الأعمال الصوتية من بعده))[٢] .

فالأثر الذي أحدثه سيبويه في الدراسات الصوتية كان كبيرا حتى أصبحت مادته الصوتية التراث الأوحد للعلماء الذين جاءوا من بعده ، فنحن نجد أبا العباس المبرد (ت٢٨٥هـ) يسير على خطى سيبويه في ترتيب مادته الصوتية ويجعلها الأساس الذي يرتكز عليه في الحديث عن الجانب الصوتي ، وعلى الرغم من محاولته إضافة بعض التوضيحات ولاسيما المصطلحات الصوتية من نحو (المصوته وغير المصوته) نجد أنه

---

١) ينظر :مراتب النحويين:٢١ ،وطبقات النحويين واللغويين:٣٥-٤١ ،ووفيات الأعيان:٣/١٥٤-١٥٦
٢) الأصوات عند سيبويه :١٨ (بحث) .

ظل أسيراً لعبارات سيبويه[1]، وكذلك فعل ابن جني إذ أعرض عن مادة الخليل الصوتية واستند إلى مادة سيبويه متخذا من خط المدرسة النحوية اتجاها حدد به مسار مادته الصوتية في كتابه (سر صناعة الإعراب) ، والنحاة الذين ساروا على هذا الخط كثر ، إذ يعد سيبويه بحق رأس هذه المدرسة الصوتية ، حيث كان حديثه عن المخارج والصفات المدخل الواسع للدراسة الصوتية عند علماء هذه المدرسة ، حتى أن بعض العلماء كان ينقل المادة الصوتية من سيبويه كما هي ، ولم يجرؤ على التغيير فيها كما هو الحال عند ابن السراج (ت٣١٦ هـ)[2].

من هنا كان منطلق هذه المدرسة يبدأ بسيبويه ثم انتقل إلى المبرد والزجاج (ت٣١١ هـ) وابن السراج والزجاجي(ت٣٣٧هـ) والزمخشري(ت٥٣٨هـ) وابن يعيش(ت٦٤٣هـ) والرضي (ت٦٨٠هـ) وابن عصفور (ت٦٩٩هـ) والاشموني (ت٩١١هـ) والسيوطي(ت٩١١هـ) وغيرهم من النحاة الذين ساروا على خط هذه المدرسة .

وقد اختلفت آراء المحدثين حول تحديد العلاقة بين النحو والصوت عند النحاة القدماء فمنهم من ذهب إلى القول أنّ النحاة لم يستطيعوا أن يستفيدوا من هذه العلاقة فهي لم تكن ذات ملامح واضحة عندهم وأّنه ((من النادر أن نجد في كتب النحو من يُشير إلى الارتباط بين ظاهرة نحوية وأخرى صوتية مع أنَّ الكثير من ظواهر النحو لا يمكن تفسيره إلاّ على أساس صوتي))[3]،ومنهم من رأى أنّ هذه الدراسة ((كانت ملحقة بالنحو لا ممهدة له ولا معينة على فهمه كما ينبغي لها أن تكون ؛ ذلك أّنها جاءت في آخر الكتاب، فلا يراها القارئ إلاّ بعد الفراغ من النحو والصرف ، وفي وضعها هذا الموضع من الكتاب دليل على أنَّ النحاة لم يكونوا يقدّرون العلاقة العضوية التي تربط الأصوات بالنحو حقَّ قدرها)) [4].

---

١) ينظر :المقتضب :١/١٩٧والدرس الصوتي عند المبرد(رسالة) : ٧٨ .

٢) ينظر: الأصول ٣/٤٠٠وما بعدها .

٣) المنهج الصوتي للبنية العربية : ٩

٤) الأصول : ٩٧

وقد حاول الكثير من الدراسات الجادة أن تبين قضية الارتباط بين الدرس النحوي والدرس الصوتي[1] ، وخلصت هذه الدراسات إلى القول أن الدراسات النحوية مبنية على علم الأصوات ومن هنا كانت المادة الصوتية واحدة من أبرز المواد التي درسها النحاة مكونين بذلك مدرسة خاصة لها ملامحها المتميزة ومنهجها وغاياتها التي تختلف عنها في غيرها من المدارس،الأمر الذي جعل عددا من المحدثين يدعو إلى ((وضع منهج متكامل للدرس اللغوي ابتداءً من الأصوات ، إلى الصيغ ، إلى التراكيب ، مروراً بكلّ مستويات البحث))[2] .

١) ينظر :علم اللغة العام/الأصوات:١٨٧– ١٩٨،وقضايا صوتية في النحو العربي (بحث) ، و (أثر التفكير الصوتي في دراسة العربية) (أطروحة دكتوراه لمشتاق عباس معن) ، و(التوجيه الصوتي في دراسة النحو العربي ، علامات الإعراب والبناء أنموذجًا) (أطروحة دكتوراه لعقيل رحيم علي) .
٢) المنهج الصوتي للبنية العربية : ٩ ، وينظر التطور اللغوي : ١١ .

المبحث الأول

الأعضاء النطقية ومخارج الأصوات

١. أعضاء النطق :.

استعمل العرب طريقة صوتية خاصة بهم لها اتجاه معين في التعبير، بفضل حسهم المرهف وبراعتهم في استعمال أعضاء النطق، فاستطاعوا أن يصدروا ألوانا من الأصوات لم يستطع غيرهم ان ينطق بها [١].

ولم يكن اعتماد علماء العربية على الملاحظة الذاتية لأعضاء النطق في تحديد مخارج الأصوات سببا يبعدهم عن الوصف الدقيق لمخارج الأصوات وتحديد العملية النطقية ، فقد عرف اللغويون العرب تلك الأعضاء وحاولوا من خلال هذه المعرفة تحديد كيفية نطق الأصوات والوقوف على وظيفة كل عضو منها والإشارة إلى أنّ لهذه الأعضاء وظائف أخرى غير إخراج الأصوات فوظيفة اللسان مثلا تذوق الطعام، والأسنان قطع الطعام وطحنه، والأنف التنفس والشم، وهكذا بقية الأعضاء[٢]،ولقد اكتفى بعضهم بوصف الأعضاء الظاهرة لهذا الجهاز متبعين بذلك سيبويه الذي كان له الأثر الكبير في العلماء الذين ساروا على خطاه مكونين بذلك مدرسة النحاة الصوتية ، إذ استند إليه الذين جاءوا من بعده بترديد تسمياته لتلك الأعضاء ولم يشذ أكثرهم عنه إلا للتوضيح أو تفسير ما غمض من معناها،كتفسيرهم للثنايا التي يخرج منها (الزاي والسين والصاد) بأنها السفلى ، في الوقت الذي لم ينص سيبويه على وصفها بالسفلى وانما تركها مطلقة [٣].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الرضي ،وان لم يخرج عن الإطار العام لهذا المنهج ، حاول الوقوف بشيء من التفصيل على كيفية حدوث الأصوات الأسنانية ،فوصف الفكين والكيفية التي تتخذها عند حدوث الأصوات وخصوصا صوت الضاد[٤]، وقد حدد علماء هذه المدرسة الأعضاء التي تقوم بالعملية النطقية بالتحديد الذي ذكره سيبويه نفسه وذلك على النحو الآتي[٥] :

١ – الحلق وقسموه إلى :

---

١) ينظر : اللغة الشاعرة : ١٢.

٢) ينظر:أصوات اللغة العربية :٣٨ و ينظر: فقه اللغة العربية ٧٥ .

٣) الكتاب : ٤٠٥/٢. الأصول في النحو : ٤٠٠/٣.

٤) ينظر :الدرس الصوتي عند رضي الدين الاسترابادي : ٦٨ –٩٦ .

٥) ينظر : الكتاب : ٢ / ٤٠٥.وينظر: المقتضب :١ / ١٩٣ .وينظر : الأصول :٣ / ٤٠١.٤٠٠.

أقصى الحلق .

وسط الحلق .

أدنى الحلق .

٢- اللسان وقسموه إلى :

أقصى اللسان .

وسط اللسان .

حافة اللسان (أول الحافة، أدنى الحافة) .

طرف اللسان .

ظهر اللسان .

٣- الحنك الاعلى وقسموه إلى :

الغار وهو القسم الصلب منه .

الطبق وهو القسم الخلفي للحنك .

٤- الثنايا وقسموها إلى :

الثنايا العليا

والثنايا السفلى

وأصول الثنايا وأطرافها .

٥- الخياشيم .

٦- الشفتان .

٧- الأسنان .

ولم يلتزم علماء هذه المدرسة جميعا بالخط الذين سار عليه سيبويه من دون أي خروج عن منهجه بل كان للبعض منهم عدد من الاجتهادات والإضافات على ما قاله ، من ذلك ما ذهب إليه رضي الدين الاسترابادي (ت ٦٨٤هـ) في تحديده لعدد المخارج وتقسيماتها ، إذ ذكر أنّ عدد الأسنان هو (اثنتان وثلاثون) سنا، (ست عشرة) في الفك الأعلى ، ومثلها في الفك الأسفل موزعة أربع منها على الثنايا ، اثنتان من فوق ومثلها من أسفل ، وأربع على الأنياب ، اثنتان من فوق يمينا ويسارا ، ومثلها من أسفل ، وأربعة على الضواحك ، اثنان من فوق يمينا ويسارا ، ومثلهما من أسفل ، وباقي الأسنان (ست عشرة) تسمى الأضراس ، ثمانية من فوق ، أربع يمينا، وأربع يسارا ، ومثلها من أسفل ، وقد بنيت خلف الأضراس النواجذ،وهي أربع من كل جانب، اثنتان من فوق،واثنتان من أسفل ، وبذلك يصبح عدد الأسنان (إثنان وثلاثون)[1].

---

١) ينظر :شرح الشافية : ٢٥٢/٣ ، وينظر الدرس الصوتي عند رضي الدين الاسترابادي (رسالة): ٧٢و٧٣ .

ومن ذلك يتضح لنا أن علماء العربية قد عرفوا أعضاء الجهاز النطقي بالاستناد إلى معرفتهم اللغوية التي دخل فيها الكثير من المفاهيم الطبية فضلا عن إلى اعتمادهم على الملاحظة والتجربة التي أوصلتهم إلى الوصف الدقيق لآليات النطق والتحقق من مخرج الصوت وصفته(١) .

فجاء وصفهم مقاربا لوصف المحدثين مع زيادة المحدثين لبعض التفصيلات الدقيقة لهذا الجهاز النطقي بفضل ما توافر لهم من أجهزة دقيقة لكشف أعضاء الجهاز النطقي وبيان تفصيلاته الدقيقة التي هيأها لهم التقدم العلمي الكبير في مجال الطب والمختبرات الصوتية المزودة بالأجهزة(٢) .

وقد أثر هذا التقسيم لمخارج الأصوات على تقسيم الأصوات أنفسها عند علماء العربية وذلك لأنهم قسموا الأصوات بحسب المخارج التي تحدث فيها إذ نسبوا كل صوت إلى المخرج الذي يخرج منه .

فقد رتب سيبويه الأبجدية الصوتية ترتيبا مخرجيا إذ رتبها على النحو الآتي(٣) :- (الهمزة،ا،هـــ، ع،ح، غ،خ،ك،ق،ض،ج،ش،ي،ل،ر،ن،ط،د،ت،ص،ز،س،ظ،ذ،ث،ف،ب م،و) .

وتابعه في ذلك علماء العربية (٤)، وعلى الرغم من أن ابن جني حاول الخروج عن ترتيب الخليل، متبنيا خط سيبويه في ترتيب المخارج، نجد أنه أورد ترتيب سيبويه مع اختلاف في مجموعة الأصوات (ق،ك،ج،ش،ي،ض) إذ قدم وأخر في ترتيب بعض الحروف مخالفا ترتيب سيبويه (٥).

وقد كان لتحديد المخارج بحسب مخارجها الأثر في الخلاف بين العلماء في تحديد صوت الهمزة وذلك لأنهم لم يستطيعوا تحديد مخرجها ، الأمر الذي جعل بعضهم يذهب إلى حصر الأصوات بـ(تسعة وعشرين)صوتا أولها صوت الهمزة وآخرها صوت الياء على المشهور في الترتيب ، فضلاً على بعض الأصوات المتفرعة عنها ، ما استحسن منها وما

---

١) ينظر: أصالة علم الأصوات : ٥١.

٢) ينظر : علم اللغة العام / الأصوات : ٦٤. والكلام : انتاجه و وتحليله : ٩١.

٣) ينظر:الكتاب : ٢ /٤٠٥ .

٤) ينظر: المقتضب : ١٩٢/١ . والأصول:٣، ٣٩٩. شرح الشافية : ٢٥٥/٣. والدراسات الصوتية عند علماء التجويد : ١٧٥ .

٥) ينظر :الكتاب : ٤٠٥/٢. وسر الصناعة : ٥٠/١-٥١.

استقبح ، وقد نقل عن بعض العلماء كالمبرد انه يعد الأصوات العربية (ثمانية وعشرين) صوتا ، فجعل (الباء) أولها وأهمل (الألف) ، وحجته في ذلك أنها همزة، لأنها لا مخرج محدد لها(1)، وقد ردّ العلماء العرب رأي المبرد ، وأثبتوا أن الهمزة غير الألف بالاعتماد على اختلاف مخرجهما(2).

ولدقة الخط الذي اختطته هذه المدرسة في تحديد مخارج الأصوات ووصفها بحسب المخرج الذي تقع فيه كان هذا المنهج في تتبع العملية الصوتية هو مسار المحدثين وان ساروا في التتبع الصوتي من الخارج إلى الداخل ، وهو اتجاه معاكس لترتيب علماء العربية ومخالف له في الشكل إلاّ انه مشابه له بالنتيجة ومن هنا يتبين لنا أن القدماء كانوا على قدر كبير من العلمية في دراستهم وأن مرد الخلاف الذي حدث بينهم وبين الدراسات الحديثة نابع من أسباب كثيرة أهمها التطور الذي تعرضت له الأصوات مع مرور الوقت وهو أمر الذي جعل مواضع نطقها تختلف بين القديم والحديث(3) .

٢. مخارج الأصوات :.

لا نريد أن نكرر هنا ما ذكرناه في الفصل الأول الذي تحدثنا فيه عن مدرسة المعجميين حول مفهوم المخرج عند علماء العربية لان حديثنا هناك كان كافيا في إيضاح هذا المفهوم وبيان حدوده،ومن هنا سننطلق في هذا المبحث من الحديث عن عدد المخارج عند علماء هذه المدرسة ومقدار الاتفاق والخلاف بينهم فيها، فلقد كان للخليل بن أحمد الفراهيدي الأثر الكبير في فكر عدد من علماء هذه المدرسة الأمر الذي أدى إلى حدوث خلاف بين علمائها في عدد المخارج ، إذ انقسم العلماء إلى مذهبين: مذهب أخذ بعض آرائه من المعجميين،وهم قلّة،ومذهبٌ سار على خطى النحاة،وهم الجمهور.

ومحور الخلاف هو مخرج الحروف الجوفّية، أو الهوائية، التي تُسمّى حروف المدّ واللّين ، وهي: الألف، والواو الساكنة المضموم ما قبلها، والياء الساكنة المكسور ما قبلها.

فالخليل ومن تبعه يرى أنّ لها مخرجاً مستقلاً بها، وبذلك يكون عدد مخارج الحروف – عنده – ومن تبعه، سبعة عشر مخرجاً ، قال الخليل في تحديد مخارج الحروف: ((في العربية تسعة وعشرون حرفاً : منها خمسة وعشرون حرفاً صحاحا، لها أحيازٌ ومدارج ،

---

١) ينظر:المفصل : ١٢٦/١، وسر الصناعة :٤٦/١، و الزينة :٦٤/١.و كلام العرب : ١٦.

٢) ينظر:سر الصناعة : ٤٦/١–٤٨. وحاشية الصبان : ٢٨٦/٤ . ٢٨٧.

٣) ينظر :علم اللغة العام / الأصوات : ٩٤.

وأربعة أحرف جُوفٌ ، وهي: الواو، والياء ، والألف اللينة ، والهمزة ، وسُمّيت جُوفاً ؛ لأنّها تخرج من الجوف ، فلا تقع في مدْرجةٍ من مدارج اللسان ، ولا من مدارج الحلق ، ولا من مدْرج اللّهاة ، إنّما هي هاوية في الهواء ، فلم يكن لها حيِّزٌ تُنسب إليه إلاّ الجوف))(1).

وأمّا سيبويه ومن سار على خطّه فيرون أنّ مخارج الحروف ستة عشر مخرجاً، وذلك بإسقاط مخرج الحروف الجوفية ، التي هي حروف المدّ واللين،إذْ جعلوا مخرج "الألف" من أقصى الحلق ، وجعلوا (الواو المدية) من مخرج الواو المتحركة من الشفتين، وجعلوا "الياء المدية" من مخرج الياء المتحركة من وسط اللسان(2) .

وقد قال بهذا الرأي: المبرد، وابن السراج، وابن جني ، والزّجاجّي، والزمخشري ، وابن الباذش ، وأبو البركات ابن الأنباري ، والشاطبي ، وابن الحاجب ، وابن يعيش ، وابن عصفور ، والرضي ، وأبو حيّان الأندلسي ، والسيوطي وغيرهم(3) .

فهؤلاء .جميعاً . يرون أنّ مخارج الحروف ستة عشر مخرجاً ، وهو ماذهب إليه سيبويه ، حين قال : ((لحروف العربية ستةَ عشَر مخرجاً :

فللحلق منها ثلاثة :

فأقصاها مخرجا : الهمزة ، والهاء ، والألف .

ومن أوسط الحلق مخرج : العين ، والحاء.

وأدناها مخرجا من الفم: الغين، والخاء.

ومن أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى، مخرج: القاف.

ومن أسفلَ من موضع القاف من اللسان قليلا، ومما يليه من الحنك الأعلى، مخرج: الكاف.

ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى، مخرج: الجيم، والشين، والياء.

ومن بين أّول حافة اللسان وما يليها من الأضراس، مخرج: الضاد.

ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان، ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى، وما فويق الضّاحك والنّاب والرُّباعّية والثّنية، مخرج: اللام

---

1) العين ١/٥٧ .

2) ينظر :مخارج الحروف لابن الطحان : ١١٣ .

3) ينظر: المقتضب ١/٣٢٨، و الأصول ٣/٤٠٠، وسر صناعة الأعراب : ١/٤٦، والجمل ٤١٠، والمفصل ٣٩٣و١٦٣والتبصرة والتذكرة ٢/٩٢٦، ، وأسرار العربية ٤١٩، وحرز الأماني ٩١، ، وشرح المفصل :١٠/١٢٣، والمقرب ٢/٥، والممتع ٢/٦٦٨، ، وشرح الشافية ٣/٢٥٠، والارتشاف ١/٥، والهمع ٢/٢٢٨

ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان، ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى، وما فُويق الثّنايا، مخرج: النون.

ومن مخرج النون غير أّنه أْدخلُ في ظهر اللسان قليلا، لانحرافه إلى اللام، مخرج: الراء.

ومّما بين طرف اللسان وأُصول الثنايا، مخرج: الطاء، والدال، والتاء.

ومّما بين طرف اللسان وفُويق الثنايا، مخرج: الزاي، والسين، والصاد.

ومّما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا، مخرج: الظاء، والذال، والثاء.

ومن باطن الشّفة السُّفلى وأطراف الثنايا الُعلَى ، مخرج الفاء.

ومّما بين الشفتين، مخرج: الباء، والميم، والواو.

ومن الخياشيم، مخرج: النون الخفيفة، أي: النون الساكنة))[١] .

انتهى كلام سيبويه في تبيين مخارج حروف العربية الأصول وهي ستة عشر مخرجاً .

وقد أ قّره على ذلك جمهور العلماء من الّنحويين، كما بّينت ذلك سابقاً ، قال الرضـّي: ((وأحسن الأقوال ما ذكره سيبويه،وعليه العلماء بعده))[٢] .

وفي عدد مخارج الحروف وقفتان:

الوقفة الأولى: ذهب قطرب،والفراء، وابن كيسان إلى أّن مخارج الحروف أربعة عشر مخرجاً ، وموضع الخلاف بينهم وبين سيبويه، هو مخرج اللام، والنون، والراء، فهو عندهم مخرج واحد، وعند سيبويه والجمهور ثلاثة مخارج، وهو الصحيح[٣] .

الوقفة الثانية: ماذهب إليه سيبويه والجمهور من أّن مخارج الحروف ستة عشر مخرجاً ، إّنما هو على سبيل التقريب، وإلحاقِ ماشتد تقاربُه بمقارِبِه، وجعْله معه من مخرجٍ واحد، وإلاّ فالتحقيق أّن لكلِّ حرفٍ مخرجاً على حَدَةٍ يخصّه، يخالف مخرج الحرف الآخر، وإلاّ لكان إّياه، قال ابن الحاجب: ((والتحقيق أّن كّلَ حرف له مخرجٌ يخالف الآخر، وإلاّ لكان إّياه))[٤] .

وتجدر الإشارة هنا إلى أّن مخارج الحروف عند المعجميين سبعة عشر مخرجاً ، وعند النحاة والجمهور ستة عشر مخرجاً ؛ لأّنهم أسقطوا مخرج الجوف.

وقد اختلف الاثنان –أيضاً – في ترتيب مخارج الحروف، فرتبها المعجميون كالآتي:

---

١) الكتاب ٤/٤٣٣ – ٤٣٤ ،وينظر: سر صناعة الاعراب : ٤٧/١، والممتع ٦٦٩/٢، وشرح الشافية ٣/ ٢٥٣ .

٢) شرح الشافية : ٢٥٤/٣ .

٣) ينظر: الارتشاف : ٥/١ ، والهمع : ٢٢٨/٢ .

٤) الإيضاح في شرح المفصل ٤٨٠/٢ .

أول المخارج هي مخارج حروف الحلق ، وحروفها: العين، والحاء؛ والهاء؛ والخاء، والغين.

ثّم أتبعوها بمخرجّي أقصى اللسان، فما فوقه من الحنك الأعلى: القاف، وهو المخرج الرابع ،ومن أسفله قليلاً : الكاف، وهو المخرج الخامس.

ثم من وسط اللسان والحنك الأعلى للحروف الشْجرية: الجيم، والشين، وهو المخرج السادس.

ثم من إحدى حافتيه وما يحاذيها من الأضراس: الضاد، وهو المخرج السابع.

ثم أردفوها بمخرج الحروف الأسلية أو الصفيرية: الصاد، والسين، والزاي ، وهو الثامن.

ثم مخرج الحروف النطعّية: الطاء، والدال، والتاء، وهو التاسع.

ثم مخرج الحروف اللثوّية: الظاء، والذال، والثاء، وهو العاشر.

ثم مخارج الحروف الذلقّية: الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر، وحروفها كالآتي: الراء؛ ثم اللام؛ ثم النون.

ثم أردفوها بمخرجّي الحروف الشفوّية: الفاء، ومخرجه من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا، وهو المخرج الرابع عشر.

ثم من بين الشفتين مخرج: الباء، والميم، وهو الخامس عشر.

ثم مخرج الحروف الجوفية أو الهوائية: الواو، والألف، والياء، وهو السادس عشر.

ثم مخرج الخيشوم: وهو للغّنة، وهو السابع عشر(١) .

وأّما مذهب النحاة في ترتيب مخارج الحروف، فقد وافق ترتيب المعجميين في بداية المخارج،وفي نهايتها،وخالفه في الترتيب فيما بين ذلك، وفي أّول وثاني مخارج الحلق.

أّما الموافقة فكانت من المخرج الثالث للحلق، وهو أدنى الحلق مما يلي الفم، وحتى المخرج السابع، وهو مخرج الضاد،ثّم وافقه في المخارج الثلاثة الأخيرة، وهي مخرجا الحروف الشفوّية؛ ومخرج الخيشوم للغّنة.

وأّما المخارج التي خالفوا فيها فهي:

أولاً : البدء بأّول مخرج للحلق من أقصاه، وحروفه: ء، ه، ا.

ثم أردفوه بالمخرج الثاني لوسط الحلق، وحروفه: ع،ح.

وهو مخالفٌ لما بدئ عند المعجميين إذْ بدئ بالحروف: ع،ح،ه.

١) ينظر : العين ٥٧/١، ٥٨، ومقدمة تهذيب اللغة ٦٣، ٦٤ .

ثانياً : ذهب النحاة إلى أنّ مخارج الحروف الذلقّية تأتي بعد مخرج الضاد، وقبل مخرج الحروف النطعية، وترتيبها بحسب مخارجها، هو مخرج اللام؛ ثم مخرج النون؛ ثم مخرج الراء ،وهذا مخالفٌ لمذهب المعجميين إذْ جعلوا بعد مخرج الضاد، مخرج الحروف ا لأسلّية، ثم النطعّية ، ثم اللّثوّية ، ثم بعدها مخارج الحروف الذلقّية ، ورتبوها كالآتي : مخرج الراء ، ثم مخرج اللام ، ثم مخرج النون.

ثالثاً : ذهب النحاة إلى أنّ ترتيب مخارج طرف اللسان الثلاثة ، تأتي بعد مخارج الحروف الذلقّية ، وأنّ ترتيبها بحسب مخارجها، هو: مخرج الحروف النطعية، ثّم مخرج الحروف الأسـ لّية أو الصفيرّية ، ثم مخرج الحروف اللثوّية وهذا مخالفٌ لما ذهب إليه المعجميون إذ جعلوها بعد مخرج الضاد[1] .

ولابدّ لنا أن نذكر هنا أنّ الاختلاف بين مدرسة النحاة والمدرسة المعجمية لم يقتصر على الخلاف في عدد مخارج الحروف، أو في ترتيب المخارج، بل تعداه إلى الخلاف بينهما في الترتيب الداخلي لحروف بعض المخارج، أو عددها،ويمكن بيان ذلك بالآتي:

أولاً : اختلفتا في ترتيب حروف أدنى الحلق مما يلي الفم، فذهب الخليل ومن سار على خطاه إلى أنّ ترتيبها: (خ،غ)، وذهب سيبويه ومن تبعه إلى أنّ ترتيبها: (غ،خ).

ثانياً : اختلفتا في حروف وسط اللسان ووسط الحنك الأعلى، فذهب الخليل ومن تبعه إلى أّنها: (ج،ش)، وذهب النحاة إلى أّنها: (ج،ش،ي) ، وهي ما تُسّمى بالحروف الشْجّرية.

ثالثاً : اختلفتا في ترتيب الحروف التي تخرج مما بين طرف اللسان وفُويق الثنايا السُّفلى، وهي ما تُسّمى بالحروف الأسلّية، أو الصفيرّية، فقد ذهب المعجميون إلى أنّ ترتيبها: (ص، س، ز)، وذهب سيبويه ومن معه إلى أن ترتيبها: (ز،س،ص)، وفي سرده لحروف العربية على وفق مخارجها رتبها هكذا: (ص،ز، س)، وكلا الترتيبين مخالفٌ لترتيب الخليل.

رابعاً : اختلفتا في الحروف التي تخرج من بين الشفتين، فذهب الخليل ومن معه إلى أّنها: (ب،م)، وذهب سيبويه ومن معه إلى أّنها: (ب،م،و)[2] .

وعلى الرغم من أنّ اختلاف العلماء العرب في عدد مخارج الأصوات يبدو انه صحيح في عمومه نجد أن بعضا من دارسي الأصوات المحدثين من لم يقره[3]،إذ يرى عدد من

---

١) ينظر: العين ٥٧/١، ٥٨، والكتاب ٤٣٣/٤، ٤٣٤ .

٢) ينظر: العين : ٥٧/١، ٥٨، والكتاب : ٤٣٣/٤، ومقدمة تهذيب اللغة : ٦٣ .

٣) ينظر: البحث الصوتي عند العرب : ٢٥.

المحدثين أنه ليس هناك في الواقع حدود يمكن لها أن تفصل فصلا تاما بين بعض المخارج وبعضها الآخر فمن الجائز أن تنسب مجموعة من الأصوات إلى مخرج معين، وينسبها باحث آخر إلى مخرج قريب منه أو متصل به أو متداخل معه[١].

ومن هنا كان حال المحدثين كالقدماء في كونهم لم يتفقوا على عدد محدد من المخارج فهي عند البعض (تسعة) مخارج[٢]،وعند البعض الآخر (أحد عشر) مخرجا[٣]، وعند أغلبهم (عشرة) مخارج وهو ارجح الآراء التي قال بها المحدثون[٤].

---

١) ينظر: علم اللغة العام / الأصوات : ص٩٤-٩٥.

٢) ينظر:دروس في علم أصوات العربية : ٢٢.

٣) ينظر:علم اللغة : ١٩٩.٢٠٠ ، وعلم اللغة العام /الأصوات : ٨٩ .٩٠.

٤) ينظر: البحث الصوتي عند العرب : ٢٥ ، والمدخل إلى علم اللغة : ٤٢-٥٦ ، دراسة الصوت اللغوي : ٩٧ .

المبحث الثاني

صفات الأصوات

إنّ المتتبع لمنهج الدراسة الصوتية عند علماء هذه المدرسة لا يعتريه الشك أن هذا الموطن من مواطن الدراسة هو الأبرز عندهم،إذ كان هذا الموطن معيارا مهما من معايير التمييز بين صوت وآخر لأن معيار المخرج وحده لا يمكنه أن يعطي بمفرده مميزات تفرد كل صوت عن غيره ، وذلك لان الكثير من الأصوات تشترك مع غيرها في المخرج ولولا صفات الأصوات لما تميزت تلك الأصوات عن غيرها .

وهناك تقسيمات متعددة ،عند علماء المدرسة النحوية، لهذه الصفات مثل تقسيم الصفات إلى صفات قوية وضعيفة واخرى متوسطة، وتقسيم الأصوات بقدر ما فيها من صفات قوية وضعيفة ومتوسطة، أي أن في كل تقسيم تقسيما آخر.

ولقد كانت دراسة صفات الأصوات عند علماء المدرسة دراسة دقيقة،وفيها تفصيلات متشعبة،تتفاوت بين عالم وآخر ، وقد قسّموا صفات الأصوات أيضا إلى صفات متقابلة وصفات مفردة .

وابرز الصفات التي اتخذها النحاة معيارا في التمييز بين الأصوات تتمثل في الصفات الآتية :

١- الانفجارية والاحتكاكية والمتوسطة :

الأصوات الشديدة هي الأصوات التي لا يجري فيها الصوت،وقد حددها النحاة بثمانية أصوات هي:(الهمزة، والقاف، والكاف، والجيم، والطاء،والدال، والتاء، والباء) . وهي أصوات لا يمكن مد الصوت معها،وقد مثلوا لها بقولنا:(الحجّ) اذ لا يمكن مدّ الصوت في حال النطق بالجيم[١].

أما الأصوات الرخوة فهي على العكس من الأصوات الشديدة إذ إن الصوت يجري فيها وقد حددها النحاة بثلاثة عشر صوتا هي:(الهاء، والحاء، والغين، والخاء، والشين، والصاد، والضاد، والزاي، والسين، والظاء، والثاء، والذال، والفاء). فإذا أردت مدّ الصوت معها فإنه يجري بسهولة،وقد مثل العلماء لها بقولنا: (الطس)، و(انقض)، إذ

---

١) ينظر: الكتاب : ٤٠٢/٢ ، و المقتضب : ١٩٤/١-١٩٥، وسر صناعة الاعراب : ٦٨/١.

إن النطق بها لا يمنع من أن نجري الصوت معها[١].

أما صفة التوسط فهي صفة أطلقها العلماء على الأصوات التي جمعت بين الشدة والرخاوة ولذلك اسماها العلماء بالأصوات التي (بين الشدة والرخاوة) وحصروها بأصوات (اللام، والنون، والعين، والميم، والراء) وأضاف إليها ابن جني (الألف والواو والياء)[٢].

ولم يخرج المحدثون عن هذا الإطار في تقسيم الأصوات إلا في التسمية اذ اسموا الشديد بالانفجاري والرخو بالاحتكاكي والمتوسط بالمائع[٣].

إلا أن هناك اختلافا بين الاثنين في وصف بعض الحروف بإحدى هذه الصفات فالجيم في المفهوم القديم شديدة وعند المحدثين مركبة،والضاد عند القدماء رخو في حين وصفه المحدثون بالانفجاري،والعين صوت متوسط عند القدماء الا انه عند المحدثين احتكاكي[٤]،والسبب الرئيس في هذا الخلاف بين القدماء والمحدثين يكمن في التطور الصوتي الذي تعرضت له هذه الأصوات .

٢- الاستطالة :

يراد بهذه الصفة أن يستطيل مخرج الصوت فيتصل بمخرج صوت آخر وقد أطلق علماء العربية هذه الصفة على صوتي (الضاد والشين)،قال سيبويه إنّ الضاد ((استطالت لرخاوتها حتى اتصلت بمخرج اللام))[٥] وقال في وصف الشين إنّ:((الشين استطالت حتى اتصلت بمخرج غيرها))[٦].

ولم تشمل هذه الصفة عند المحدثين إلا صوت الضاد القديمة،لان التطور الصوتي لهذا الصوت أبعدها عن هذه الصفة فضلا عن ابتعاد صوت الشين أصلا عنها[٧].

ولم يكن مفهوم الاستطالة واضحا ومحددا في دلالته سواء عند القدماء أم عند المحدثين فوصفه بعضهم بامتداد الصوت على طول اللسان ووصفه آخرون بأنه انحراف

---

١) ينظر: الكتاب : ٤٠٢/٢ ، و المقتضب : ١٩٤/١-١٩٥، وسر صناعة الاعراب : ٦٨/١.

٢) ينظر:سر صناعة الاعراب : ٦٩/١. والكتاب: ٤٠٦/٢.

٣) ينظر:الأصوات اللغوية : ٢٤، والدراسات الصوتية عند علماء العربية : ٧٣. ودروس في علم أصوات العربية : ٣٥.

٤) ينظر: مناهج البحث في اللغة : ١٠٢، والأصوات اللغوية : ٢٢-٢٦.

٥) الكتاب : ٤١٦/٢.

٦) المصدر نفسه : ٤١٦.

٧) ينظر :علم الأصوات :١٢٠.

صوت الضاد[١] وهذا الأمر هو الذي ابرز الخلاف بين القدماء والمحدثين في تحديدهم للأصوات المتصفة بهذه الصفة .

٣. الجهر والهمس :

الحروف المجهورة كما يراها علماء هذه المدرسة هي الحروف التي أشبع الاعتماد في مواضعها ومنع النفس أن يجري معها حتى ينقضي الاعتماد فيجري الصوت،أما الحروف التي تتصف بهذه الصفة فهي (العين والغين والقاف والجيم والباء والظاء واللام والزاي، والراء، والنون، والذال، والدال، والضاد، والميم، والواو ،والطاء،والهمزة،والالف)[٢].

اما المهموس فعرفوه بانه صوت اضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى معه النفس،والأصوات المهموسة هي (الهاء ، والحاء، والخاء، والكاف، والسين، والشين، والثاء، والصاد، والتاء، والفاء)[٣]فمعيار الفصل بين الجهر والهمس هو جري النفس فهم يقولون:(أنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فرددت الصوت مع جري النفس، ولو أردت ذلك بالمجهور لم تقدر عليه)[٤]،أي أن معيار الفصل بين الجهر والهمس عندهم يختلف عمّا عند المحدثين الذين فرقوا بين الاثنين بالاعتماد على حركة الأوتار الصوتية وعدمها،إذ انه يعتمد على كيفية مرور الهواء في جهاز النطق وفي حقيقة الأمر أن تعريفات القدماء لهذين الصفتين تتسم بالصعوبة والتعقيد إلى حد يصعب معه التعرف على مقاصدهم بدقة[٥]،الأمر الذي أحدث خلافا بين المحدثين أنفسهم حيث تضاربت آراءهم في تفسير معنى الجهر والهمس عند القدماء[٦].

---

١) ينظر:علم الأصوات :١٢٠.

٢) ينظر :الكتاب: ٤٠٥/٢. والمقتضب : ١٩٤/١-١٩٥.

٣) المصدران نفسهما ، والموضعان نفسهما.

٤) المصدران نفسهما ، والموضعان نفسهما.

٥) ينظر:المدخل إلى علم اللغة :٤٠. وعلم اللغة العام /الأصوات : ٨٨ .

٦) ينظر:الأصوات اللغوية : ٢١. اللغة العربية معناها ومبناها :٦٠-٦٢. والمصطلح الصوتي: ٥١-٧٠.

٤- التفشي :-

هذه الصفة اختصت بصوت الشين لأن انتشار هواء الصوت فيها أوضح قياسا إلى الأصوات الأخرى، إذ إن التفشي يكون بانتشار اللسان على الحنك هذا الانتشار لا يسمح إلا بمرور كمية معينة من الهواء من خلاله اذ يتوزع هذا الهواء على جانبي الفم ولا يقتصر على المخرج فقط وهذا فيه دلالة على أن التفشي هو انتشار في هواء الصوت والمخرج حتى يتصل بالمخارج الأخرى [١].

ولم يخرج المحدثون عن هذا الوصف ولكنهم حاولوا شرح معنى التفشي فوصفوه بأنه اشغال الصوت مساحة اعرض في اللسان مما يؤدي إلى هذا الانتشار في الصوت[٢] .

٥- الصفير :

الصفير هو الحدة في الصوت، كالصوت الخارج عن ضغط ثقب[٣] وهي صفة أطلقها علماء هذه المدرسة على أصوات ثلاثة هي:((الصاد والزاي والسين))[٤].

وقد ذكر سيبويه هذه الصفة استطرادا عند حديثه عن تعامليات هذه الأصوات في ظاهرة الإدغام[٥].

أما المبرد فقد كان أول من أوضح معنى هذه الصفة بشكل دقيق وذلك في حديثه عنها اذ قال :((ومن طرف اللسان وملتقى حروف الثنايا . حروف الصفير، وهي حروف تنسل انسلالا، وهي السين والصاد والزاي))[٦].

وقد كان وصف المحدثين موافقا لوصف القدماء، فقد ذهبوا إلى أن وصف هذه الأصوات بالصفير صادق لأصوات (السين والزاي والصاد)،وأن صفة الصفير تحدث بسبب الاحتكاك الشديد في أثناء نطق هذه الأصوات، وذلك نتيجة لتقارب أعضاء النطق تقاربا شديدا، بحيث تترك منفذا ضيقا يمكن أن يمر من خلاله الهواء محدثا احتكاكا بأعضاء النطق، فينتج من هذا الاحتكاك صوت ضعيف يشبه صوت الحفيف، فإذا كان منفذ الهواء ضيقا جدا يتحول الصوت

---

١) ينظر: البحث الصوتي عند العرب : ٥٦.

٢) ينظر:علم الأصوات : ١٢.

٣) ينظر:مخارج الحروف وصفاتها : ٩٤.

٤) ينظر: الكتاب : ٤٢٠/٢. سر صناعة الإعراب : ٧١/١.

٥) ينظر: الكتاب : ٤٢٠/٢.

٦) المقتضب : ١٩٣/١.

إلى ما يشبه الصفير الحاد ، وتتميز (السين والزاي والصاد) بتلك الصفة الصفيرية، لأن الانفتاح معها يكون في اضيق حالاته[١].

٦- الغنة :

وهي صفة خصها علماء المدرسة النحوية بصوتي النون والميم لان كل واحد منهما فيه:((غنة من الأنف، فإنما تخرجه من أنفك واللسان لازم لموضع الحرف ، لأنك لو امسكت بأنفك لم يجر معه صوت وهو النون وكذلك الميم))[٢].

وهذا يعني أن الحروف التي تتصف بهذه الصفة يصحبها حبس تام للهواء عند النطق بها وهذا هو المقصود بقولهم(انما تخرجه من انفك واللسان لازم لموضع الحرف) ويكون هناك منفذ يساعد على جريان الصوت وهو الأنف ،لذلك فإنك (لو أمسكت بأنفك لم يجر معه الصوت) ومن هنا يكون موضع النطق في نقطة معينة وتسريح الهواء من الأنف[٣].

ولم يختلف هذا الأمر عند المحدثين فهو موضع اتفاق مع القدماء، إذ ذهبوا إلى أن الهواء في هذه الأصوات (الصفيرية)لا يمر بسبب الحبس في موضع الفم، ويتمكن الهواء من النفاذ عن طريق الأنف بعد أن يخفض الحنك اللين[٤].

٧- القلقلة :

أطلقت على هذه الصفة على أصوات (القاف، والجيم، والطاء، والدال، والباء) ، لأنها أصوات ((يصحبها ضغط اللسان في مخرجها في الوقف مع شدة الصوت المتصعد من الصدر، وهذا الضغط التام، يمنع خروج ذلك الصوت، فإذا أردت بيانها للمخاطب احتجت إلى قلقلة اللسان وتحريكه عن موضعه حتى يخرج صوتها فتسمع))[٥]، وقد وصف سيبويه أصوات القلقلة (بالأصوات المشربة)، فقال : ((واعلم أن من الحروف

---

١) ينظر :المحيط في أصوات العربية : ١٦ .

٢) الكتاب، ج٢، ص٤٠٦. والمقتضب :١/١٩٤.

٣) ينظر :دراسة الصوت اللغوي : ٢٧٦.

٤) ينظر :علم اللغة : ١٨٤.

٥) شرح الشافية : ٣/٢٦٣.

حروفا مشربة، ضغطت من مواضعها، فإذا وقفت خرج معها من الفم صويت، ونبا اللسان عن موضعه، وهي حروف القلقلة))(١).

وعلى الرغم من أن المحدثين لم يختلفوا مع القدماء في وجود هذه الصفة إلا أنهم أطلقوا على أصواتها اسم الأصوات الانفجارية(٢).

٨- اللينة :

اختصت حروف (الواو والياء والألف) بهذه الصفة،لأن مخرجهما يتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرهما(٣).

ولا يبتعد المحدثون عن هذا الوصف إذ إن هذه الأصوات عندهم تحمل درجة انفتاح واسعة عند النطق بها ومثلهما الألف، وهي حروف تمتلك أبرز خواص الحركات ، وهي حرية مرور الهواء حال النطق بها فضلاً على قوة الوضوح السمعي(٤).

٩- المستعلية و المستفلة :

وهي الأصوات التي يتصعد اللسان معها إلى الحنك الأعلى،وهي ـ كما ذكرها علماء المدرسة ـ سبعة : ((الصاد، والضاد، والظاء، والطاء، والغين، والقاف، والخاء))(٥).

أما الأصوات المستفلة فالنطق بها يكون خلاف النطق بالمستعلية،وذلك بنزول مؤخر اللسان إلى قاع الفم،وهي ما عدا الأصوات المذكورة (٦).

وبذلك يكون مفهوم المصطلحين عند القدماء أن الاستعلاء هو صعود مؤخر اللسان إلى الحنك الأعلى ، اما الاستفال فهو نزول مؤخر اللسان إلى قاع الفم.

وهو مفهوم مقارب لمفهوم المحدثين لهذين الصفتين، فالاستعلاء هو تصعد اللسان الى الحنك الأعلى من دون أن يطبق عليه، والاستفال هو نزول اللسان إلى قاع الفم(٧).

---

١) الكتاب : ٢/١٧٤.

٢) علم اللغة العام / الأصوات : ١١٦-١١٧.

٣) ينظر:الكتاب : ٢/٤٠٦. والمقتضب :١ /٢١٠.

٤) ينظر:علم اللغة العام / الأصوات : ٧٨.

٥) ينظر : الكتاب :٢/٢٦٤، المقتضب : ١/٢٢٥ .

٦) ينظر: المقتضب :١/٢٢٥ ، والأصول في النحو :٣/١٦٧ .

٧) ينظر: دروس في علم أصوات العربية : ٢٣٧ .

ولا يبدو غريبا وضع علماء هذه المدرسة أصوات الإطباق الأربعة (الصاد، والضاد، والطاء، والظاد) مع الأصوات الثلاثة المستعلية وهي (الغين، والقاف، والخاء)، وهي ليست مطبقة في مجموعة واحدة وذلك لاشتراكها جميعا حال النطق بها بعلو مؤخرة اللسان نحو الطبق سواء اتصل به أم لم يتصل ، إذ إن اتصال أقصى اللسان بأدنى الحلق أو (اللهاة) سوّغ لهم وصف (الخاء والغين والقاف) بالاستعلاء في حين كان ارتفاع أقصى الحنك وعدم اتصاله بجزء منه سوّغ لهم وصف أصوات الإطباق بالاستعلاء(١).

١٠- المطبقة و المنفتحة :

يرى علماء هذه المدرسة أن الأصوات المطبقة تحدث بوضع اللسان في مواضع النطق لهذه الأصوات،ثم ينطبق اللسان من مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان،ترفعه إلى الحنك،فإذا وضع اللسان فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الصوت أو الحرف،وعدد الأصوات التي يصدق عليها ذلك الوصف (أربعة أصوات) هي((الصاد، والضاد، والطاء، والظاء))(٢) .

أما الأصوات المنفتحة فان الناطق لا يطبق لسانه عند النطق بها،ويرفعه إلى الحنك، وهي بقية الأصوات التي لم توضع مع المفخمة(٣).

ولم يبتعد المحدثون عن هذا المفهوم إذ قسموا الأصوات بالاستناد إلى مؤخرة اللسان ووضعه عند النطق بها ، فعندما ترتفع مؤخرة اللسان تجاه الطبق وهو الجزء الرخو من سقف الحنك،يسمى الصوت مطبقا أو مفخما،وعندما تنخفض مؤخرة اللسان يسمى الصوت مرققا أو غير مطبق(٤) وان تخصيص العلماء العرب (الصاد، والضاد، والطاء، والظاء) ، بأنها أصوات مطبقة، يقوم على أنهم نظروا إليها على أنها أصوات كاملة الإطباق أو التفخيم وهم على وفاق مع المحدثين في ذلك الوصف، إذ لم يذهب المحدثون بعيدا عما ذهب إليه العلماء العرب في وصف الأصوات المطبقة والمنفتحة(٥).

---

١) الدراسات الصوتية واللهجية عند ابن جني : ٣١٩.

٢) ينظر:الكتاب :٤٠٦/٢. والمقتضب :١٩٤/١ والبحث الصوتي عند ابن السراج :٧٠ .

٣) ينظر:المصادر أنفسها والمواضع أنفسها.

٤) ينظر:المدخل إلى علم اللغة : ٣٧.

٥) ينظر:البحث الصوتي عند ابن السراج (رسالة) :٧١ .

١١- المكرر :

وهي صفة اختص بها صوت الراء إذ قالوا في الراء انه:((حرف شديد جرى فيه الصوت لتكريره وانحرافه إلى اللام فتجافى للصوت كالرخوة ولو لم يكرر لم يجر الصوت فيه وهو الراء))[١].

وليس هناك خلاف في هذه الصفة واتصاف صوت الراء بها سواء بين علماء هذه المدرسة أنفسهم أم بينهم وبين المحدثين الذين ذهبوا إلى ما ذهب إليه القدماء في وصفهم للراء[٢].

١٢- المنحرف :

يقصد به انحراف اللام عند النطق به استعدادا للنطق بالصوت الذي يليه اذ ان الناطق بالصوت يحرف لسانه من موضعه من دون أن يرفعه،وهو صفة اختصت باللام لانه عندهم ((حرف شديد جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت، ولم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة، وهو اللام، وان شئت مددت فيها الصوت وليس كالرخوة، لأن طرف اللسان لا يتجافى عن موضعه))[٣].

ومن وهذا الوصف استمد المحدثون وصف الانحراف والحرف الذي ينطوي تحته فقالوا إن العرب أصابت في تسمية صوت اللام بالمنحرف[٤].

١٣- المهتوت :

على الرغم من أن أقدم وصف للصوت المهتوت نجده عند علماء مدرسة المعجميين ، إذ وصفوا به صوت الهاء فضلا عن وصف الخليل لصوت الهمزة بهذه الصفة[٥] إلا أن علماء هذه المدرسة كانوا اقل اهتماما بهذه الصفة من سابقيهم،والذي يثير الانتباه هنا أن بعضا منهم وصف صوت التاء بهذه الصفة على الرغم من أنها لا تحتاج إلى الضغط نفسه الذي تحتاج إليه الهاء أو الهمزة[٦].

---

١) الكتاب :٤٠٦/٢، وينظر:المقتضب :١٩٦/١.
٢) ينظر: علم اللغة العام الأصوات : ١٢٩ .
٣) الكتاب : ٤٠٦/٢. وينظر : المقتضب :١٩٣/١. والأصول :٤٠٣/٣.
٤) علم اللغة العام / الأصوات : ١٢٩.
٥) ينظر : العين :٥٤/١، ٥٧.
٦) ينظر: شرح المفصل :١٣٧/١ ، والنكت الحسان : ٢٨٣.

١٤- الهاوي :

الألف صوت هاوٍ هكذا وصفه علماء المدرسة وذلك لأنه ((اتسع لهواء الصوت مخرجه، اشد من اتساع مخرج الياء والواو، لأنك قد تضم شفتيك في الواو وترفع في الياء لسانك قبل الحنك))[١].

وقد اتفق المحدثون مع القدماء في تحديد هذه الصفة وعللوا للقدماء هذه التسمية بانهم لم يجدوا ما يعترض مجرى الهواء عند النطق بالألف كما هو الحال مع صوتي الياء والواو اللذين لهما شكل مخرجي محدد بهما عند النطق بهما[٢].

---

١) الكتاب : ٤٠٦/٢.

٢) دراسة الصوت اللغوي : ٢٩٧.

المبحث الثالث

الظواهر الصوتية

بعد أن تناول النحاة الأصوات من حيث كونها وحدات صوتية لها مخارج محددة وصفات خاصة بكل واحد منها،أكملوا دراستهم بدراسة الأصوات من حيث التركيب فكان هذا الموطن من أهم مواطن الدرس عندهم حتى أن الدراسة الصوتية عندهم وضعت تحت عنوان بارز من عناوينها وهو الإدغام الذي كان العامل الأساس لدراسة الأصوات عندهم.

وهذا الاهتمام بدراسة الأصوات من حيث التركيب كان الهدف الأهم الذي تنشده هذه المدرسة لأنه يرتبط ارتباطا وثيقا بالجانبين الصرفي والتركيبي اللذين يعدان الأساس الذي تقوم عليه دراسة النحاة للغة،إذ إنها تخضع لقوانين صوتية تقوم بتفسير التغيرات الصوتية التي تطرأ على بنية الكلمة كما يحدث ذلك في الإدغام والإبدال والإعلال والإمالة وغيرها من الظواهر الصوتية الأخرى، وقد درس علماء هذه المدرسة هذه الظواهر الصوتية على وفق غايتهم وموطن حاجتهم إليها لأن هذه الدراسة قد وجهت عنايتها إلى ما يؤديه الصوت من وظائف في العملية النطقية وما تحدثه هذه التغيرات الصوتية من تغيير على بينة الكلمة العربية،ولعل من أهم المظاهر التي تناولها النحاة في دراستهم هذه كانت تتمثل في :

١. الإبدال :

تعد هذه الظاهرة الصوتية من المظاهر المهمة التي أولتها هذه المدرسة عناية خاصة فتناولها العلماء بالدرس وقاموا بجمع ألفاظها وتحليلها ووضع التعليلات لها وبيان مسبباتها،وقد عرف علماء هذه المدرسة الإبدال أنه : إقامة صوت مقام صوت آخر إما ضرورة وإما صنعة وإما استحسانا، واشترطوا لهذه الإقامة أن تكون لغير الادغام[1].

وقد قسم العلماء الإبدال إلى قسمين هما:-

---

١) ينظر:الكتاب :٤٢٦/٢ ،والمقتضب :٦٢/١-٦٥،والأصول : ٢٤٤/٣ ،وشرح المفصل:٧/٧، وشرح الملوكي في التصريف:٢١٤.

١- الإبدال المطرد(القياسي):

يسمى هذا الإبدال أيضا بالإبدال الصرفي لأنه يخضع لقواعد صرفية محددة كما في صيغة(افتعل) ، إذ تبدل تاء افتعل فيها (طاء) إذا كانت قبلها أحد أصوات الإطباق : وهي(الطاء،والظاء،والصاد،والضاد)،نحو (اضطجع) التي تكون على القياس (اضتجع)، وكذلك إذا كان قبل (التاء) أحد الأصوات المجهورة (الزاي، والذال، والدال)،إذ تبدل (التاء) من صوت مجهور من نحو : (ازدرع) وقياسها:(ازترع)[١].

وقد وضع النحاة والصرفيون رقماً لتلك الأصوات التي تبدل قياسياً،وان اختلفوا فيه ، إذ جعله قسم منهم (أحد عشر) صوتاً تشمل الأصوات:((الهمزة، والألف، والياء، والواو، والتاء، والدال، والطاء، والميم، والجيم، والهاء، والنون)) [٢]،وهي عند غيرهم (اثنا عشر) صوتاً،يجمعها قولهم (طال يوم أنجدته) ، وقيل هي (ثلاثة عشر)صوتاً ، وقيل هي (أربعة عشر) صوتاً، وهناك من يعدها(تسعة) أصوات جمعها في قوله(هدأت موطياً)[٣].

ولعل سبب هذا الاختلاف في عدد الحروف هو خلط بعض العلماء بين مفهومي الإبدال والإعلال الذي هو إبدال أيضا لكنه يختص بأصوات العلة (الهمزة، والألف، والواو، والياء)، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ بعض علماء هذه المدرسة أدخلوا تحت هذا الإبدال ما ليس بالإبدال القياسي وانما هو إبدال لهجي عرفت به بعض قبائل العرب وان حاولوا أن يعللوه تعليلا قياسيا فأخذوا يتأولون كثيرا للوصول إلى القياس فيه،كما في إبدال السين صاداً،وذلك إذا جاءت قبل (القاف، والغين والخاء) في كلمة واحدة،بغض النظر عن الحواجز بينها،وهو مطرد في لغة بني العنبر وهي من قبائل تميم من نحو:(صقت، وصالخ، وصاطع) في (سقت، وسالخ، وساطع) إذ نسب العلماء هذا الإبدال إلى بني تميم وهو نطق لهجي، ونستشف من ذلك أنّ غيرهم ينطقها بالصاد بدليل ذهابهم إلى أن النطق بالسين هوالأصل ثم أبدلت صاداً لتوافق أصوات الإطباق[٤].

---

١) ينظر:الكتاب :١ /٤٢٢ ، والأصول :٣ /٢٧٠ – ٢٧١ .

٢) الكتاب : ٢ / ٣١٣، والأصول :٣ /٢٤٤

٣) ينظر:شرح المفصل :١٠ /١٨ والأمالي :١٨٢/٢ ،وشرح أبن عقيل :٤٢٨/٢

٤) ينظر : الكتاب : ٤٢٨/٢–٤٢٩ والأصول : ٤٣١/٣ ،وفي اللهجات العربية : ١٢٥ – ١٢٨.

وهكذا نرى أن الإبدال المطرد يخضع لمفاهيم قياسية وصرفية استخلص منها العلماء تلك التغيرات التي تطرأ على بنية الكلمة.

٢ - الإبدال اللغوي(السماعي) :

يسمى هذا الإبدال أيضا المطرد،وقد جمع اللغويون الكثير من الألفاظ المتقاربة في أصواتها،والتي لها معنى واحد ، وحاولوا وضع تفسير للإبدال الحاصل فيها والوقوف على سبب حصوله .

وقد اشترط سيبويه ومن سار على خطاه من العلماء في حصول هذا الابدال أن يكون الصوت المبدل والصوت المبدل منه من مخرج واحد أو من مخرجين متقاربين وان الغاية منه تقريب الأصوات بعضها من بعض[١]، وقد ذكر ابن جني في توجيهه الإبدال الواقع في (حثحثوا)وهو إبدال الثاء الوسطى حاء ما قاله أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) الذي اعترض على هذا الإبدال والعلة في فساده، من أنّ أصل القلب في الحروف إنما هو فيما تقارب منها وذلك الدال، والطاء، والتاء، والذال، والظاء، والهاء، والهمزة، والميم والنون، وغير ذلك مما تدانت مخارجه . فأما الحاء فبعيدة من التاء وبينهما تفاوت يمنع من قلب أحدهما إلى إختها، قال((وانما حثحث أصل رباعي، وحثث من مضاعف الثلاثة فلما تضارعا بالتضعيف الذي فيهما اشتبه على بعض الناس أمرهما، وهذا هو حقيقة مذهبنا))[٢]،وعلى ذلك فابن جني والفارسي يشترطان أيضا التقارب المخرجي في الإبدال اللغوي.

ومن هنا يتبين لنا أن صورة الإبدال عند علماء المدرسة النحوية تتمثل بإقامة صوت مكان آخر مع الإبقاء على سائر أصوات الكلمة،وعلى فق شروط محددة تكمن في قرب المخرج أو اتحاده اختلاف الصفة، مع بقاء المعنى واحدا قبل الإبدال وبعده، وهذا الأمر لا يعني أن الإبدال سوف يلتقي مع الترادف مع ناحية الاحتفاظ بالجانب الدلالي مع تغير أصوات الكلمة كما ذهب إلى ذلك بعض المحدثين [٣].

---

١) ينظر : الكتاب ٤٧٩/٤ ،و المقتضب ٢٢٥/١ .

٢) سر صناعة الاعراب ١، ١٩٧ .

٣) الإبدال اللغوي في ضوء علم اللغة الحديث :٥٢-٥٣ (بحث).

٢. الإدغام :

شغلت هذه الظاهرة الصوتية مكاناً كبيراً في دراسة علماء هذه المدرسة الصوتية جاعلين منه مدخلا إلى دراسة التأثير الصوتي بين أصوات العربية،إذ اخذ هذا الباب الحيز الأكبر في دراستهم للظواهر الصوتية ابتداء من سيبويه الذي جعل منه العنوان البارز الذي انطوت تحته الدراسة الصوتية جميعها .

والإدغام كما عرفه علماء هذه المدرسة هو :وصل صوت ساكن بصوت مثله متحرك من غير أن يفصل بينهما بحركة أو وقف فيصيران لشدة اتصالهما كصوت واحد، يرتفع اللسان عنهما رفعة واحدة شديدة[١].

فالإدغام . إذن . هو ان يلتقي صوتان من جنس واحد، فيسكن الأول منهما ويدخل في الثاني،فيصيرا صوتاً واحداً مشدداً ، ينبو عنه اللسان نبوة واحدة،أو يلتقي صوتان متقاربان في المخرج فيبدل الأول صوتا من جنس الآخر ،ويدغم فيه فيصير صوتا واحداً [٢].

وعلى الرغم من اتفاق علماء هذه المدرسة على المفهوم العام للإدغام وطريقة حدوثه وسببه ، يجد القارئ لتعريفاتهم اختلافا في نظرتهم إلى الإدغام إذ عرفه أبو علي الفارسي(ت ٣٧٧هـ) بقوله : ((إنّ تصل حرفا ساكناً بمثله من غير أن تفصل بينهما بحركة أو وقف، يرتفع اللسان عنهما ارتفاعه واحدة))[٣] في حين نظر البعض الآخر إلى عملية نطق الصوتين عند إدغامهما معا كما في تعريف ابن الحاجب(ت ٦٤٦ هـ) للإدغام إذ قال إنّ الإدغام هو ((النطق بحرفين من مخرج واحد من غير فصل بينهما لضرب من الخفة))[٤] ، ومنهم من نظر إلى الجانب العضوي الذي يحدث في عملية الإدغام على نحو ما فعل ابن عصفور(ت ٦٦٩ هـ) في تعريفه إذ وصف الإدغام بانه((رفعك اللسان بالحرفين رفعة واحدة،ووضعك إياه بهما موضعاً واحداً))[٥] وهذا

---

١) ينظر:الكتاب : ١٥٨/٢ ،والمقتضب: ٢٠٨/١ والأصول في النحو : ٤٠٥/٣ وشرح المفصل : ١٢١/١٠ ، وشرد الشافية : ٢٣٤/٣-٢٥٠ والممتع : ٦٣١/٢ وحاشية الصبان :٣٦٦/٤ .

٢) ينظر:الكتاب : ٤٠٥/٢ ،والخصائص : ١٤١/٢، والجمل في النحو:٤١٣-٤١٤

٣) التكملة : ٦٠٨/١ .

٤) الإيضاح في شرح المفصل : ٤٩١/٢ .

٥) الممتع : ٢ / ٦٣١ .

التعريف لم يبتعد عن نظرة سيبويه إلى لإدغام فهو يرى أن الذين يدغمون((يثقل عليهم أن يستعملوا ألسنتهم من موضع واحد،ثم يعودوا له،فلما صار ذلك تعبا عليهم أن يدركوه في موضع واحد،ولا تكون مهلة،كرهوه وادغموا،لتكون دفعة واحدة،وكان أخف على ألسنتهم)[1].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ مفهوم الإدغام عند النحاة اخذ عن سيبويه في جملته وان مفهوم الإدغام عنده كان أوسع مما عند علماء هذه المدرسة[2] .

إن أشهر أنواع الإدغام التي ذكرها علماء هذه المدرسة تتمثل بما يأتي :

<u>أولاً – إدغام المتماثلين :</u>

التماثل هو التشابه والصوتان المتماثلان هما اللذان يتفقان في المخرج الذي يحدثان فيه وفي الصفة أي انهما صوت واحد متكرر،كالباء والباء،والتاء والتاء،وعند التقائهما تحذف حركة أحد المثلين ويدغم أحدهما في الآخر ومن ثم يتخذ اللسان عند النطق بهما موضعاً واحداً لا يزول عنه [3]،ولا فرق بين وقوع الإدغام في كلمة واحدة أو في كلمتين،كما انه يقع في الفعل الثلاثي المجرد كما في(فرر)إذ قالوا:(فرّ) والفعل الثلاثي المزيد نحو(احمارّ،واحمرّ)[4].

وذهب علماء هذه المدرسة إلى القول بأنّ الإدغام الذي يقع في الكلمتين المنفصلتين في الصوتين المتماثلين المتحركين،تحذف حركة أحداهما ويدغم في الآخر، من نحو (جَعلَ لَك)،وعلة الحذف هي أنّ العرب تكره توالي المتحركات في كلامها،واشترطوا في ذلك أن لا يكون قبل الأول صوت ساكن إلا إذا كان الساكن صوت مدّ، فيجوز فيه الإدغام من نحو (المالُ لك) أما إذا لم يكن الساكن صوت مدّ فلا يجوز الإدغام نحو (ابن نوح) [5] .

---

١) الكتاب : ٢/ ٣٩٨ .

٢) ينظر: الأصوات عند سيبويه (اطروحة) :١٧٧ والإدغام في العربية (رسالة) :٤٣ .

٣) ينظر:الكتاب : ٤١٠/٢.

٤) ينظر : المصدر نفسه والأصول : ٣/ ٤٠٥-٤٠٦.

٥) ينظر:الكتاب : ٤٠٧/٢.

ثانيا – إدغام المتقاربين :

وهو إدغام صوت بآخر لقرب أحدهما من الآخر في المخرج أو الصفة،وأكثر ما يدغم في هذا النوع من الإدغام أصوات الفم ، وأقل ما يقع في أصوات الحلق فمن الإدغام الواقع في أصوات الحلق إدغام (الهاء مع الحاء) نحو (جبه حملاً)، وإدغام (العين مع الهاء) نحو، (اقطع هلالا) و(العين مع الحاء) نحو (قطع حملاً)، و(الغين مع الخاء) نحو(دمغ خلفاً) و(الخاء مع الغين) نحو (اسلخ غنمك)، و(القاف مع الكاف) نحو (الحق كلدة)، و(الكاف مع القاف) نحو (لهك قطناً).و(الجيم مع الشين) نحو (بعج شبثاً) و(اللام مع الراء) نحو (اشغل رجبه)[1].

ومن هذا يتبين أن هذا الإدغام في أصوات الحلق قد شمل المناطق التالية لها وهي (القاف، والكاف، والجيم، والشين، واللام، والراء) وهي أصوات متقاربة في المخارج، والإدغام عندهم ليس ملزما في هذه الحال وإنّما هو جائز مع استحسان الإظهار إلاّ أنّ هذا الإدغام هو عادة نطقية عند بعض القبائل ومن هنا كان وقوعه .

وقد قسم العلماء طرائق الإدغام بالمتقاربين إلى ثلاثة أقسام هي:

١-إبدال الأول بلفظ الثاني، ثم الإدغام .

٢-إبدال الثاني بلفظ الأول،ثم الإدغام .

٣-إبدال أحد الصوتين بما يقاربهما،ثم الإدغام[2] .

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ علماء العربية عاملوا بعض الأصوات معاملة تختلف عن غيرها كما هو الحال مع النون وذلك لما لها من حالات كثيرة متنوعة [3].

وقد سار المحدثون على خطى القدماء في دراسة هذه الظاهرة حيث اتفقوا معهم في أسباب الإدغام من حيث السهولة في النطق والاقتصاد في الجهد العضلي للمتكلم،غير أنهم اسموا هذه الظاهرة بـ (المماثلة) إذ إن مظاهرها تشبه كل الشبه ما وسمه القدماء بالإدغام ، الأمر الذي عبر عنه أحد المحدثين بقوله: ((إن العلماء العرب قد سبقوا اللغويين المحدثين إلى ابتكار نظرية المماثلة))[4].

---

١) ينظر: الكتاب : ٢ /٤١١ – ٤١٢، شرح المفصل :١٣٦/١٠،والممتع : ٦٨٠/٢.

٢) ينظر:الكتاب : ٤١١/٢،والمقتضب : ١ / ٢٠٨،وشرح المفصل : ١٣٥/١٠.

٣) ينظر: شرح الشافية: ٢٧٣/٣.

٤) علماء الأصوات العرب سبقوا اللغويين المحدثين إلى ابتكار نظرية المماثلة : ٥٢ (بحث) .

٣. الوقف:

توصل علماء العربية قديما إلى خصيصة مهمة من خصائص اللغة العربية وعّبروا عنها بقولهم: (إن العربية لا تبتدئ بساكن ولا تنتهي بمتحرك) ، وأطلق العلماء على هذه الظاهرة اسم (الوقف) وهو أمر يحدث أما لتمام المعنى كليا أو جزئيا أو لانقطاع النفس أو لأي سبب آخر يدعوا إلى الوقف في الكلام .

والوقف في العربية اختص بعلامة السكون،لأنه العلامة الرئيسة التي يهرع اليها المتكلم كلما اراد الوقف على كلامه(١)، وهذا لا يعني ان السكون هي علامة الوقف فقط وانما للسكون في العربية وظيفة إعرابية وهي الدلالة على الجزم، فضلاً على وظائفه المقطعية والموسيقية(٢).

وقد تناول علماء هذه المدرسة ظاهرة الوقف واضعين لها قواعد معينة مستنبطة من عملية الرصد لهذه الظاهرة،ولعل أبرز الوسائل والمظاهر التي رصدها العلماء العرب في ظاهرة الوقف تتمثل في الآتي :

أولا – الوقف بالإسكان المجرد من دون تغيير :

يراد به عملية الوقوف على لفظ الكلمة من دون أن يصحب هذا الوقف أدنى تغيير في بنية الكلمة سوى حذف (الحركة) الصائت القصير ، من ذلك ما ذكره العلماء في الوقوف عند النطق بفعل الأمر نحو قولنا: (اجتهد)،أو النطق بالأفعال معتلة الآخر نحو:(يرمي، ويغزو، ويخشى) ، إذ يكون الوقف عليها بالواو والياء والألف(٣)،ولم يكن هذا الوصف للحركات الطويلة في حالة الوقف عند علماء المدرسة دقيقا لان الحركات الطويلة هي القصيرة أنفسها ، ولذا فليس بالإمكان أن تكون الحركات الطويلة متحركة بالقصيرة عند الوقوف عليها .

---

١) ينظر : الموجز في النحو:٨٨.

(٢) ينظر : السكون في اللغة العربية:١٦٠، (بحث) .

(٣) ينظر : الكتاب:٢/٢٧٧.

ثانيا :- الحذف :

حدد النحاة هذا النوع من أنواع الوقف في الاسم المنقوص عندما يكون منونا ومثلوا له بكلمة(قاض) فقالوا إن قولنا: (هذا قاض) الأصل فيه (هذا قاضي) ، إذ إن (الياء) سقطت في الوقف بسبب التنوين،فإذا لم يكن الاسم منونا، فوجود (الياء) افضل من حذفها من نحو (القاضي)،ويقيد ذلك في حالتي الرفع والخفض،اما في حالة النصب فلا تحذف (الياء) نحو (رأيت قاضيا) و (رأيت القاضي)(1).

ومن صور الحذف التي ذكرها علماء هذه المدرسة وعدوه حذفا من اجل الوقف ما ذكره النحاة في:(علام، وفيم، وحتام)،والأصل (علاما، وفيما، وحتاما)(2).

ثالثا : الزيادة :

وهي حالة معاكسة للحالة السابقة (الحذف) وذلك بوضع هاء السكت في نهاية الكلمة الموقوف عليها كما في قولهم: (مسلمونه) في (مسلمون) و(ضاربانه) في (ضاربان) ، وعللو ذلك بقولهم: إن العرب ((كان من كلامهم أن يبينوا حركة ما كان قبله متحركا مما لم يحذف من آخره شيء، لأن ما قبله مسكن ، فكرهوا أن يسكن ما قبله، وذلك إخلال به))(3).

ومنه زيادة (السين) وهي من الزيادة النادرة،ونسبوه إلى أناس من العرب،وذلك بإلحاق الكاف سينا ليبينوا كسرة المؤنث،والعلة في الحاق (السين) من بين سائر أصوات العربية الاخرى تكمن في أنّ (السين) من أصوات الزيادة عندهم كما في (استفعل) لذلك وقع الاختيار عليها فيقولون:(أعطيتكس، واكرمتكس)هذا في الوقف،أما في حالة وصل الكلام فتحذف (السين)،لأن الكسرة سوف تبين وتظهر(4).

وإنّ علة الاختيار هذه غير مقنعة،لأن(حروف الزيادة) كثيرة فلماذا وقع الاختيار على السين ؟! .

---

1) ينظر:الكتاب :٢/ ٢٨٨، وشرح المفصل:٩/٦٧.

2) ينظر المصدر نفسه:٢/ ٢٧٩ و الأصول:٢/٣٨١-٣٨٣.

3) الكتاب:٢/٢٧٨.

4) ينظر:المصدر نفسه :٢/٢٩٢.

خامسا : النقل :

عمدت العربية للتخلص من التقاء الساكنين في الكلمة الموقوف عليها إلى نقل حركة الصوت الاخير إلى ما قبله فيقولون (هذا بكُر) في (هذا بكر)(١)

وعلل النحاة ذلك بقولهم إن الوقوف في العربية لا يكون إلا على الساكن ، وعندما يكون هذا الساكن مسبوقا بساكن أيضا يصبح من الصعب النطق بساكنين معا ، فاضطرت العربية للتخلص من هذا الأمر إلى تحريك الساكن الأول بحركة تنسجم مع ما يجاورها من الحركات.

سادسا : التضعيف :

التضعيف الذي يلحق بعض الكلمات في العربية واحد من المظاهر الصوتية التي استعملتها العربية للوقف على الكلمة عند النطق بها فقالت العرب: (خالدّ،وجدبّ، واخصبّ) في (خالد،وجدب،واخصب)،والغاية من مجيء التضعيف هنا هو التوكيد،لأنّ الناطقين هنا أرادوا أن ينطقوا صوتا لا يكون الذي بعده إلاّ متحركا،لأنه لا يلتقي ساكنان(٢).

٤. الروم والإشمام :

الروم ظاهرة صوتية بارزة في العربية عرفها علماء هذه المدرسة الصوتية بأنها ((صوت ضعيف ناقص فكأنك تروم ذاك ولاتتمه))(٣)وهو أمر لايدرك إلاّ بالإصغاء التام لأن الناطق بالصوت يعمل على تضعيف الحركة من دون أن يسقطها للوقوف على الكلمة وقد ميزوا بينه وبين الإشمام بان الروم يشعر به الأعمى والبصير أما الإشمام فلا يشعر به إلا البصير .

أما الإشمام فعرفه علماء هذه المدرسة بقولهم:((أن تضع لسانك في أي موضع شئت ثم تضم شفتيك، وإشمامك للرفع ، إنما هو للرؤية،وليس بصوت يسمع، فإذا قلت : هذا معن فأشممت كانت عند الأعمى بمنزلتها إذا لم تشم، وإنما هو أن تضم شفتيك بغير تصويت))(٤).

١) ينظر:الكتاب:٢/٢٨٤.

٢) ينظر:المصدر نفسه:٢/٢٨٢و الأصول:٢/٣٧٣

٣) الأصول:٢/٣٧٢ ، وينظر: شرح المفصل : ٩/٦٧.

٤) الأصول:٣/٣٧٢. سر صناعة الإعراب :١/٥٣.

أي ان المتكلم حينما يريد بيان الحركة على الحرف لا ينطق بها بل يضم شفتيه كما لو كانتا في وضع نطق الضمة من دون ان يكون هناك أي نوع من التصويت الذي يُشعر بالإشمام[١] .

وهذا التقارب بين الظاهرتين جعل بعض علماء العربية يداخل بين التعرفين فينسب أحدهما إلى الآخر فيعرف الإشمام بأنه صوت يسمع ويعرف الروم بأنه الذي لا يسمع أي ينسب تعريف الإشمام إلى الروم وتعريف الروم إلى لإشمام[٢] .

ونحن لا نجد اليوم من متكلمي العربية الفصحى من يحرص على نطق الروم والإشمام في وقفه إلاّ عند نفر قليل من القراء الذين تمسكوا بالرواية[٣] .

٥. الإمالة :

أولى علماء هذه المدرسة عناية خاصة بهذه الظاهرة فحددوا مفهومها ووضحوا أمثلتها،فقد عرفها سيبويه بأنها:إمالة الألف نحو الياء وإمالة الفتحة نحو الكسرة[٤] وذهب المبرد إلى أنّ الإمالة هي((أن تنحو بالألف نحو الياء ولا يكون ذلك إلاّ لعلة تدعو إليه))[٥] ، وقد تابع علماء هذه المدرسة هذا التعريف[٦].

وشرح ابن يعيش هذا التعريف وبين المراد منه وذلك حينما ذهب إلى أن اللسان في الإمالة يتجاذب فيه الصعود إلى الأعلى وذلك في حالة الألف، والنزول إلى الأسفل في حالة الياء والكسرة،فحاول الناطقون بهذه الطريقة أن يوحدوا النطق،وذلك بجعل اللسان يستقر على أحدهما، فلجأوا إلى إمالة الألف نحو الياء والفتحة نحو الكسرة [٧].

وقد حدد علماء المدرسة ظواهر الإمالة بالحالات الآتية[٨]:

١- إمالة بسبب الياء :نحو : شيبان وغيلان

٢- إمالة من اجل الكسرة، نحو سربال وعابد .

---

١) ينظر:الكتاب:٢/٤٠٠ والنكت:٢/١١٠٢.

٢) ينظر: شرح المفصل:٩ /٦٨.

٣) ينظر:الدراسات الصوتية عند علماء التجويد :٥١٢.

٤) ينظر:الكتاب : ٢ /٢٥٩ .

٥) المقتضب : ٣ /٤٢ .

٦) ينظر: الأصول :١٦٠/٣ ، وشرح الفصل : ٥ /٥٥ .

٧) ينظر:شرح الفصل : ٥ /٥٥.

٨) ينظر:الكتاب :٢/٢٥٩-١٦٤ ،والمقتضب :٤٢/٣ ،والأصول : ١٦٢/٣.

٣- الممال المنقلب عن ياء، لأن أصله ياء، نحو : ناب ومال : وما جاوز من الأسماء أربعة أصوات وأصله واو، ويضاف إليه كل ألفٍ زائدة للتأنيث،لأنها تقلب ياء في التثنية مثل حبلى.

٤- الممال الشبيه بالمنقلب عن ياء، سواء أكانت الياء فيه أصليه أو لا فتمال ألفه، لأنها إما ياء أو بدل من ياء، والأصل فيه الواو فشبهوه بالياء لغلبة الياء على اللام، إذا جاوزت ثلاثة أصوات .

٥- الممال من أجل الصوت الذي قبل الألف،من نحو (فَعِلتُ) من (خاف، وطاب، وهاب) فيقال:(خفتُ، وطِبتُ، وهِبْتُ)

٦- الممال لأجل الإمالة نحو: رأيتُ عماداً .

وقد استبعد المبرد أن يكون ما أصله واو إمالة، فهو تفخيم يصيب الألف إذ قال:((ما كان من ذوات الواو على ثلاثة أحرف نحو دعا وغزا قبيحة، إلاّ إذا كان هناك ما يسوغها لكسرة تسبق المد))[١].

وهذا التوسع في مفهوم الإمالة هو الذي دعا بعض المحدثين إلى القول بان القدماء قد خلطوا بين مفهومي الإمالة والتفخيم[٢] .

ولعل السبب في ذلك الخلط هو أنّ الإمالة ظاهرة لهجية واسعة تتحدث بها الكثير من قبائل العرب،وهذه السعة هي التي أظهرت بعض الاضطراب عندهم على الرغم من أنهم حاولوا أن يحددوا بعض موانع الإمالة إذ حددوها بأمور أهمها[٣]:

١- الأصوات المستعلية وهي (الصاد، والضاد، والظاء، والغين، والقاف، والخاء). وذلك لأنها أصوات مستعلية إلى الحنك الأعلى، والألف عندما تخرج من موضعها استعلت إلى الحنك الأعلى، فلما كانت هذه الأصوات المستعلية غلبت على الالف مثلما غلبت الكسرة عليها في نحو (مساجد) فعندما كانت الأصوات مستعلية وكانت الألف مستفلة، وقربت من الألف فالعمل من وجه واحد أخف على الناطق[٤].

٢- تمنع الإمالة في فاعل من المضاعف ومفاعيل من نحو:(جادّ) .

---

١) المقتضب : ٣ /٤٣ .

٢) ينظر:أصوات العربية بين التحول و الثبات :٢١، ورسم المصحف :٣٢٩-٣٨٨ .

٣) ينظر:الكتاب : ٢ /٢٦٤-٢٧٠ ، شرح المفصل : ٥/٥٥

٤) ينظر:الكتاب : ٢/٢٦٤ .

٣- تمنع الإمالة في الأصوات التي جاءت لمعنى من نحو (حتى،وما،ولا) ، وذلك لكي يفرقوا بينها وبين الأسماء،فأمالوا (أنّى) لأنها اسم، ولم يميلوا (لا)،كما لم يميلوا (ما) لأنهما لم يتمكنا تمكن (ذا)[١].

٤ـ الراء من موانع الإمالة،وذلك لأنها حرف مكرر وان تكراره جعلهم ينطقون براءين،هو المسوغ لمنع الإمالة [٢].وذلك إذا سبق الألف صوت (الراء) نحو:(راشد)،ومثله إذا وقع الصوت المستعلي بعد الراء من نحو(هذه ناقة فارق)[٣].

و لم يكن تعليل العلماء هذا مسوغا إذ كان يجب أن يعللوا هذا الأمر بان كسر الراء يمنع الناطق من أن يقوس طرف لسانه إلى فوق كما في نطق الراء المكررة وبسبب ذلك يمكن تشبيه الراء بالجيم والياء، ولما كانت الكسرة من مخرج الياء، يفهم أنّ تسطيح الجزء المقدم المرفوع من اللسان سوف يؤدي إلى الإمالة [٤].

إنّ هذا الاتساع والتشعب في هذه الظاهرة هو الذي أظهر بعض الاضطراب في آراء علماء هذه المدرسة على الرغم من محاولتهم وضع ضوابط محددة لها،ولكن هذا الأمر لا يعني أنهم لم يستطيعوا أن يفرقوا بين الياء والكسرة، والألف والفتحة عند حديثهم عن الإمالة كما ذهب بعض المحدثين إلى ذلك[٥].

٦. الإعلال :

تمثل هذه الظاهرة الوصف المكمل لبقية الظواهر لدراسة أصوات اللغة العربية،إذ لا يمكن من دونها الوقوف على الكثير من التغيرات التي تطرأ على بنية الكلمة،لأن أصواتها أكثر الأصوات ورودا في الكلمة العربية فضلا عن كونها الأكثر تغيرا وتبدلا وهي(الألف والواو والياء) .

---

١) ينظر:المصدر نفسه : ٢٦٧/٢ .

٢) ينظر:البحث الصوتي عند ابن السراج : ١٨٥ .

٣) ينظر:الكتاب : ٢٦٤/٢ .

٤) ينظر:الأصوات عند سيبويه وعندنا:٨٦ .

٥) ينظر:الإمالة في القراءات واللهجات:٧٦ .

وعلى الرغم من أهمية هذه الظاهرة وكثرة انشغال النحاة بتعليلاتها نجد أنهم لم يضعوا تعريفا دقيقا لها،فعلى الرغم من أنّ سيبويه كان قد استعمل مصطلح الإعلال كثيرا في كتابه ،الا انهلم يضع تعريفاً محدداً له ، وكذا الحال بالنسبة إلى المبرد[١] .

ولعل أول من يقترب عنده تعريف الإعلال من معناه الاصطلاحي هو ابن يعيش الذي قال : ((والعلّة تغير المعلول عمّا هو عليه،وسميت هذه الحروف حروف علة لكثرة تغيرها))[٢].

ولم يأخذ معنى هذا المصطلح بالاستقرار إلا عند المتأخرين من علماء هذه المدرسة،فقد عرفه رضي الدين الاستراباذي بقوله :((تغير حرف العلّة بالقلب أو الحذف أو الإسكان،والغرض من هذا التغيير التخفيف))[٣].

وقد رصد علماء هذه المدرسة حالات الإعلال فوجدوا أنها تتمثل في حالات متعددة أهمها[٤]:

<u>أولا : الحذف :</u>

الإعلال بالحذف واحد من أبرز الظواهر الصوتية التي تصيب الكلمة في العربية وذلك لغرض التخفيف في نطق الكلمة التي يكثر استعمالها وهو سنة من سنن العربية في كلامها[٥].

وقد كان لعلماء هذه المدرسة الصوتية وقفة مهمة في بيان طرائق الحذف وأسبابه ومن أبرز مظاهره التي تناولوها حذف فاء الكلمة في الفعل المثال،والمضارع والامر،والمصدر الذي على وزن (فِعْله)،وقد بينوا ذلك بقاعدة صرفية تنص على أنه إذا كان الفعل ثلاثياً واوي الفاء مفتوح العين في الماضي ومكسور العين في المضارع تحذف فاؤه في المضارع نحو: (وعد، يَعِد)،والأصل المفترض هو (يَوْعِد، أوْعِد) وقد حذفت الواو هنا لوقوعها بين ياء وكسرة،أما مصدره فيقع فيه الحذف لأنهم أعلوه كفعله نحو

---

١) ينظر: الكتاب :٣٨١/٢ ، والمقتضب :٦١/١، والإعلال في كتاب سيبويه:١٥٢ (اطروحة دكتوراه) .

٢) شرح المفصل : ٥٤/١٠ .

٣) شرح الشافية :٦٦/٣-٦٧ .

٤) ينظر:الكتاب : ٣٨١/٢، والمقتضب : ٩٦/١ ،وشرح الشافية : ٩٥/٢.

٥) ينظر:الصاحبي في فقه اللغة : ٢٠٥ .

(عِدة)،والأصل المفترض (وَعِدة) . واشترطوا وجود (الهاء) لأنها لابدّ منها فإذا لم تكن فلا يقع الحذف (١).

ومن بين الأمثلة التي أشاروا إليها في هذا الموطن أن الكلمة عند بنائها من (فَعَلتُ)، إذا كان أصل العين واواً تنقل إلى (فَعُلْت) من نحو : (قال) يقال : (قُلْتُ)،وتنقل إلى (فَعِلتُ) إذا كان أصلها (ياء) من نحو: (باع) يقال : (بِعْتُ)،لان الأصل عندهم (فَعَل)،وهو (قال، وباع)،وعندما يقال:(فَعَلْتُ)،تنقل ما كان أصله واوا إلى (فَعُلْتُ) وبعد ذلك تحول الضمة في (فَعُلْتُ) إلى الفاء،ومن بعد ذلك تحول الضمة في (فَعُلْتُ) من (قُلْتُ) إلى الفاء،ومن (بِعْتُ) – أيضا – وذلك بعد إزالة الحركة التي كانت لها في الأصل فيصبحان (قُلْتُ) و(بُعْتُ)،وكان التقدير:(قَوُلت)، و(بَيِعْتُ)،وعندما انتقلت حركة عين الفعلين إلى الفاء أصبحتا ساكنتين،ولما كانت لام الفعلين ساكنة بسبب اتصالها بضمائر الرفع،حذفت عين الفعلين لالتقاء الساكنين،فصارا (قمتُ) و(بِعتُ)،وبذلك تدل الضمة على أنّ الواو محذوفة فيعرف أنّ الأصل هو الواو،وتدل الكسرة على أنّ الياء محذوفة، فيعرف أنّ الأصل هو الياء (٢).

ثانيا: القلب :

ويراد به قلب أصوات العلّة بعضها من بعض،وأهم مظاهره هي :-

١- قلب صوتي (الواو و الياء) ألفاً إذا تحركا وانفتح ما قبلهما من نحو: قال، وباع، وغزا، ورمى،حيث ذهب علماء هذه المدرسة إلى أن أصل هذه الأفعال هو : (قَوَل، وبَيَع وغَزَوَ، ورَمَى)،فلما تحركت (الواو والياء) وانفتح ما قبلهما قلبتا إلى ألف(٣).

وذهب علماء هذه المدرسة إلى أنّ (الواو والياء) إذا سبقا بكسرة بعد سكونهما قلبا ياء من نحو (ميزان ميقات) والأصل الافتراضي هو (مِوزان ومِوْقات)(٤).

٢- إذا سكنت (الواو والياء) وانضّم ما قبلهما قلبا واواً وذلك بسبب الضمة التي قبلهما من نحو (مُوقن، ومُوسر) والأصل الافتراضي لهذه الألفاظ هو (مُيْقِن ومُيْسر) (٥).

---

١) ينظر:الكتاب : ٢٣٢/٢، والمنصف : ١٨٨/١ .

٢) ينظر:الكتاب : ٣٦٠/٢- ٣٦١ ،والمقتضب: ٩٧/١، والمنصف: ٢٣٤/١-٢٣٥.

٣) ينظر:الكتاب : ٣٨١/٢ ، والمنصف : ١٩٠/١، والمقرب : ٥٤٧.

٤) ينظر المصادر أنفسها والصفحات أنفسها .

٥) ينظر:الكتاب : ٣٥٨/٢، والإيضاح : ٤٣٦/٢

فقد ذهب علماء هذه المدرسة الصوتية إلى أنه في حالة اجتماع الياء والضمة لا بدّ من أن يتغيّر أحدهما،لذلك تغيرت الحركة هنا ليبقى الصامت على حاله من دون تغيير [١] .

٣- قلب الهمزة الساكنة ألفاً إذا كان ما قبلها مفتوحاً نحو(رأس،راس)، وتقلب واواً إذا كان ما قبلها مضموماً :(البؤس،البوس)،وتقلب ياء،إذا كان ما قبلها مكسوراً نحو (الذئب،الذيب)[٢].

ويقترب مفهوم الإعلال في الدرس الحديث من مفهومه عند علماء هذه المدرسة فهو عندهم ((إحدى ظاهرات التبدل الصوتي،ونعني به تلك التبدلات التي تصيب الطليقات الطوال وأشباهها مما ندعوه في العادة بحروف العلة،وهي الألف والواو والياء))[٣] .

ثالثا . النقل :-

الإعلال بالنقل هو عملية تحويل الحركات القصيرة من مكانها إلى مكان آخر في الكلمة وذلك لتيسير عملية النطق بها ويحدث ذلك إذا وقعت (الواو أو الياء) عيناً للفعل أو الاسم الذي يجري مجرى الفعل فتنتقل حركتهما إلى الصوت الساكن الذي قبلهما، فيتحمل الساكن الصحيح حركتهما نحو (قال وباع) إذا كانا على وزن (يَفْعلُ)،لأن الأصل هو (يَقْوُل، ويَبْيِع) فنقلت حركة الواو (الضمة) وحركة الياء (الكسرة) إلى الساكن الذي قبلهما وهما (القاف والياء)[٤].

ويتبين هنا أنّ حدوث الإعلال بالنقل يتطلب وجود ساكن صحيح قبل صوت العلّة لكي يهيئ موقعاً تقع عليه حركة صوت العلّة التي تنتقل إليه،وهي بذلك ظاهرة موقعية يتطلبها سياق الكلام وبنية الكلمة،وتفسيرات القدماء كانت على درجة كبيرة من الدقة في رصد التغيرات التي تطرأ على بنية الكلمة،وقد اتفقوا فيما بينهم في تحديد الغاية من هذه التغيرات والتي تتمثل في الميل إلى السهولة في النطق ، والمحافظة على بنية الكلمة ومحاولة تجنب التقاء الساكنين[٥].

---

١) ينظر:الإيضاح : ٤٣٦/٢

٢) ينظر:الكتاب: ٣٨٠/٢، والأصول : ٣٩٨/٢

٣) المحيط : ١٠٥/١ .

٤) ينظر:الكتاب : ٣٦٣/٢، والمنصف : ٢٦٨/١ .

٥) ينظر:الإعلال في كتاب سيبويه :٥٠ - ٨٥ (أطروحة دكتوراه) .

ومن هذا يظهر لنا أن مظاهر الحذف والقلب والنقل مظاهر اعلالية عالجها علماء هذه المدرسة الصوتية بشكل دقيق وواضح .

المبحث الرابع

منهج المدرسة المحاسن والمآخذ

ليس هناك من يستطيع أن يتجاوز الجهد الصوتي الكبير الذي قدمه علماء هذه المدرسة، إذ كان جهدهم الصوتي شاملا لأغلب الموضوعات الصوتية واقترب هذا الجهد في أكثر المواضع من الدراسات الحديثة لعلم الأصوات على الرغم من أنه لا يمكن القول بأن منهجهم الصوتي كان بالدقة التي توازي الدراسات الحديثة ، إلاّ أنّ الجهد العلمي عندهم تمكن من أن يستوعب مظاهر الدراسة الصوتية في مجال علم الصوت النطقي وعلم الصوت الوظيفي إذ استطاع العلماء أن يصلوا إلى تصور دقيق لتلك الظواهر التي تشكل الأساس لعلم الأصوات ولعل الدراسة الشاملة للفكر الصوتي عند علماء هذه المدرسة وعلى الرغم مّما يحيط بها من الصعاب توصلنا إلى معرفة دقيقة للأسباب التي قادتهم إلى الاهتمام بهذا الجانب الصعب من جوانب اللغة .

ونتيجة لذلك كان هذا الجهد مصحوبا بمحاسن كثيرة ومأخذ لم يكن تجاوزها سهلا لعدة أسباب ولعل من ابرز هذه المحاسن والعيوب ما يأتي :

<u>محاسن المدرسة :.</u>

إن المحاسن التي تحتسب لهذه المدرسة أكبر من أن تحصرها هذه الأسطر وتحدها هذه الأوراق ، إلاّ أننا سنحاول رصد أبرزها للوقوف على ما امتازت به هذه المدرسة عن غيرها من المدارس ،ولعل أبرز تلك المحاسن هو ما يأتي :

١. اعتمد علماء هذه المدرسة على الجانب الوصفي مدعوما بالأدلة المنطقية التي حاولوا من خلالها البرهنة على صحة ما توصلوا إليه من نتائج صوتية ،ونحن نرى ذلك واضحا في دراستهم للظواهر الصوتية كالإدغام والإعلال والإبدال والوقف وغيرها.

٢. استعمل علماء هذه المدرسة مصطلحات صوتية كانوا أول من استعملها فضلا عمّا ورثوه من فكر الخليل بن أحمد الفراهيدي من مصطلحات كالمجهور والمهموس والمكرر والهاوي والإصمات وغيرها حتى أصبحت هذه المصطلحات فيما بعد خطى مهمة سار عليها الدارسون ،فضلا عن أهمية هذه المصطلحات في تحديد معالم الدرس الصوتي العربي وبيان مدى اكتماله على الرغم من الغموض الذي يكتنف بعضها كالجهر والهمس والشدة والرخاوة .

٣. لم يكن اعتماد علماء هذه المدرسة على الملاحظة الذاتية لأعضاء النطق في تحديد مخارج الأصوات سببا يبعدهم عن الوصف الدقيق لمخارج الأصوات وتحديد كيفية النطق ، فقد عرفت هذه المدرسة الأعضاء النطقية متوصلين منها إلى معرفة كيفية نطق الأصوات والوقوف على وظيفة كل عضو منها ، مع الإشارة إلى أنّ لهذه الأعضاء وظائف أخرى غير إخراج الأصوات فوظيفة اللسان مثلا تذوق الطعام، والأسنان قطع الطعام وطحنه، والأنف التنفس والشم، وهكذا بقية الأعضاء[١] .

٤. كان ترتيب الأصوات وتوزيعها على مخارجها في الكثير من الأحيان دقيقا أيده الدرس الصوتي الحديث وهو أمر يدل على إدراك سليم بأن الصوت اللغوي يتكون من التقاء أعضاء النطق في منطقة معينة تنسب إليها هذه الأصوات، ومن ذلك تحديدهم الدقيق لصوت (اللام) بأنه يحدث من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان من بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى، مما فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية ، في حين اكتفى المحدثون وفي وصفه بأنه يكون باتصال طرف اللسان بأصول الثنايا[٢].

٥. لم يهمل الدرس الصوتي النحوي الحديث عن صفات الأصوات التي هي في الحقيقة معايير للتميز بين الأصوات في اللغة وقد أطلقوا على ذلك (صفات الأصوات)،في مقابل الوصف المخرجي الذي أطلقوا عليه (مخارج الأصوات) ، وتحدثوا عن هذا الموطن من مواطن الدراسة بشيء من التفصيل وهو أمر أملاه عليهم منهجهم الذي اتبعوه .

٦. استطاع علماء هذه المدرسة أن يوظفوا الدرس الصوتي في إطاره التركيبي للجملة فدرسوا الأصوات في حيّز التركيب بعد أن تناولوها من حيث هي وحدات صوتية من حيث المخارج والصفات وبينوا كيف تؤثر في النظام اللغوي وخصوصاً في الجانب الصرفي الذي يدخل فيه الجانب الصوتي بل إنّ الكثير من التفسيرات النحوية والصوتية كانت تفسر تفسيرا صوتيا .

٧. كان علماء هذه المدرسة على معرفة دقيقة بالأصوات وأقسامها ،إذ إنّ تقسيمهم لها على قسمين ، أصوات صامتة وأخرى صائته كان من الدقة بحيث إن المحدثين لم يخرجوا عن إطار هذا التقسيم للأصوات .

---

١) ينظر:أصوات اللغة العربية :٣٨ ، و دراسة السمع والكلام : ٧٦ .

٢) ينظر:الأصوات اللغوية : ٨٧ .

المآخذ على المدرسة :.

لم يكن هذه العمل الكبير الذي قام به علماء هذه المدرسة ليخلو من بعض المآخذ والنقص ، ولعل من أهم هذه المآخذ التي يمكن أن تسجل على عملهم هي :.

١. ابتعد علماء هذه المدرسة في دراستهم الصوتية عن دراسة الجانب السمعي في العملية الصوتية ، فلم يتعرضوا لدراسة حدوث الصوت أو انتقاله أو استقباله فعلى الرغم من سعة دراستهم لمخارج الأصوات وصفاتها لم يتطرقوا إلى هذه الجانب من علم الأصوات[١].

٢. لم يكن المنهج الذي اتبعه علماء هذه المدرسة منهجا واحدا بل تعددت النظرة المنهجية للجانب الصوتي عندهم فمرة نظروا إليها من الجانب الوصفي وهو الغالب لديهم ومرة نظروا إليها من جانب معياري في تفسيرهم للظاهرة الصوتية فمنهجهم لم يكن شكليا صرفا على الرغم من أنه يعد من أهم الأسس التي يستند إليها المنهج الوصفي فقد اعتمد علماء هذه المدرسة كثيراً على المضمون مما أدى إلى اعتمادهم التعليل والتقنين كما في دراستهم للظواهر الصوتية .

٣. لم تكن نظرة علماء هذه المدرسة واحدة في رصد مخارج الأصوات ، فقد اختلفوا فيما بينهم في عدد هذه المخارج وان ذهب أكثرهم إلى أنّ عدد مخارج الأصوات العربية هو (ستة عشر) مخرجا[٢] ، وذهب قسم منهم إلى انها (أربعة عشر) مخرجا كالفراء (ت٢٠٧هـ) ، وقطرب(ت٢١٠هـ) ، والجرمي (ت٢٢٥هـ) ، وابن كيسان (ت٢٢٩هـ)[٣].

٤. سارت هذه المدرسة في بعض خطاها على مسار المدرسة المعجمية وان لم تكن هذه المدرسة دقيقة في رأيها، من ذلك مذهبها في تحديد مخارج الغين والخاء والكاف إذ إنّ مخرج الغين والخاء من منطقة تلي اللهاة وليس مما يسبقها ، ثم إنّ وصف الكاف بأنها لهوية أمر مجانب للصواب[٤].

٥. على الرغم من الدقة التي عرف فيها علماء هذه المدرسة في تحديدهم للمفاهيم الصوتية نجد أنهم لم يضعوا حدا واضحا لمفهوم الإعلال ، فاكتفوا بتعداد حالات الإعلال ومحاولة إيجاد التفسيرات لتغيراته التي تحدث في الكلمة ، الأمر الذي جعلهم يخلطوا بينه وبين

---

١) ينظر:الكتاب :٤٠٥/٢ ، والأصوات عند سيبويه وعندنا: ٤، الأصوات عند سيبويه:٢٥ (بحث).

٢) ينظر:الكتاب: ٤٠٥/٢. سر صناعة الاعراب : ١/ ٥٣. شرح المفصل : ١٠/ ١٢٣-١٢٤.

٣) ينظر:همع الهوامع: ٦/ ٢٨٩-٢٩١.

٤) ينظر:العين : ٦٥/١. والكتاب : ٢/ ٤٠٥ وسر صناعة الإعراب : ٥٢/١.

الإبدال الصرفي ، إذ خلطوا بين الإعلال الذي يقع في أصوات العلة فقط وبين الإبدال الذي يقع في الأصوات الصحيحة والمعتلة[١].

٦. كان رصد علماء هذه المدرسة للظواهر الصوتية قائما على متابعة النطق بالظاهرة عند العرب ، إلا أن هذا الرصد كان يصيبه بعض الاضطراب نتيجة لإهمالهم بعض اللهجات العربية ، كالذي نجده في حديثهم عن ظاهرة الإمالة إذ أحدث هذا الأمر اضطرابا في تحديدهم لموانع الإمالةفمحاولة إخضاعها لقواعد تُقيِّد الناطقين بها فيه شيء من التعسف والتمحل ، فليس كل ظاهرة صوتية تقّيد بقوانين فالظاهرة الصوتية اكبر من ذلك القيد ولاسيما إذا كانت ظاهرة لهجية واسعة الاستعمال كالإمالة[٢].

---

١) ينظر :المقتضب : ٦١/١

٢) ينظر :الكتاب : ٢٦٤/٢- ٢٧٠ ، وشرح المفصل : ٥/ ٥٥ .

الفصل الثالث

مدرسة المجودين والقراء الصوتية

المدخل

المبحث الأول :آلية التصويت

المبحث الثاني : مخارج الأصوات

المبحث الثالث : الصفات الصوتية

المبحث الرابع : الأحكام التعاملية والظواهر الصوتية

المبحث الخامس : منهج المدرسة المحاسن والمآخذ

المدخل :

جرياً على منهجنا الذي رسمناه في فقرات المدخل العام لهذه الدراسة ، سنسعى إلى متابعة الجهود الصوتية التي تهدف إلى تأسيس دراسة علمية دقيقة للنظام الصوتي الخاص باللسان العربي .

ومن المؤكد أن معطيات تلك الجهود متنوعة بتنوع مذاهب الدارسين وأصولهم المعرفية، فضلاً عن تنوع آليات اشتغالهم وأدوات تحليلهم النابعة من تنوع تلك الأصول

وما جهود علماء التجويد وعلماء القراءة القرآنية إلاّ لبنة رئيسة من لبنات الهيكل العام لتراثنا اللساني ُيعده الصوتي على نحو الخصوص .

ودراسة أصوات اللغة العربية تحقق الهدف المنشود ، وتنير الطريق أمام الدارسين وتأخذ بيد الدارسين للغة وهيليست ترفاً علمياً ، بل هي الأساس لأي دراسة لغوية .

ولقد عرف أسلافنا لهذه الدراسة قدرها ، وبنوا عليها الكثير من الآراء في مختلف الدراسات اللغوية ، في إصلاح الكتابة العربية ، وفي النحو والصرف ، والمعجمات والعروض والأهم من ذلك كله " علم الأداء القرآني " ، وسائر العلوم اللسانية، وكان الحافز لهذا كله العامل الديني ، وهو الحفاظ على القرآن الكريم من أن يتقحمه خطأ في النطق أو الفهم(١) .

تأسيساً على ما ذكرناه في الفقرة السابقة ، سعينا إلى ترصّد المقولات الرئيسة لعلماء التجويد والقراءة القرآنية ، لتكون أساساً لترتيب مفردات المدرسة الصوتية لديهم على وفق تصورنا الذي رسمناه سالفاً .

وبعد متابعة مقولات المجودين وعلماء القراءة القرآنية ، رأينا أن نجعل هذا الفصل على خمسة مباحث ، كل مبحث ينهض بالكشف عن مفردة من مفردات هذا المتن المعرفي الجليل .

وعليه جاءت المباحث موسومة بالمضامين المفصح عنها من خلال عنواناتها ، والتي يمكن تلخيصها على هذا النحو :

---

١) ينظر: دراسات في التجويد والأصوات اللغوية : ٣ – ٤ .

المدخل

1. **آلية التصويت .**
2. **المخارج الصوتية .**
3. **الصفات الصوتية .**
4. **الأحكام التعاملية والظواهر الصوتية .**
5. **منهج المدرسة ، المحاسن والمآخذ .**

المبحث الأول :

((آلية التصويت))

آلية التصويت من الموضوعات المفصلية في الدراسة اللسانية المعاصرة ؛ وذلك أنها تحاول أن تقدّم ركيزة مهمة من ركائز العلم والمعرفة .

ومن المعروف أن المقدمات الصحيحة ، تقدّم نتائج صحيحة أيضاً ، وعلى مقدار الخلل الذي يصيب الأولى تظهر المعطيات في الثانية .

وعليه سعى المحدثون من دارسي اللسان البشري إلى وضع المقدمات الضرورية والمهمة في آن،ليتسنى لهم الوصول إلى نتائج صحيحة في سبيلهم التحليلي .

ولم يكن هذا المعطى التحليلي من ابتكار المحدثين ، بمعنى أن التراث المعرفي لثقافة الشعوب يخلو من هذا الإقدام التحليلي ، بل العكس صحيح ؛ إذ كانت حركة المحدثين مندفعة من تجربة السابقين في التحليل اللساني .

ومن نافلة القول أن البحث اللساني العربي من البحوث المهمة في متن المعرفة العالمية ؛ ذلك أن البراهين الساطعة قُدِّمت لإثبات ذلك ، وكان الإسهام اللساني العربي – بحسب مقالات علمائه القدماء – من بين جملة الإسهامات التي قدّمها التراث الإنساني لمعطيات الدرس اللساني الحديث ، ومن ذلك : وصفهم لآلية النطق عند الناطقين العرب؛ لتكون مقدمة أساسية للدرس برمته .

قبل الخوض في مجريات هذا التصور ، لا بد من الإشارة إلى أن من أهم المتون اللسانية في تراثنا العربي ، وخاصَّةً في مستواها الصوتي ، هو المتن المعرفي التابع لعلماء " التجويد والتلاوة " ذلك المتن الثّر بمقالاته ، ونظرياته الجليلة ، ويكفيه فخراً أنه حافظ على اللسان العربي في مستواه التعاملي الفصيح على مدى قرون من دون أن يشوبه عيب ، كما شاب الألسنة البشرية الأخرى التي لم تتحصن بالعلوم اللسانية الحافظة لهوية نطقها وتعاملها اللساني .

ويضيف الدارسون إلى هذا العلم اللساني الثّر جهود القرّاء وما أثاروه من مقولات صوتية وغير صوتية في حقلهم المعرفي المعروف بـ " القراءات القرآنية " .

وسنقف في هذا المبحث عند نقطتين مهمتين من نقاط التحليل الصوتي التابع للمقدمة الصوتية المهمة الموسومة بـ " آلية التصويت " .

ومضمون هاتين النقطتين يتلخص بـ :

- **وصف أعضاء الجهاز النطقي .**
- **وصف الرسم التقريبي للجهاز النطقي .**

وسبب توقفنا عند هاتين النقطتين يعود إلى :

- **كونهما عماد الوصف الدقيق لآلية النطق .**
- **كونهما جهازاً تقريبياً لآلية النطق إلى ذهنية القرّاء .**

<u>أولاً : وصف أعضاء الجهاز النطقي :</u>

إنّ من غير الممكن أن نقدم على دراسة شيء معين من دون التعرف على هيكلته الداخلية ، وتكويناته الرئيسة ، وتبعاً لهذا الفرض سعى الدارسون إلى الخوض في السبل الكفيلة بتعريف القارئ وقبله الدارس بالهيكلة الداخلية والمكونات الرئيسة للجهاز النطقي عند الإنسان ؛ ليتسنى لهم معرفة الآلية وطرائق التصويت عند الإنسان .

ولتحقيق هذه الغاية احتاج الدارسون إلى الاستعانة بـ (علم التشريح) المنتمي إلى الحقل الطبي ؛ ذلك أنه يقدم المعلومة الصحيحة والدقيقة للأعضاء ، وكيفية اشتغالها ضمن إطارها العام : أجهزة جسم الإنسان ، أو إطارها الخاص : أعضاء الجهاز الصوتي .

فالجهاز الصوتي هو الآلة التي بوساطتها تخرج الأصوات ، وهي أشبه بآلة موسيقية ، كما شبهت قديماً ،إذ قال ابن جني : ((شبه بعضهم الحلق بالناي))[١]، وهو يريد بالحلق والفم مجمل الجهاز النطقي ، ويتكون هذا الجهاز من مجموعة أعضاء ، وهي أعضاء النطق ، إلاّ أنّ وظائفها النطقية ذات أهمية أقلّ من وظائفها الأساسية الأخرى ، وقد فضل عدد من العلماء مصطلح أعضاء النطق على الجهاز الصوتي أو جهاز النطق ؛ والجهاز النطقي ليس جهازاً للنطق فقط ، بل إنّ النطق ليس هو الوظيفة الأكثر أهمية له ، إذ إنّ هناك وظيفة أهّم بكثير ، وهي وظيفة التنفس ومضغ الطعام وتقليبه وبلعه ، فاللسان وظيفته ذوق الطعام والأسنان من وظائفها قضم الطعام وطحنه[٢].

ولم تكن هذه الفكرة غائبة عن ذهن علمائنا القدماء ، الأمر الذي ترجم إلى اشتغال تحليلي / تشريحي لأعضاء الجهاز النطقي ، ولعل أهم متنين من متون البحث اللساني

---

١) سر صناعة الإعراب : ١ / ٨ .

٢) ينظر:علم اللغة العام / الأصوات : ٦٥ ، والمصطلح الصوتي: ٢٣ – ٢٤ .

في تراثنا المعرفي ، هما : متن دراسات الفلاسفة المسلمين الخاصة بالبحث الصوتي ، ومتن دراسات المجودين والقرّاء .

وعليه ، يكون سعينا لرصد مقولات علماء التجويد والقراءة ، لبنة رئيسة في سبيل هيكلة هذه المدرسة المهمة في البحث اللساني ، ولا سيما البحث الصوتي منه .

وقبل الخوض في حيثيات هذا الموضوع ؛ لا بد من إشارة مهمة مفادها : أن الدكتور غانم قدوري الحمد سبقنا إلى التعرض إلى تفصيلات هذا الموضوع ، لذا سنعمد هنا للاختصار ؛ لئلا نكرر ما قاله الدكتور الحمد[١] .

ولكن جهد الدكتور الحمد . على طيبه . لا يحول دون إثارة ما درس ، إنما كان ذلك الجهد ركيزة صالحة لدراسات مماثلة في قابل الزمن ، ولعل دراستنا هذه واحدة منها ، وما يؤكد هذا النهج : أن غايتنا تختلف عن غاية الدكتور الحمد ، فهو أراد إثبات الإسهام الرئيس لمقولات المجودين والقرّاء ، في حين نريد نحن إثبات كون تلك المقولات تشكّل مدرسة صوتية مهمة لها ما لها ، وعليها ما عليها .

وفيما يأتي نعرض مجمل ما طرقه علماء التجويد من وصف لأعضاء الجهاز النطقي ؛ بغية تأكيد إسهامهم في تأسيس هذه المقدمة المهمة في الدرس اللساني، ولاسيما في مستواه الصوتي :

١- **الرئة :**

أكد الدارسون المحدثون على أهمية الرئة في آلية التصويت ، وكونها الدافع الرئيس لتوليد الصوت ، بما تفرزه من دفق هوائي تشكله حالتا : الشهيق والزفير .

وقد أكد علماؤنا القدماء كالفارابي هذا الإسهام ، كما في قوله : فـ ((الهواء الذي يجذبه الإنسان إلى رئتيه وداخل صدره من خارج ليروح به القلب ، ثم يدفعه منها إذا سخن إلى الخارج ، فإذا دفع الإنسان هواء التنفس إلى الخارج جملة واحدة وتوقف لم يحدث صوت محسوس ، وإذا حصر الإنسان هذا الهواء في رئتيه وما حواليها من أسفل الحلق ، وسرب أجزاءه إلى الخارج شيئاً فشيئاً ، على اتصال وزحم به ُمقعَّر الحلق وصدم أجزاءه حدث حينئذٍ نغم ، بمنزلة ما يحدث لسلوك الهواء في المزامير))[٢].

---

١) ينظر: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد : ٩٦ وما بعدها .

٢) الموسيقى الكبير : ١٠٦٦ .

وقد اهتم المجودون بهذا العضو اهتماماً لا بأس به ، وهو الأمر الذي حدا بالقسطلاني إلى أن يصفه بأنه المادة الأساسية للصوت ، معبراً بمقولته تلك عن تنبهه على إسهام هذا العضو في آلية التصويت[1].

٢- **القصبة الهوائية :**

تتألف القصبة الهوائية ((من حَلَقات غُضْرُوفية غير كاملة الاستدارة من الخلف بعضها فوق بعض ، وهذه الحلقات مكسوة بنسيج مخاطي والحلقة الغضروفية العليا من القصبة الهوائية كاملة الاستدارة وتعرف بالغُضْرُوف الحلقي))[2] .

وقد أشار المجودون إلى هذا العضو تحت مسميات عدة، منها تسمية " قصبة الحلق " التي ذكرها ابن البناء (ت ٤٧١ هـ) في معرض حديثه عن عيوب الأصوات بنصّ جاء فيه : ((وأما عيوب الأصوات التي يجب أن يتجنبها القارئ الجهر الصاعق والغض الزاهق ... ويحذر من التمضغ ، وهو تعريض الشدقين ، كالمتزّحِر[3] والضاحك المخافت ، واستراط[4]الريق ، وإخراج الصوت من قصبة الحلق مختلساً إلى الشفة))[5].

٣- **الحنجرة :**

تعدّ الحنجرة من أهم الأعضاء الصوتية التي تسهم في تحديد هوية الأصوات مخرجاً ووصفاً .

وتوصف الحنجرة بأنها عضو مكّون من ثلاثة غضاريف رئيسة ، وتشكّل تلك الغضاريف تجويفاً صوتياً مهماً في تحديد هوية الوصف الصوتي ، يضاف إلى ذلك إسهام الوترين الصوتيين في تحديد الكثير من صياغات النطق :صفة ومخرجاً[6].

وقد ورد ذكر هذا العضو عند ابن البناء أيضاً في معرض حديثه عن عيوب الأصوات الذي تقدم ذكره ، وقد تضمن نصّه الذي خصّه بوصف عيب " الترعيد " الصوتي .

---

١) ينظر : لطائف الإشارات : ١ / ١٨٣ .

٢) محاضرات في اللغة : ٨٧ ، وينظر : دراسة الصوت اللغوي : ٨٠ .

٣) الزحر في اللغة هو النهم والابتلاع ، ينظر الصحاح في اللغة ٦٣٢/١ .

٤) سَوطتُ الشيء بالكسر اسرطه سرطا، بلعته واسترطه ابتلعه ، ينظر الصحاح في اللغة ٢٢١/٢.

٥) بيان العيوب التي يجب أن يتجنبها القرّاء : ٣٧ – ٣٨.

٦) ينظر : حركات الحنجرة : د . جعفر ميرغني (بحث) : .

إذ عدّه من العيوب الخاصة بالأصوات ، و ((صفته تعليق الصوت بترديد الحَنْجرة ، كأنه يروم منزلة التطريب ، و الحَنْر في إفساد الحروف ، ومنع لمدرج الكلام من إمضائها على سواء))[1] .

٤- **الحلق :**

يراد بالحلق ، بحسب الوصف الحديث ، الفراغ الواقع بين الحنجرة والفم ،وهو بذلك يختلف عن فهم القدماء لها ، فالأمر الشائع الآن و الذي تقره الدراسات الحديثة هو أنّ منطقة الحلق موضع لإنتاج صوتين اثنين هما " الحاء " و " العين " ، بينما الدارسات العربية القديمة تجعل لها ستة أحرف أو سبعة وتقسمها إلى مواضع أو مخارج ثلاثة كل مخرج لصوتين أو ثلاثة[2] .

وقد تردد ذكر الحلق عند الكثير من علماء التجويد بوصفه عضواً أولياً في إصدار أعمق الأصوات في نظر جمهور علماء العربية –ولاسيما علماء التجويد والقراءة القرآنية[3].

٥- **اللهاة :**

تأتي اللهاة في نهاية الحنك اللين ، وتوصف بكونها عضلة صغيرة ، وظيفتها الرئيسة ((قفل طريق الهواء إلى الأنف ... أو فتح طريق الهواء [إليه]))[4].

وقد ورد ذكر هذا العضو كثيراً في كتابات المجودين وعلماء القراءة القرآنية ، لاسيما مكي بن أبي طالب(ت٤٣٧هـ) و أبو العلاء الهمذاني العطار(ت٥٦٩ هـ).

فقد وصفها الأول بأنها– أي اللهاة – ((بين الفم و الحلق))[5] ، وهو بذا يقترب من وصف المحدثين لها بأنها عضلة صغيرة بين الفراغ الفموي و الفراغ الحلقي .

أما أبو العلاء العطار ، فجاء على ذكرها في معرض حديثه عن الأصوات اللهوية ، إذ قال : ((واللهوية حرفان : القاف والكاف ، سُمّيا بذلك لأنهما من اللهاة، وهي اللحمة المسترخية كالزَّنَمة في أقصى الحلق ، تكتنفها النُّغنُغة ، وهي لحمة

---

١) بيان العيوب : ٣٨ – ٣٩ .

٢) ينظر :المصطلح الصوتي: ٢٧ .

٣) ينظر : التحديد : ٢٨ .

٤) محاضرات في اللغة : ٩٢ .

٥) الرعاية : ١٠٠.

في أصل الأذن من باطن ، والجمع نغانغ))[١] .

٦- **الحنك الأعلى :**

يتحدد هذا العضو بالحنك الأعلى من حنكي الإنسان ؛ ذلك أن الحنك الأسفل لا يكاد يسهم في آلية النطق الإنساني .

وقد وسم هذا العضو بتسميات أخرى،منها: سقف الفم ، وسقف الحنك،وغيرهما[٢] .

واستعمل المجودون مصطلح " الحنك الأعلى " ؛ جرياً على عادة علماء العربية في تسمية هذا العضو بهذا الاسم .

وممّن حدده وتحدّث عنه مكي بن أبي طالب ، ومن النصوص التي ورد ذكره فيها ، قول مكي : ((نطع الغار الأعلى وسقفه))[٣].

ويضم هذا العضو ، أعضاء تسهم في آلية التصويت لعلّ أهمها :

- اللثة .
- الغار .
- شجر الفم .

وتسهم هذه الأعضاء بإصدار جملة من الأصوات التي حملت أسماءها ، كالأصوات الشجرية والغارية واللثوية .

وقد ورد ذكر هذه الأعضاء في كتابات المجودين وعلماء القراءات ووصفهم، على نحو من التفصيل أو الإجمال[٤].

٧- **اللسان** : يعدّ اللسان من أهم الأعضاء المتحركة في تقسيم أعضاء النطق الإنساني ؛ لما يقدمه من وظائف صوتية جمّة،وهو الأمر الذي دفع الناطقين إلى استعماله للتعبير عن وسيلة تواصلهم كلّها ، فسمّي الكلام ومخزونه اللغوي بـ "

---

١) التمهيد في معرفة التجويد: ٢٧٨ .

٢) ينظر: علم اللغة : ١٤٢ ، علم اللغة العام " الأصوات " : ٧٠ .

٣) الرعاية : ٩٠ .

٤) ينظر : التمهيد : ٢٧٨ وما بعدها ، والمنح الفكرية : ١١ .

اللسان " ، وجاءت الكثير من الآيات القرآنية على وتيرة هذا الاستعمال ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (١) .

وتبعاً لهذه الأهمية لم يهمل المجودون اللسان في كتاباتهم ، بل سعوا لتبني ذكره لما يقدمه من وظائف مهمة في آلية إصدار الأصوات ، ولم يكتف الدارسون من المجودين والقرّاء بذكره ، بل سعوا إلى تصنيفه ؛ لتسهل عليهم مهمة تحديد أجزائه المسهمة في إصدار الأصوات ، وهي سنّة اتبعها علماء العربية قبلهم(٢) .

وقد اختصر بعض الدارسين الفم بلفظ اللسان ، فقد أشار إلى ذلك أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ) بقوله : ((إن مخارج الحروف ستة عشر مخرجاً . وهي دائرة على اللسان ثلاثة : الحلق والفم و الشفة ، ويقال : الحلق واللسان والشفتان ، والمعنى واحد))(٣).

٨- **الشفتان :**

لا تقل الشفتان أهمية في إصدار الأصوات عن سواها من أعضاء الجهاز النطقي ، بل تكاد تضا هي أغلبها ، وعلى هذا الأساس لم يُغفل علماء التجويد ذكرها في كتاباتهم .

ولعل أكثر المواضع التي يكثر فيها ذكر هذا العضو ، هو " الإشمام " ، نجد ذلك الحال عند عبد الوهاب القرطبي(ت٤٦١ هـ) في قوله : ((أما الإشمام فهو يشارك الرَّوم في أنه إبقاء جزء من الحركة لكن بعد قطع الصوت قبل الإتيان بهذا الجزء ، ولهذا تمحض لرؤية العين فأدركه المبصر دون الأعمى ، واختص به المرفوع والمضموم دون المكسور والمجرور والمفتوح والمنصوب ، لأن الضم من الشفتين ، وإذا أومأ بشفتيه نحوه أمكن الإيماء وأدركه الرائي ، وإن انقطع الصوت ، لأن الرائي يدرك مخرج هذه الحركة وهو الشفتان ، فأمكن أن يدركها ، أما المجرور والمكسور والمنصوب والمفتوح فإنما امتنع لأن الكسر ليس من الشفة ، وإنما هو من مخرج الياء ، ومخرج الياء من شجر الفم ، والنظر لا يدركه فلم يدرك حركته ، وكذلك الفتح من الألف ، و لا آلة للألف يدركها النظر ، لأن مخرجها من الحلق ، والرائي لا يدركه ولا يدرك حركته ، والصوت ينقطع

---

١) إبراهيم / من الاية ١٤.

٢) ينظر الكتاب : ٤ / ٤٣٣ ، وينظر : الرعاية : ١١١ وما بعدها ، والتمهيد : ٢٨٩ .

٣) إبراز المعاني : ٣ .

دون الشروع في هذا الجزء من الحركة فلم يبق للنظر و لا للسمع وصول إلى إدراكه فامتنع الإشمام فيه لذلك))[١] .

٩- الأسنان :

من الأجزاء المهمة في الجهاز النطقي الإنساني ؛ وذلك لما تسهم به من إسهامات مفصلية في إصدار عدد كبير من الأصوات المنطوقة .

ولم يكتف المجودون بذكرها فقط بل عملوا على وصفها ، ورصد عدّتها ، وإسهام كل مجموعة منها بإصدار الأصوات المنطوقة ، فضلاً عن إسهامها في صحة نطق الأصوات إذا كانت سليمة معافاة .

وقد أكد هذه القضية العطار (ت ٥٦٩هـ) بقوله : ((و لا سبيل إلى ما سقناه عن حمزة وأبي بكر بن مجاهد – رحمهما الله – إلاّ بالمواظبة على القراءة ، ورياضة اللسان والأخذ من أفواه أولي العلم والإتقان ، وإن انضاف إلى ذلك حسن الصوت وجودة الفكّ ، و ذرابة اللسان وصحة الأسنان كان الكمال))[٢] .

١٠- الخياشيم :

يسمي الدارسون المحدثون هذا العضو بـ " التجويف الأنفي " أو " الفراغ الأنفي " ، في حين يكاد يجمع القدماء على وسمه بـ " الخياشيم " [٣] .

وقد ورد ذكر هذا العضو عند المجودين وعلماء القراءات كثيراً خصوصاً في حديثهم عن النون بنوعيها : الأصلية و الخفيفة أو الخفية – كما يسميها بعض علماء العربية –[٤] .

ثانياً : الرسم التوضيحي :

إن الاستعانة بالرسوم التوضيحية ، بوصفها وسائل تقريبية يستعين بها العلماء والدارسون لتقريب الفكرة إلى الأذهان ، من معطيات تراثنا المعرفي ، وما الآراء القائلة بسبق الغربيين لنا إلاّ أوهام وجهل .

---

١) الموضح : ٢٠٩ – ٢١٠ ، وينظر : التحديد : ١٠٣ .

٢) التمهيد : ١٨٩ .

٣) ينظر :الكتاب : ٤ / ٤٤٧ ، و مخارج الحروف وأصواتها : ٨٠ .

٤) ينظر : والتحديد : ١٥٠، الموضح : ١٧٠ .

وقد أسهم علماء العربية في تثبيت هذه الآلية المعرفية في الدرس العملي ، من خلال متنين معرفيين من متون التراث العربي ، هما :

- البلاغة .
- التجويد والقراءة القرآنية .

ولعلّ الحقل المعرفي الأول هو الأسبق ، ذلك أن السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) هو أول من استعان بالرسم التوضيحي للجهاز النطقي ، لكن الذين تلوه هم علماء التجويد والقراءات .

وقد نّبه الدكتور غانم قدوري الحمد على هذه السابقة العربية بقوله:((وأقدم ما اطلعت عليه من تلك الرسوم عند علماء التجويد هو الرسم الذي أورده ابن وثيق الأندلسي (ت ٦٥٤ هـ) في كتاب له في علم التجويد ، فقد قال بعد أن ذكر حروف العربية : " وهذه صورة الحروف المتقدمة كما ترى : صورة ما بين الرأس متصل بأول اللسان " وأورد رسماً تخطيطياً مبسطاً يمثل الحلق واللسان والشفتين ، وكتب على أجزائه : صورة الحلق وحروفه ، هذا أول اللسان وحروفه ، الحنك الأعلى، والحنك الأسفل ، الشفة العليا ، الشفة السفلى ، مقدم الرأس ، العثنون ، وهو الّذَقَنُ، وقد وزع ابن وثيق(ت٦٥٤هـ) الحروف العربية على أجزاء هذه الصورة .

وكان السكاكي " يوسف بن أبي بكر (ت٦٢٦هـ) "وهو من علماء العربية، ومعاصر تقريباً لابن وثيق،قد أورد صورة لمخارج الحروف في كتابه " مفتاح العلوم " وهو الوحيد من بين علماء العربية الذي استعان بالرسم التوضيحي .

وهناك انموذجات أخرى من الرسوم التوضيحية في بعض الرسائل المتأخرة في علم التجويد . لعل أكثرها تدقيقاً الرسم الوارد في كتاب اسمه " أرجوزة البيان في حكم تجويد القرآن " لمحمد حسين الأصفهاني ، وهو متأخر ينقل عن خالد الأزهري "(ت ٩٠٥ هـ) " . فقد جاء في آخر الكتاب ، وهو نثر وليس نظماً كما يفهم من العنوان ، صورة لمخارج الحروف ، وهو على شكل مقطعين الأول يمثل اللسان وما يتصل به من الشفتين والأسنان ، والثاني يمثل الحلق . وقد كتبت على هذا الرسم كل أعضاء النطق ، مع الحروف التي تتكون عندها))[1] .

---

١) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد : ١٠٨ – ١٠٩ .

المبحث الثاني :

((مـــخارج الأصـــوات))

المخرج الصوتي . بأيسر تعبير . : هو المكان الذي يصدر منه الصوت ، ومن دون ذلك المكان لا يتحقق النطق ، فهو كمصدر الولادة .

ولهذه الأهمية لا تكاد تجد حقلاً من حقول الدراسة اللسانية يستغني عن هذا المبحث؛ لكونه الأساس المهم لفهم الظاهرة التواصلية الكبرى المعروفة بـ " اللغة " .

ومن بين الحقول المعرفية المهتمة باللسان الإنساني ، حقل التجويد والقراءة القرآنية، إذ اهتم المجودون و القّراء بهذا المبحث اهتماماً كبيراً ، ترجمته دراساتهم وكتاباتهم المتنوعة ؛ وقبل الخوض في تفصيلات الموضوع لا بد من الإشارة إلى أمرين مهمين ،هما :

١-تعرُّف المجودين على تنّوع المخارج الصوتية بين الخاصة و العامة ، وذلك من خلال الإسهام الرئيس في إصدار صوت بمفرده ، أو اشتراك أكثر من صوت في حيز التوليد الصوتي .

ويؤكد هذا التعّرف مدى الذهنية العلمية الحية لعلماء التجويد ، وذلك من خلال تنبههم على قضيةٍ تعدّ من معطيات الدرس اللساني الحديث .

وقد أشار محّمد بن أبي بكر المرعشي الملقّب بـ"ساجقلي زاده " (ت١١٥٠هـ) إلى هذا التنبه من خلال مصطلحي : المخرج الجزئي والمخرج المشارك أو الكلي .

ولم يكن " المرعشي " أول المشيرين إلى هذه القضية ، لكنه يعدّ أكثرهم وضوحاً في الشرح و التعليل ، ومن النصوص التي ألمح فيها إلى هذا التنبه قوله : ((أقول :تلفّظ حرف من مخرج آخر مشارك له في مخرج كلّي من المخارج السبعة عشر كتلفظ الدال في مخرج الطاء أو التاء أو بالعكس ممكن بتكلف يسير ، ولا يؤدي ذلك إلى تغيير الحرف عن حقيقته ما دام صفاته المميزة له باقية ، فهو ليس بحرام و لا مكروه تحريمي بل هو خلاف ما استحب لأنه تغيير يسير ، ولحن خفي لا يعرفه إلاّ مهرة أهل الأداء . وإنما عّين لكل حرف من الحروف المتحدة في المخرج الكلي مخرج جزئي لأن ذلك مقتضى الطبع المستقيم ، والكلام في المخارج على حسب استقامة الطبع لا على التكلف ... وأما إخراجه من مخرج آخر متميز عن مخرجه مع إبقاء صفاته المميزة له فإنه قد لا يمكن كإخراج الدال من مخرج العين وبالعكس ، وقد يمكن بتكلف كثير ، تختلف مراتب

كثرته باختلاف مراتب تقارب المخرجين وتباعدهما ، فإن كان بينهما قرب فهو لحن خفي يعرفه عامة أهل الأداء ، ولعلّه مكروه تحريمي كإخراج الراء من مخرج الطاء المهملة وبالعكس ، وإن كان بينهما بُعد كإخراج الدال المهملة من مخرج الذال المعجمة وبالعكس ، فهو تغيير كبير ولحن جلي يعرفه أهل الأداء وغيرهم فهو حرام))(١).

٢-تفصيل المجودين في موضوع الأصوات الأصول و الأصوات الفروع ، هذه القضية التي توقف عندها علماء العربية كثيراً ، لا سيما علماء النحو .

ولهذا الاهتمام معطيات ونتائج كثيرة في الدرس اللساني عند المجودين والقّراء ؛ ذلك أنهم أهتموا في دراستهم بموضوع السلامة النطقية و الأدائية في التلاوة و قراءة القرآن ؛ لأنهم يتعاملون مع نصّ مقّس عند المسلمين ، وهو القرآن الكريم .

ويعدّ المجودون و القّراء أنفسهم مسؤولين مسؤولية كاملة عن الحفاظ على سلامة الأداء للقرآن ، وذلك من خلال رصد علامة الصحة و الاعتلال في سبيل التأدية و القراءة .

ومن المؤكد أن هذا الموضوع من الموضوعات المفصلية المهمة في تحديد مقدمات أولية للأصوات الحسنة و المعيبة ، وكذلك في التمييز بين مستويات متنوعة في ثنائية (الحسن و القبح) ، بحيث يمكن استعمال الأصوات الحسنة كثيراً على نحو الضرورة لا الاطراد .

وعلى هذا الأساس سنقف عند موضوع المخارج الصوتية بمستوييها : الأصلي و الفرعي ؛ لتكون لبنة رئيسة في فهم الفكر الصوتي عند علماء هذه المدرسة .

أولاً : الأصوات الأصول :

لقد توقف المجودون وعلماء القراءات كثيراً عند مبحث المخارج الصوتية في مستواها الأصلي ، ؛ ذلك لأهميته الكبرى في تحديد المقدمة الأولى لتعريف المتعلم بوسيلة النطق الصحيح ، و كيفية إخراج الصوت من المخرج الفصيح الصحيح ، لذا جعل أبو عمرو الداني(ت ٤٤٤ هـ) هذا المبحث بمثابة القطب في علم التجويد(٢) .

وقد جاء وصف المجودين لهذا المبحث على وتيرتين رئيستين ، تحددتا بـ :

---

١) جهد المقل : ١٣٩ – ١٤٠ .

٢) ينظر : التحديد : ١٠٢ .

١- التفصيل من دون إجمال .

٢- التفصيل الذي يعقبه إجمال .

ونريد بالوتيرة الأولى أن يستعين العالم بوصف الأصوات وكيفية خروجها من مواضع إصدارها على نحو تفصيلي ، من دون أن يعقب ذلك الوصف عملية اختزال المخارج بعدّة قليلة من التسميات العامة .

أما الوتيرة الثانية فتتحدد بإجراء ذلك الاشتغال الهرمي ، بحيث يعقب التفصيل إجمال للمخارج الكثيرة بعدّة قليلة من تسميات المخارج المشتركة العامة .

وكانت الوتيرة الأولى هي الغالبة عند المجودين،لا سيما أبو عمر الداني(ت٤٤٤هـ) و عبد الوهاب القرطبي(ت٤٦٢هـ) و المرعشي(ت١١٥٠هـ) .

ولم يكن هؤلاء مبتدعين في ترتيبهم للأصوات ، بل كانوا مقلّدين لعلماء العربية ، و لاسيما سيبويه ، وهو أمر صرّح به عبد الوهاب القرطبي ، بقوله : ((فأما تحقيق ذواتها وذكر مخارجها وتبيين أجناسها وذكر مراتبها في الاطراد فنذكره على ما ذكره سيبويه – رضي الله عنه –وردّبه في نسخة أبي بكر مبرمان ، وتلاه أصحابه وغيرهم من المتأخرين عليه ، لأنه المعتمد .

... فنقول ، وبالله التوفيق : حروف العربية تسعة وعشرون حرفاً ... ولها ستة عشر مخرجاً ، فمن الحلق ثلاثة منها ، أقصاها مخرجاً الهمزة والألف والهاء ، إلاّ أن الألف لا معتمد لها ، ومن وسط الحلق مخرج العين والحاء ، وما فوق ذلك دانياً إلى الفم مخرج الغين والخاء .

ومن أقصى اللسان وما فوقه من الحنك مخرج القاف .

ومن أسفل من موضع القاف من اللسان قليلاً ، وأدنى إلى مقدم الفم وما يليه من الحنك الأعلى مخرج الكاف .

ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء ،إلاّ أن الياء تهوي في الحلق وتنقطع عند مخرج الألف .

ومن أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد ، وإن شئت أخرجتها من الجانب الأيمن وهو أصعب وأقل استعمالا ، وإن شئت من الأيسر ، ومن حافة اللسان من أدناها إلى مستدق طرفه من بينها وبين ما يحاذيها من الحنك الأعلى مما فويق

الضاحك والناب والرباعية والثنية مخرج اللام ، وهو الحرف المنحرف المشارك أكثر الحروف .

ومن طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا مخرج النون .

ومن مخرج النون غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلاً لانحرافه إلى اللام مخرج الراء . ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا العلى مصعداً إلى الحنك مخرج الطاء والدال والتاء . ومما بين طرف الثنايا السفلى وطرف اللسان مخرج الصاد والسين و الزاي . ومما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العلى مخرج الظاء والذال والثاء .

ومن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العلى مخرج الفاء .

ومما بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو غير أن الشفتين تنطبقان في الميم والباء ولا تنطبقان في الواو .

ومن الخياشيم مخرج النون الخفيفة ويقال الخفية ، أي الساكنة))[١].

ولا يكاد يخالف المجودون هذا الترتيب ، سوى أن بعضهم أضاف إليه الخلاف المنسوب إلى غيره من علماء العربية ، كالذي نجده عند المرعشي الذي فصّل هذا الموضوع وذكر أغلب الخلافات لا سيما المذكورة في كتب المجودين و علماء القراءات[٢].

أما المجودون الذين اتبعوا سبيل الوتيرة الثانية فقلّة ، وهو نهج استعان به بعض المتأخرين منهم ، ولعلّ رائد هذا النهج هو أبو العلاء الهمذاني العطار (ت٥٦٩هـ) .

ولعلّه اتبع هذه الوتيرة ؛ لبيان مقدرته التأليفية من خلال ابتداع مناهج مباينة للسابقين ، وكذا تنويع آلية الترتيب و مجاراتها لذائقة القراء ممّن تحب التفصيل أو الإجمال .

وقد لخّص منهجه هذا بقوله : (فأما مخارجها فستة عشر مخرجاً [ويأخذ بتفصيلها كتفصيل القرطبي الآنف ذكره ، ثم يقول بعد أن يستنفد تفصيله] :

وإذا ثبت ذلك فاعلم أن هذه الحروف جميعها يجمعها لقبان : المذلقة وهي ستة ، والمصمتة وهي ما عداها .

---

١) الموضح : ٧٧ – ٧٩ ، وينظر :الرعاية : ١٣٨ ،و التحديد : ١٠٢ – ١٠٤ ،و النشر : ١ / ٢٠٠ إبراز المعاني : ٥١٢ .

٢) ينظر: جهد المقل : ١٢٧ وما بعدها .

ومرجعها إلى ثمانية أحواز : حلقية ولهوية وشجرية ، ومذلقة ، وشفوية أو شفهية ، ونطعية ، وأسلية ، ولثوية))[1] .

ويأخذ بعد هذا الإجمال بإعادة توزيع الأصوات على وفق هذه التركيبة الجديدة لآلية الترتيب المخرجي .

ثانياً : الأصوات الفروع :

إنّ الجهاز النطقي عند الإنسان قادر على انتاج كمية كبيرة من الأصوات ذات الصفات و المخارج المتنوعة ، وما عدة الأصوات المتداولة بين الناس إلاّ نتيجة اكتفاء للناس بها ؛ لأنها لبّت حاجتهم ، وأشبعت خانات الاحتياج التي تتلخص في وسيلة التواصل .

وما الأصوات الفروع إلاّ لبنة من لبنات هذا التأكيد الذي أشرنا إليه في الفقرة السابقة ؛ لأن الأصوات الفروع هي أصوات لهجية نطقت بها بعض الألسنة التابعة لقبائل العرب ، ولم تخرج عن كونها أصواتاً تنّوعت بتنّوع آليات نطقها ، من خلال سعة الجهاز النطقي وقدرته على توليد أصوات إضافية عبر المخارج الرئيسة المعتمدة في توليد الأصوات القارّة و المتعارف عليها في التواصل اللساني .

وقد تنبه علماء العربية – ومنهم علماء التجويد و القراءة القرآنية – على ذلك التنوع المخرجي من خلال الاستعانة بالأصوات المعروفة في تداول الناطقين العرب ، ومن ذلك قول القرطبي : ((فهذه التسعة والعشرون حرفاً قد مضى ذكرها ، ثم تصير خمسة وثلاثين حرفاً بحروف هي فروع وأصلها التسعة والعشرون حرفاً ، وهي كثيرة مستحسنة ويؤخذ بها في قراءة القرآن وهي النون الخفيفة ، والهمزة التي بين بين ، وألف التفخيم يعني ألف الإمالة ، والشين التي كالجيم ، والصاد التي كالزاي ، وألف التفخيم التي ينحى بها نحو الواو في لغة أهل الحجاز نحو : الزكاة والصلاة))[2] .

وقد تعرض الكثير من الدارسين إلى وصف هذه الأصوات ، لكننا ننظر إلى هذه الأصوات من جهتين مهمتين ، تؤكدان حيوية الذهن الصوتي عند المجودين و علماء القراءات ؛ وذلك أنهم نظروا إلى هذه الأصوات من خلال :

---

١) التمهيد : ٢٧٧ – ٢٧٩ .

٢) الموضح : ٨١ ، وينظر : سر صناعة الإعراب :١ / ٥١ ، والرعاية : ٨٥ .

١- **المشافهة في وصف الصوت :**

إنّ التواضع على ترميز الصوت ، أو التعبير عنه بحروف كتابية ، مسألة مهمة في تقريب الفكرة إلى الناطقين على مختلف مستوياتهم الذهنية ، وقدراتهم الذكائية .

وعليه ، فإننا لا نجد أي ناطق عربي – إلاّ من ندر طبعه – لا يعرف معاني الرموز الدالة على الأصوات العربية المنطوقة .

لكنّ الناطقين بالعربية أهملوا وضع رموز معينة لتلك الحروف الفروع ، ولم يخصصوا كلّ صوت منها برمز كتابي خاص .

ولعلّ هذا الإهمال يعود : إلى النظرة الدونية التي نظر من خلالها علماؤنا إلى هذه الأصوات ؛ بوصفها نتاج التداول اللهجي ، ومولوداً هجيناً لنطق الأصوات الأصول .

وما دام الأمر كذلك ، يستحيل على الناطق أو القارئ التعرف على آلية تصويت تلك الأصوات ، أو تقليدها ، أو حتى تعلمها ، إلاّ من خلال المشافهة ؛ ذلك أنها أُهملت في التداول ، وغاب عنها الترميز الكتابي المقّرب لها من ذهنية القّراء .

وقد تنبه بعض علماء التجويد على هذه الخصيصة المهمة في موضـوع " الأصوات الفروع " ، من مثل العطار(ت٥٦٩هـ) ، الذي أشار إلى ذلك بقوله : ((و لا يوقف على حقيقة هذه الحروف – والحديث عن الأصوات الفروع –المتفرعة إلاّ بالشفاه))[١].

٢- **نسبية القبح و الحسن :**

لم يكن التعامل مع الأصوات الفروع على وتيرة واحدة من حيث قيمتها النطقية في التداول اللساني العربي ، بل جاء على وتيرتين من التعامل .

وينبع هذا التعامل المتفاوت من خلال ذائقة المستمعين العرب ، فضلاً عن الناطقين، لذا تعامل معها الدارسون و الناطقون تعاملين متضادين ، بحيث ُوصفتْ مجموعة منها بـ " الحُسْن " ، ووُصفتْ مجموعة أخرى بـ " القبح " .

وحتى وصف " الحُسْن " الملتصق بالمجموعة الأولى ، لم يكن مطلقاً ، بل هو حسن يقلّ عن الحسن الموجود في الأصوات الأولى ، ولولا ذاك لما ُعزلت هذه المجموعة من قائمة الأصوات الأصول ، لكن وسمها بالأصوات الفروع الحسنة ، من باب إعطائها الشرعية في التداول الفصيح إن احتاج إليها الناطق .

١) التمهيد في معرفة التجويد : ٢٧٧ .

لذا وصفت الأصوات الفروع الحسنة بـ " المستحسنة " ؛ لتأكيد تعليلنا السابق ، فهي ليست حسنة بالمعنى الدقيق ، بل هي مستحسنة في الاستعمال .

وعلى هذا الأساس تعامل الصوتي العربي مع المجموعة المستحسنة تعاملاً يناهض المجموعة المستقبحة ؛ لأن الأولى ((يؤخذ بها في القرآن وفصيح الكلام والشعر ، وهي : النون الخفيفة أو الخفية ، وهمزة بين بين ، والألف المفخّمة ، والألف الممالة، والشين التي كالجيم ، والصاد التي كالزاي))[1] .

في حين توصف الثانية بأنها ((مستقبحة ، لا يؤخذ بها في القرآن و لا في فصيح الكلام ، وإنما توجد في لغة ضعيفة ، وهي :

- الكاف التي بين الجيم والكاف .
- والجيم التي كالكاف .
- والجيم التي كالشين .
- والضاد الضعيفة .
- والصاد التي كالسين .
- والطاء التي كالتاء .
- والظاء التي كالثاء .
- الباء التي كالميم .
- وحكى الأخفش حرفاً تاسعاً وهو الذال التي كالثاء))[2] .

---

١) التمهيد في معرفة التجويد : ٢٧٥ ، وينظر : كتاب السبعة في القراءات : ١٠٦ ، و رسم المصحف :٣٣٠ .

٢) التمهيد في معرفة التجويد : ٢٧٦ – ٢٧٧ .

المبحث الثالث :

((الصــفات الصــوتية))

يتميز الصوت تمييزاً نهائياً من خلال التعّرف على مصدر نطقه المحدد بالمخرج الصوتي ، وكذلك بهيأته العامة و الخاصة والمحددة بصفاته الصوتية .

وتأسيساً على ما مّر ذكره ، يكون مبحث الصفات من المباحث المكملة لمبحث المخارج ؛ لكونهما مبحثين يحددان هوية الصوت النهائية .

لذا لا تجد دراسة مهتمة بالدراسة الصوتية ، ذات الُبعد التقديمي / التعريفي للسان أية أمة إنسانية ، إلاّ وتعرض لهذين المبحثين ، وانطلاقاً من هذه الأهمية اهتّم علماء العربية ، ولا سيما علماء التجويد و القراءات القرآنية بهما .

وما تعرضي لهذا المبحث إلاّ من باب إكمال لما بدأنا به من تقديم لهذه المدرسة الصوتية التابعة لتراثنا اللساني العربي .

وسنعرض مادة هذا المبحث في قسمين ، نعرض في الأول منهما :جهود المجودين وعلماء القراءة القرآنية حيال الصفات الصوتية العامة و الخاصة.

أما القسم الثاني ، فسنعرض فيه جهود المجودين و علماء القراءة القرآنية حيال فكرة جديدة أصّلوا لها ، وحالوا تطبيقها من خلال استقدام الانموذجات الحّية من التلاوات وأداء النصّ القرآني ، كلّ ذلك من خلال عرض فكرتهم حيال " الصفات المميزة و المحسنة " للنصّ و النطق .

أولاً : الصفات العامة والخاصة :

إنّ مادة هذا القسم تقليدية لا جديد فيها ، إلاّ بعض الاعتراضات أو التعديلات اللفظية على نصّ سابق ، سواء أكان لمجّود أو لعالم من علماء العربية .

وقد أشار علماء التجويد إلى الوظيفة التكميلية التي يقّدمها هذا القسم ، ذلك ((أن هذه الحروف تختلف أحكامها من حيث أن بعضها يجري معه الصوت وبعضها يمتنع جريه معه ، ومن حيث إنَّ بعضها أشدّ حصراً للصوت من بعض ، ومن حيث إن بعضها يتغير بتغير الحركات قبله ويتسع مخرجه حتى لا يتقطع الصوت عن استمراره وامتداده فينفذ حتى يفضي حسيراً إلى مخرج الهمزة فينقطع بالضرورة عندها حيث لم يجد منقطعاً ، ومن حيث جريان النَّفَس مع بعضها وامتناعه مع البعض ، وإشباع الاعتماد مع بعضها

وضعفه مع البعض ، إلى غير ذلك من الأسباب ، فانقسمت انقساماً من الهمس والجهر و الإشراب ، والقلقة والصحة والاعتلال والشدة والرخاوة والإطباق والانفتاح وغير ذلك))[1].

وعلى هذا الأساس ، عرض علماء التجويد للصفات الصوتية ، وفيما يأتي وصف عبد الوهاب القرطبي(ت٤٦٢هـ) لها ، مع تثبيت بعض الإحالات على كتب أخرى لتأكيد نسقية التقليد عند المجودين في هذا القسم ، وذلك عبر قسمين من السمات :

١- السمات العامة :

أ- **الجهر والهمس :**

قال القرطبي : ((معنى المجهور أنه حرف أشبع الاعتماد عليه في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت ... .

وأما المهموس فحرف ضعف الاعتماد عليه في موضعه حتى جرى معه النفس ... [وهي] عشرة أحرف : الهاء والحاء والخاء والكاف والشين والصاد والتاء والسين والثاء والفاء ، ويجمعها في اللفظ ستشحثك خصفة ، وقيل : سكت فحثه شخص . وباقي الحروف ، وهي تسعة عشر حرفاً مجهور))[2].

ب- **الشدة و الرخاوة :**

((معنى الشديد أنه حرف لزم موضعه ، فمنع الصوت أن يجري فيه [وهي] ثمانية أحرف ... الهمزة والقاف والكاف والجيم والطاء والدال والتاء والباء ... والرخو هو الذي يجري فيه الصوت ويمتد به ، و[هي ما سوى الحروف الشديدة و ما بين الشديدة و الرخوة] ...ومعنى بين الشديد والرخو أن يكون الحرف شديداً ويجري فيه الصوت ويمتد به ، و[هي]ثمانية أيضاً ... الألف والعين والراء واللام و الياء والنون والميم والواو))[3] .

ت- **الإطباق والانفتاح :**

ويراد بالصفة الأولى ((أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقاً له ، فينحصر الصوت فيما بين اللسان والحنك إلى مواضعهنَّ ، [وهي] أربعة أحرف ... الصاد والضاد والطاء والظاء ...

---

١) الموضح : ٨٧ .

٢) المصدر نفسه : ٨٨ ، وينظر : الكتاب : ٤ / ٤٣٤ ، والرعاية : ٩٢ ، والتحديد : ١٠٥ .

٣) المصدر نفسه : ٨٩ ، وينظر : الكتاب : ٤٣٥/٤ ، والرعاية : ٩٣ ، والتحديد : ١٠٥ – ١٠٦.

والانفتاح : أن لا تطبق ظهر لسانك برفعه إلى الحنك فلا ينحصر الصوت))[1]، والأصوات المنفتحة هي ما سوى أصوات الإطباق .

ث- **الاستعلاء والانخفاض :**

((ومعنى الاستعلاء أن يتصّعد الصوت بالحرف في الحنك الأعلى ، [وهي] سبعة حروف ... الخاء والغين والقاف والضاد والطاء والظاء والصاد ، وما عداها من الحروف منخفض .

ومعنى الانخفاض : أن لا يتصّعد الصوت بالحرف))[2] .

ج- **المذلقة والمصمتة :**

ويراد بالصفة الأولى : الأصوات التي اعتمدت على ذلق اللسان في توليدها ، وهي ستة : اللام والراء والنون والفاء والباء والميم .

أما الصفة الثانية فهي ما عدا هذه الأصوات ، وسميت بالمصمتة ؛ ((لأنها صُمت عنها أن تبنى منها كلمة رباعية أو خماسية معرّاة من حروف الذلاقة))[3] .

٢- السمات الخاصة :

أ- **الانحراف :**

((و من الحروف المنحرف ، وهو اللام ؛ لأن اللسان ينحرف فيه مع الصوت وتتجافى ناحيتا مستدق اللسان عن اعتراضهما على الصوت من تينك الناحيتن ومما فويقهما))[4] .

ب- **التكرار :**

تختص هذه الصفة بصوت الراء ، وسّميت هذه الصفة بالتكرار ؛ ((ذلك أنك إذا وقفت عليه – أي الراء – رأيت طرف اللسان يتعثر بما فيه من التكرار ، ويرتعد لما هناك منه))[5] .

---

١) الموضح : ٩٠ ، وينظر : الكتاب : ٤ / ٤٣٦ ، والتحديد : ١٠٦ .

٢) الموضح : ٩٠ – ٩١، وينظر : سر صناعة الإعراب : ٧١/١ ، والرعاية : ٩٩ ، والتحديد : ١٠٧ .

٣) الموضح : ٩٤ – ٩٥ .

٤) الموضح : ٩٢ ، وينظر : الرعاية : ١٠٧ .

٥) المصدر نفسه : ٩٢ ، وينظر : الكتاب : ٤ / ١٣٦ ، والتحديد : ١٠٨ .

ت- **القلقلة :**

ويراد بها الأصوات التي ((تحفز في الوقف وتضغط من مواضعها ... وهي القاف والجيم والطاء والدال والباء))[1] .

ث- **الهتّ :**

ويختصّ هذا الوصف بصوت الهاء ، ووصفت الهاء بأنها : مهتوتةً ؛ ((ذلك لما فيها من الضعف والخفاء))[2].

ج- **التفشي :**

ويسمى أيضاً ((المخالطة ؛ لأنها تخالط ما يتصل بها في طرف اللسان كالشين والضاد ، وذلك أن الشين تتفشى في الفم حتى تتصل بمخرج الضاد ، والضاد تتفشى حتى تتصل بمخرج اللام ... ومعنى التفشي انتشار الصوت بها عند النطق))[3] .

ح- **الجوف :**

ويختصّ هذا الوصف بأربعة أصوات هي أصوات : الهمزة مع أصوات المد واللين ، ((وسميت جوفاً لأن مخرجها لا معتمد له))[4] .

خ- **الجرس :**

يختصّ هذا الوصف بصوت الألف الساكنة ، ((ويقال لها أيضاً الهاوي لأن الفم ينفتح لها فتخرج بالنفس مستطيلة ، وتهوي في الفم إلى ما بين الهمزة والهاء من الحلق))[5].

د- **الخفية :**

سميت أصوات : الهاء والألف والياء والواو بالخفية ؛ ((لاتساع مخرجهن ، وأوسعهن مخرجاً الألف لأنه لا علاج على اللسان فيها كالنفس ، ثم الهاء ، ثم الياء ، ثم الواو . ومما يشرك هذه الحروف في الخفاء : النون إذا سكنت في غير إظهار ولا إدغام و لا قلب))[6] .

---

١) الموضح : ٩٣ ، وينظر : الرعاية : ١٠٠ .

٢) المصدر نفسه : ٩٤ ، وينظر : العين : ١ / ٥٢ .

٣) المصدر نفسه : ٩٦ ، وينظر : الرعاية : ١٠٩ و ٢٠١ .

٤) المصدر نفسه : ٩٦ ، وينظر : الرعاية : ١١٦ .

٥) المصدر نفسه : ٩٦ ، وينظر : تهذيب اللغة : ١ / ٥١ .

٦) المصدر نفسه: ٩٧ ، وينظر : الكتاب : ٤ / ١٢٣ و ١٦١ ، والرعاية : ١٠٢ – ١٠٣ .

ذ- **الصفير :**

سميت هذه الصفة بالصفير لأن أصواتها ، وهي الصاد والسين و الزاي ، تصدر عند تصويتها صوتاً يشبه الصفير ، ((وهي تنسل انسلالاً))[١] .

ر- **المستعينة :**

سميت العين بالمستعينة ؛ لأن المتكلم يستعين ((عند لفظه به بصوت الحاء ، والميم والنون المتحركة يستعان عليهما بصوت الخياشيم))[٢] .

ز- **الراجع :**

سميت الميم بالصوت الراجع ؛ ((ذلك أنها ترجع إلى الخياشيم بما فيها من الغنّة))[٣] .

س- **الغنة :**

تتحدد صفة الغنّة بالنون والميم ، ويراد بها الصوت الصادر عن الخيشوم[٤] .

ش- **المصوِّتة :**

تتحدد المصوتات بـ ((الألف و الواو والياء ، وإنما سميت مصوتة لأن النطق بهن يصوّت أكثر من تصويته بغيرهن ؛ لاتساع مخارجهن وامتداد الصوت بهن))[٥] .

ثانياً : الصفات المميزة المحسنة :

انفرد المجودون بهذه الفكرة من بين علماء العربية الذين تعرضوا إلى البحث الصوتي في اللسان العربي .

وقد سبقني في الإشارة إليها كلّ من د. غانم قدوري الحمد ، وبعده الباحث مشتاق عباس معن الذي توقف عندها ناقداً ومصححاً لكثير من الآراء التي أدلى بها الدكتور الحمد .

وتعود هذه الفكرة – بحسب تقدير د. الحمد –إلى المتأخرين من علماء التجويد ، وبالتحديد إلى الحسن بن قاسم المرادي (ت ٧٤٩ هـ) ، وتتحدّد هذه الفكرة ، بأنّ

---

١) الموضح : ٩٧ ، وينظر : المقتضب : ١ / ١٩٣ ، والتحديد : ١٠٧.

٢) المصدر نفسه : ٩٧ .

٣) المصدر نفسه : ٩٧ ، وينظر : الرعاية : ١١٢ .

٤) المصدر نفسه : ٩٧ ، وينظر : الكتاب : ٤ / ٤٣٥ ، والرعاية : ١٠٦ .

٥) المصدر نفسه : ٩٧ – ٩٨ ، وينظر : الخصائص : ٣ / ١٢٥ .

الصفات المميزة تعمل على ((تمييز الحروف المشتركة في المخرج لأن المخرج للحرف كالميزان تعرف به كميته ، والصفة له كالناقد يعرف بها كيفيته ، ولولا ذلك لكان الكلام بمنزلة البهائم التي لها مخرج وصفة واحدة فلا تفهم))[١] ، وتضم((الجهر والهمس والشدة والرخاوة والتوسط بينهما ، والإطباق والانفتاح والاستعلاء والاستفال ، والذلاقة الإصمات))[٢] ، أما الصفات المحسنة ، فهي الصفات التي تفيد في ((تحسين لفظ الحروف المختلفة المخارج .ويفهم من قولهم محسنة أن الصفة تعطي الصوت جرساً خاصاً دون أن يكون ذلك سبباً للتمييز بينه وبين الأصوات الأخرى))[٣]،وتضم كلا من((القلقلة،والصفير ،والغّنة ، والانحراف ، والتكرير ، والاستطالة ، والتفشي))[٤]

وقد حاكم الباحث مشتاق هذه الفكرة من خلال رصد معيارين مهمين للتمييز بين اشتغال هاتين الصفتين ، وهما :

١- أنها تهتم باشتراك الأصوات في المخرج واختلافها فيه .

٢- أنها تعتمد على فكرة التضاد بين الصفات ، فما له ضدّ يدخل ضمن الصفات المميزة ، وما ليس له ضدّ يدخل في الصفات المحسّنة[٥] .

فمن خلال اعتماد هاتين الملحوظتين يمكن الإشكال على الفكرة بأمرين :

الأول : إن قولنا ؛ صفات مميزة تعني أنها تميز الصوت ، ومحسّنة تعني أنها تحسنه ، والعكس ليس صحيحاً لكننا لو قلبنا هذه الصفات لوجدنا أن من الصفات المميزة ما هو محسّن ، ومن الصفات المحسنة ما هو مميز ، فالأصوات " ل ، ر ، ن " ،على سبيل المثال ، أصوات ذات صفات محسّنة – بحسب المفهوم القديم – لكننا لو حاولنا التمييز بينها باعتماد المفهوم القديم نفسه لما استطعنا ذلك ، لأنهن مجهورات ومتوسطات ومنفتحات ومستفلات ومن الأصوات الذُلق ولا يمكن التمييز بينها إلاّ باعتماد الصفات المحسنة – المفهوم القديم – ، أما الجهر فهو من الصفات المميزة ،له سمة محسّنة ، إذ إنها تضفي ملمحاً رنينياً ، فإن الغّنة سمة جمالية للصوت تحسّن النطق به ، ومميزة أيضاً

---

١) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد : ٢٣١ .

٢) المصدر نفسه : ٢٣٢ .

٣) المصدر نفسه : ٢٣٧ .

٤) المصدر نفسه : ٢٣٢ .

٥) أنماط صفة الغنة وقيمتها التمييزية: ١٧(بحث) .

، و بذا تكون "الصفات ؛ التكرير والانحراف والغنّة " صفات محسنة / مميزة ، و " الجهر صفة مميزة محسنة " ، إذن ؛ يمكن للتداخل أن يحلّ بين الصفات ، وهو الأمر الذي حصل مع د. غانم قدوري نفسه في حديثه عن " الإطباق والاستعلاء " اللذين وصفهما بأنهما من الصفات المميزة – في النصّ المشار إليه سالفاً – لكنه فرّق بينهما في الكتاب نفسه بنصّ جاء فيه : " ... هناك فرق بين صفة الإطباق وصفة الاستعلاء هو : إن الأولى من الصفات المميزة وإن الثانية من الصفات المحسّنة" ، وسبب هذا التناقض والتداخل الحدود التي وضعها القدامى وأيدهم الدكتور فيها .

الثاني : تعتمد فكرة الصفات المميزة والمحسنة أكثر ما تعتمد على فكرة التضاد في الصفات – كما نوّه به سلفاً – وهي فكرة لا تصلح دوماً للتفريق بين الأصوات ، فهناك صفات يتصف بها صوت أو مجموعة صغيرة تكون مميزة أكثر من المميزة – بحسب المفهوم القديم – كما ذكر في النقطة الأولى ، فضلاً عن أنّ القول بتخصيص الصفات المميزة بالأصوات ذات المخرج الواحد ، وتخصص الصفات المحسنة بالأصوات ذات المخارج المختلفة ، لا تطرد في جميع أصواتها فالأصوات " ر ، ل ، ن " من مخرج واحد مع ذلك وضعت صفاتها " التكرير و الانحراف والغنّة " مع الصفات المحسنة ، وكذلك أصوات الصفير التي يقول فيها المبرد (ت ٢٨٥ هـ) ؛ ((... ومن طرف اللسان وملتقى الثنايا حروف الصفير ، وهي حروف تنسلّ انسلالاً ، س ، ص ، ز))[1].

وبذا تضرب الأركان التي تعتمدها الفكرة وهي " فكرة تضاد الصفات واشتراك المخرج واختلافه " فضلاً على حدود القسمين التي بيّن تداخلهما سلفاً لذا يرى الباحث أن يُوجَّه هذان المصطلحان وجهة جديدة مفادها :

١- تقسّم الصفات : صفات ذاتية خاصة ، وصفات عامة ، ويقصد بالأولى : الصفات التي يتصف بها صوت أو أكثر ، ويقلّ عدد أصواتها عن عدد أصوات الصفات العامة ويلجأ إليها كثيراً لتمييز صوت من صوت مثل " الغنّة والانحراف والتكرير وما إلى ذلك " ويقصد بالثانية : الصفات التي تشترك فيها الأصوات قاطبة إلاّ ما ندر مثل الجهر والهمس ، فالصوت اللغوي لا يخلو أن يكون مجهوراً أو مهموساً ، ويشذّ عن ذلك صوت – إلاّ

---

١) المقتضب : ١ / ١٩٣ .

في موارد ضيقة – مثل الهمزة بحسب الرأي القائل بأنها ليست بمجهورة ولا مهموسة .

٢- أن لا يوضع مصطلح " الصفات المحسّنة "قسيماً لـ " الصفات المميزة ((لأن الصفات نادراً ما تكون محسّنة فحسب ، ولفكّ هذا التداخل يذوب مصطلح " الصفات المحسّنة " في مصطلحي الصفات العامة و الذاتية المميزة الخاصة))[1] .

---

١) ينظر: أنماط صفة الغنة وقيمتها التمييزية : ١٧ – ١٩ (بحث) .

المبحث الرابع :

((الأحكام التعاملية و الظواهر الصوتية))

إنّ الأصوات لا تقدّم وظيفة تواصلية – وإن كانت المادة الرئيسة لها – من دون أن تتحول من المستوى المجرد المنعزل ، إلى المستوى المادي المتصل ، أي أن تدخل في سياقات صوتية منطوقة ؛ للتعبير عن المعاني المرادة من التواصل .

وما دام التجاور حاضراً في السياقات الصوتية ، والأصوات ذات سمات صوتية و مخارج متنوعة : متقاربة ومتوسطة و متباعدة ، سيحصل – من دون أدنى شكّ – تأثر وتأثير بين الأصوات ، وعلى مديات مختلفة من التأثر أو التأثير .

وقد رصد علماؤنا القدامى هذا التعامل الصوتي بين الأصوات ذات السياقات الصوتية المتقاربة في البنية و النطق ، وأنتجوا بذلك الكثير من المصطلحات و المفاهيم المعّبِرة عن اشتغال تلك المصطلحات ، بوصفها وسائل لنقل النظرية إلى حيز الإجراء ، وتقريب الفكرة إلى أذهان القرّاء من خلال رصد الانموذجات الخاصة بكل تعامل .

ويأتي هذا التعامل على ضربين : ضرب لتخفيف الثقل الموجود في النطق ، وضرب لزيادة الخفّة في النطق الخفيف الحاضر في سياق النطق الصوتي .

ومن ذلك : ((أنّ الفرّاء ذكر تاء افتعل إذا كان فاء الفعل من حروف الإطباق ، وإنما قلبت طاء ؛ لأن التاء حرف أخرس لا يخرج له صوت ، إذا بلوت ذلك وجدته ، فكرهوا إدغام مصوّت في حرف أخرس ، فلمّا فاتهم الإدغام وجدوا الطاء معتدلة في المخرج بين التاء والدال ، لتكون غير ذاهبة بواحد من الحرفين .

قال أبو سعيد : هذا كلام غير صحيح ، لأن التاء إنما صار أخرس لأنه يلزم مكانه ولا يجري فيه الصوت ، والطاء مثله في الشدة ، أو أشدّ ، وكذلك الدال ، وهما في الخرس مثل التاء ، لأن الطاء والدال يلزمان مكانهما ولا يجري فيهما الصوت إذا قلت : إط ، وإد ، كما لا يجري في قولك : إت فإن كان إنما أُزيل التاء للخرس فلا ينبغي أن يجعل مكانه حرف مثله في الخرس ، وقال سيبويه : إنما أتوا بالطاء مكان التاء مع حروف الإطباق التي هي الصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء ، لأن الطاء من حروف الإطباق ، وهي من مخرج التاء،فجعلوها مكان التاء لموافقتها حروف الإطباق .

وقوله : فلما فاتهم الإدغام وجدوا الطاء معتدلةً في المخرج بين التاء ، والصاد والضاد ، فإن التاء من مخرج الطاء والدال ، وإنما بينها وبين الطاء والدال أن التاء مهموسة غير مطبقة ، والطاء والدال مجهورتان ، والطاء مطبقة))[1].

ولا يأتي التعامل الصوتي بين أصوات السياق الصوتي الواحد على نحو التأثر والتأثير فقط ، بل يتعداه إلى جملة أحكام أخرى تتفاوت فيها بوادر التعامل الصوتي بين الأصوات المتجاورة .

ولصعوبة رصد ذلك التعامل الحاصل بين الأصوات المتجاورة ، أو انعدامه ، عدل العلماء من دراستها ضمن دائرة الأحكام ، إلى دائرة الظواهر ؛ بوصفها علامات نطقية واضحة ومتكررة في النطق بنحو يفوق مسيرة الأحكام التعاملية ، يضاف إلى ذلك أنها لا تقوم على أساس التأثر والتأثير الواضحين بين أصوات السياق الصوتي الواحد .

وعلى هذا الأساس تولّد لدينا مجموعة من التعاملات الصوتية في السياقات الصوتية ، بحيث ينبع أحدها من التأثر والتأثير بين أصوات السياق الواحد ، في حين ينبع الثاني من خلال موقعية الصوت و ما يتطلبه من أداء نطقي بعيداً عن تأثير المجاورات في السياق الصوتي الذي يقبع فيه ذلك الأداء .

وغالباً ما تتعلق الظواهر الصوتية بثلاثة معايير :

- معيار الكمية .
- معيار الوضوح .
- القطع النطقي .

بحيث تجد بعض الأداءات الصوتية تقوم على أساس الكمية الصوتية المنطوقة في إصدار ذلك الصوت ، وغالباً ما يتعلق هذا الأمر بالصوائت : صغيرها ومتوسطها وطويلها .

أما الثاني فيتعلق بوضوح الصوت من جهتي الأداء والسمة الصوتية ، وغالباً ما يؤدي هذا الأمر إلى التداخل بين نطق الأصوات ، بحيث تندمج السمات لتصدر صوتاً هجيناً غير واضح الملامح ، ويتحدد هذا الأداء ببعض الظواهر الصوتية المعروفة عند المجودين كالإشمام مثلاً .

---

١) ما ذكره الكوفيون من الإدغام : ٦٣ – ٦٤ .

أما المعيار الثالث فيتحقق بوسيلة استمرارية الأداء النطقي للصوت أو قطعه ، و يتفاوت مدى القطع ذاك بين أداء وآخر ، ويتعلق هذا المعيار بظاهرة الوقف الصوتي وما يتفرع منها .

أولاً : الأحكام التعاملية :

يتحدد هذا الأداء الصوتي بحضور حالتي : التأثر والتأثير بين أصوات السياق الصوتي ، ويؤدي هذا الأداء إلى واحد من أمرين :

أ- **إذابة بعض الأصوات بسبب التعامل :كلياً أو جزئياً .**

ب- **إضفاء بعض السمات الصوتية التي لم تكن موجودة قبل التعامل .**

وقد تنبه القدامى إلى هذين الأمرين ، فعبرا عن الإدغام مثلاً بالإذابة أو ما يقاربها ، كتعريف المرعشي له : بأن ((الإدغام : أن تأتي بحرفين ساكن ومتحرك من مخرج واحد من غير فصل بينهما ، على أن يصيرا حرفاً واحداً مغايراً لهما بهيئته وهو الحرف المشدد ، وزمانه أطول من الحرف الواحد المخفف ، وأقصر من زمان الحرفين المخففين))[١].

ومن انموذجات الأمر الثاني ما يعرف بالإدغام الناقص ، فالإدغام ((ينقسم تام إلى وناقص ، لأن الحرف الأول إن أدرج في الثاني ذاتاً وصفة بأن يكونا مثلين أو متقاربين ، لكن انقلب ذات الأول إلى ذات الثاني ، وصفته إلى صفته ، فالإدغام حينئذٍ تام مثل إدغام مدّ ... ، وإن أدرج الحرف الأول في الثاني ذاتاً لا صفةً بأن كانا متقاربين ، فانقلب ذات الأول إلى ذات الثاني ، ولم تنقلب صفته بأن بقيت في التلفظ ، فالإدغام حينئذٍ ناقص ، والصفة الباقية من الحرف الأول إما غنّة ، ...وإما إطلاق ...وإما استعلاء))[٢]، ومن خلال هذا التعامل تضفي صفات على بعض الأصوات لم تكن موجودة من قبل التعامل ، مثل الغنّة التي تلحق بالياء إثر تعامل الثانية مع النون ؛ لـ ((أن الملفوظ في " من يؤمن "ياء ذات غُنّة))[٣].

وعلى هذا الأساس سنعرض لأحكام الأصوات بحسب وجهة نظر علماء التجويد، مع مراعاة هذين الأمرين :

---

١) جهد المقل : ٧٢ .

٢) المصدر نفسه : ٧٢ – ٧٣ .

٣) المصدر نفسه : ٧٣ .

حكام النون الساكنة والتنوين :

تعدّ الأصوات المتوسطة من أكثر الأصوات تردداً في سياقات النطق اللساني بين بني البشر – لا سيما العرب منهم – ، ولما كانت الميم و النون من أصوات هذه المجموعة الصوتية ، اقتضى ترددهما في أبنية التواصل اللساني .

ويسمي علماء العربية هذين الصوتين بصوتي : الغ ّنة ؛ ذلك أنهما يتصفان بهذا الوصف الصوتي .

ومن المعروف أن الأصوات إذا تجاورت في سياقات متواصلة أو متقاربة لكنها منفصلة ، تشتغل آلية التأثر والتأثير بين أصواتها المشكّلة لبنية تلك السياقات .

ومن المعروف أيضاً : أن هناك جملة سمات صوتية ، وجملة أصوات ذات مخارج معينة ، هي التي تتعامل فيما بينها في السياقات آنفة الذكر ؛ لئلا يعّم الحكم جميع الأصوات فتغيب السمات الثابتة ، وتعّم التغيرات في أداء الأصوات ، فنضّيع المعيار الرئيس لقياس مدى التأثر والتغير في نطق الصوت .

وكانت الغن ّة وصوتاها من أكثر الأصوات و السمات الصوتية تعاملاً مع غيرها من الأصوات المجاورة في سياق صوتي واحد متصل أو مقارب منفصل .

وتباينت آلية التأثر والتأثير بين أصوات السياق الصوتي و صوتي الغن ّة ، بين التغييب الكامل أو الجزئي ، فضلاً عن إضفاء بعض السمات الصوتية التي لم تكن موجودة قبل التعامل .

وعلى هذا الأساس ، عزل علماء التجويد النون و التنوين بأحكام خاصة ، وبباب خاص سّمي بـ " أحكام النون الساكنة والتنوين " فقالوا: ((اذا التقت النون الساكنة والتنوين هو نون ساكنة أيضا تلحق اخر الاسم لفظا لا خطا))[1] .

وفيما يأتي عرض ميّسر لهذه الأحكام :

أ- **الإظهار :**

لغةُ : البيان واصطلاحا: اخراج كل حرف من مخرجه من غير غنة او اشمام حرف اخر او اقلاب او قلقلة او تشديد ، وتظهر النون الساكنة في حالتين . الاولى :عند الوقوف عليها ، والثانية : عند التقائها بأحد حروف الحلق التي تسمى

---

١) نظرات في علم التجويد : ٧١ .

حروف الاظهار النوني وهي (الهمزة ، والهاء ، والعين ، والحاء ، والغين، والخاء) وقد جمعت في أوائل كلمات الشطر الاتي : أخي هاك علما حازه غير خاسر ، وذهب السيوطي الى القول بأن بعضهم يخفي عند الغين والخاء ،ولعله اراد بذلك ان هذا من العيوب التي يقع فيها بعض القراء[١] .

والاظهار حالة من حالات أداء النون الساكنة و التنوين في سياقات صوتية خاصة يجاوران فيها أصوات محددة ، بحيث يسبقانها ، وهي الهمزة والهاء والعين و الحاء ، مع خلاف حول صوتي الغين و الخاء ، وتتحدد هذه الحالة الأدائية بإظهار صفات النون الساكنة و التنوين من دون أدنى تأثر بسمات الأصوات تلك [٢] .

أما عبد الوهاب القرطبي فعّمم هذا الحكم على الأصوات جميعاً ، ضمن قيود معينة ؛ لأن الإظهار ((حكم يجب عند اجتماع حرفين تباعدا ، إما في المخرج أو في الخاصية))[٣].

ومن أمثلة هذا الحكم قوله تعالى:﴿ مَنْ آمَنَ ﴾[٤] ، و ﴿ وَيَنْهَوْنَ ﴾[٥] ، و ﴿ أَنْعَمْتَ ﴾[٦] ،و﴿ مَنْ حَادَّ اللَّه ﴾[٧]،و﴿ مِنْ غِلٍّ ﴾[٨]،و﴿مِنْ خَيْل ﴾[٩] .

ب- الإخفاء :

الإخفاء لغة، الستر ،واصطلاحا، النطق بالحرف بصفة بين الإظهار والإدغام عار من التشديد مع بقاء الغنة في الحرف الأول (أي النون الساكنة والتنوين) والحجة

---

١) ينظر : الإتقان :١/٩٨ .
٢) ينظر : الرعاية : ٢٣٦ وما بعدها ، والإقناع :١/٢٥٤ ، والنشر :١/٢٢٢ و٢/٢٦ .
٣) الموضح : ١٥٧ .
٤) البقرة ٦٢ .
٥) آل عمران : ١٠٤ .
٦) الفاتحة : ٧ .
٧) المجادلة ٢٢ .
٨) الأعراف : ٤٣ .
٩) الحشر : ٦ ، وللمزيد من التوسع ينظر : السبعة : ابن مجاهد : ١٢٥ ، و الإقناع : ١/٢٥٣ ، والتيسير: الداني : ٣٥ – ٣٦ .

لاخفائهما أي النون الساكنة . عندهن . يعني حروف باخفاء الخمسة عشر (١٥) أنهن لم يبعدن عنهما بعد الحروف الحلقية فيجب الاظهار ، ولم يقربن قرب حروف يرملون او يماثلهن كالنون فيجب الادغام فأعطين حكما متوسطا بين الاظهار والادغام وهو (الاخفاء) ويكون تارة الى الاظهار أقرب وتارة الى الادغام اقرب ، وذلك على حسب بعد الحرف منهما وقربه ، والفرق بين الاخفاء والادغام ان الاخفاء لا تشديد معه باخلاف الادغام .

والاخفاء حالة أدائية تخصّ : النون الساكنة و التنوين ، ويراد بها ((إذهاب النون و التنوين من اللفظ وإبقاء صفتهما التي هي الغنّة))[١].

ويستمر المرعشي في البحث عن وسيلة يمكنه من خلالها إعطاء صورة محددة لهذه الظاهرة الصوتية ، فيقول : ((واعلم أن الإخفاء على ثلاث مراتب ، يتوقف بيانها على تقديم مقدمة هيأن الغنّة صفة النون الساكنة وأثرها الباقي عند إخفاء ذاتها، فمعنى صغر إخفاء النون : كبر أثرها الباقي ، ومعنى كبر إخفائها : صغر أثرها الباقي ، إذ ذاتها معدومة عند الإخفاء على كل حال))[٢] .

وفي ضوء هذه المقدمة جعل حروف الإخفاء على ثلاث مراتب ، فيقول : ((حروف الإخفاء على ثلاث مراتب : أقربها مخرجاً إلى النون ثلاثة : الطاء والدال والتاء المثناة الفوقية،وأبعدها : القاف والكاف والباقي المتوسطة في القرب والبعد))[٣]

ثم وضّح لنا مراتب هذه الحروف بقوله :((وبالجملة أن مراتب الحروف ثلاث، فإخفاؤها عند الحروف الثلاثة الأول أزيد وغنّتهما الباقية قليلة ، بمعنى : إن زمان امتداد الغنّة قصير ، وإخفاؤهما عند القاف والكاف أقلّ ، وغنتهما الباقية كثيرة ، بمعنى: أنّ زمان امتدادهما طويل ، وإخفاؤهما عند بواقي الأحرف متوسط ، فزمان غنّتهما متوسط ، ولم أَر في مؤلّف تقدير امتداد الغنّة في هذه المراتب))[٤].

---

١) جهد المقل : ٧٤ .

٢) المصدر نفسه : ٧٥

٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

٤) جهد المقل : ٧٥ .

ومما تقدّم يمكننا القول أن المرعشي قدّم بحثاً متميزاً عن موضوع الإخفاء ، فالقوانين الصوتية التي أرسى عليها ظاهرة الإخفاء ، جديرة أن ينظر إليها بالأصالة والتميّز .

وحاول عبد الوهاب القرطبي توسيع مفهوم الإخفاء – كعادته – ، من خلال توصيفه له بأنّه ((حكم يجب عند اجتماع حرفين أخذا حالاً متوسطة بين المباعدة في ذينك والمقاربة ، وسبق أحدهما بالسكون ،كقوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ ﴾[1]، ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[2] ، و﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ ﴾[3] ، وما أشبه ذلك وحقيقته السترة ، لأن المخرج يستتر بالاتصال))[4].

ت- الإدغام :

إنّ أكثر الدراسات تفصيلاً لهذا الحكم التعاملي ، هي دراسات المجودين و علماء القراءات القرآنية ، ذلك لأنهم يتعاملون مع كتاب الله الذي يجب أن يؤدى على الوجه الصحيح ؛لأن تعاملهم ذاك يفضي إلى أحكام شرعية حساسة تدخل في الحلال والحرام .

لذا تجد دراساتهم ثرّة في هذا الباب ، وتفصيلاتهم دقيقة جداً ، وعليه جعلوا الإدغام على ثلاثة تقسيمات :

القسمة الأولى : الإدغام الكبير والصغير :

إن مفهوم الإدغام الأصغر ، هو مفهوم التعامل العام المعروف بالإدغام ، أي إدخال صوت في صوت آخر بمستويات متفاوتة من الإدخال و الإذابة .

لكن أبا عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ) وضع نوعاً آخر من الإدغام ميّزه عن الأول بقيود محددة ، فالإدغام ((لغةً : إدخال الشيء في الشيء ، واصطلاحاً : رفعك اللسان بالحرفين رفعةً واحدة ، ووضعك إياه بهما موضعاً واحداً وهو لا يكون إلاّ في المثلين أو المتقاربين ، وينقسم الإدغام إلى قسمين : صغير وكبير .

---

١) مريم : ٧٥ .

٢) الانشقاق : ٢٤ .

٣) الشورى : ٤٣ .

٤) الموضح : ١٥٧ .

أما الإدغام الصغير فهو ما كان فيه أول المثلين أو المتقاربين ساكناً . ويقع في كلمة أو في كلمتين ، وله أحكامه الخاصة المذكور في مظانها .

وأما الإدغام الكبير فهو الواقع في كلمة أو في كلمتين ، ويكون بين متماثلين أو متقاربين متحركين . ويتّم في المتماثلين بحذف حركة الأول " بتسكينه " ، ويتّم في المتقاربين بتحويل الأول منهما إلى صوت من جنس صاحبه ، وبحذف حركة الأول " بتسكينه " .

وسّمي كبيراً لكثرة وقوعه ، وقيل : لتأثيره في إسكان المتحرك قبل إدغامه ، وقيل : لما فيه من الصعوبة ، وقيل : لشموله نوعي المثلين والمتقاربين . والغاية من الإدغام هي التخفيف ، وهو من كلام العرب المختار ، قال أبو عمرو بن العلاء : الإدغام كلام العرب الذي يجري على ألسنتها ، ولا يحسنون غيره .

وللإدغام الكبير أحكامه الخاصة التي تجيز أو تمنع تحققه . ...

وقد نُسب الإدغام الكبير في القرآن إلى أبي عمرو بن العلاء ، وفي ذلك يقول الشاطبي :

ودونك الادغام الكبير وقطبه أبو عمرو البصري فيه تحفّلا

فمداره على أبي عمرو ، وهو منقول عن جماعة كالحسن وابن محيصن والأعمش إلاّ أنه اشتهر عن أبي عمرو فُنسب إليه ، وقد تحقّق أبو عمرو في أمر الإدغام من جميع حروفه ، ونقله والاحتجاج له .

وكلّ من ذكر الإدغام الكبير ورواه لا بدّ أن يذكر معه إبدال الهمز الساكن ، كما ذكر من لم يذكر الإدغام الكبير إبدال الهمز الساكن مع الإظهار . وقد ثبت عن أبي عمرو بن العلاء مع الإدغام وعدمه ثلاث طرق : الإظهار مع الإبدال ، والإدغام مع الإبدال ، والإظهار مع الهمز ،. وانفرد الهذلي بذكر طريقة رابعة، وهي الإدغام مع الهمز ، ولم يجزها أحد من المحققين))[1].

ومن أمثلة الإدغام الكبير في الصوتين المتماثلين :

---

١) الإدغام الكبير : ١٣ – ١٤ .

((أ– في كلمة : لم يدغم أبو عمرو من المتماثلين إلاّ الكاف في الكاف ، في موضعين لا غير ، وهما قوله تعالى : ﴿ مَّنَاسِكَكُمْ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾[2].

ب . في كلمتين : كان أبو عمرو يدغم الأول في الثاني ، سواء أسكن ما قبل الأول أو تحرّك ، في جميع القرآن عدا المواضيع الآتية :

١- إذا كان الأول من المثلين مشدّدا كقوله : ﴿صَوَافَّ فَإِذَا﴾[3] وشبهه .

٢- إذا كان الأول من المثلين منوناً ،كقوله:﴿ مِنْ أَنصَارٍ * رَّبَّنَا ﴾[4] وشبهه.

٣- إذا كان الأول من المثلين تاء الخطاب ، كقوله : ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ﴾[5] وشبهه .

٤- إذا كان الأول من المثلين تاء المتكلم،كقوله:﴿كُنتُ تُرَابًا﴾[6]وشبهه.

٥- قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ﴾[7]،لكون النون ساكنة قبل الكاف فهي تُخفى عندها .

٦- قوله تعالى : ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ﴾[8] فعلى مذهب أبي عمرو في إبدال الهمز ياء ساكنة لا يجوز إدغامها ، لأن البدل عارض . وقد عضد ذلك ما لحق هذه الكلمة من الإعلال ،بأن حذفت الياء من آخرها ،وأبدلت الهمزة ياء ، فلو أُدغمت لاجتمع في ذلك ثلاثة إعلالات))[1].

---

١) البقرة : ٢٠٠ .
٢) المدثر : ٤٢ .
٣) الحج : ٣٦ .
٤) آل عمران : ١٩٢ ، ١٩٣ .
٥) يونس : ٩٩ .
٦) النبأ : ٤٠ .
٧) لقمان : ٢٣ .
٨) الطلاق : ٤ .

القسمة الثانية : الإدغام التام و الإدغام الناقص :

تتفاوت نسبة التأثر والتأثير بين النون و التنوين وأصوات السياق الذي وردتا فيه، بحيث ((لا يصل التأثير بين الأصوات أحياناً إلى حدّ أن يفنى الصوت قي الصوت الآخر ، بل يبقى للصوت الأول أثر ، ومن هنا قسّم علماء التجويد الإدغام إلى ناقص وهو ما يبقى معه للصوت المدغم بقية ، وكامل وهو ما يتحول فيه الصوت المدغم إلى جنس الصوت المدغم فيه .

ويبدو أن محمداً المرعشي هو خير من وضح هذا التقسيم للإدغام ، إذ قال: " ثم أن الإدغام ينقسم إلى تام وناقص ، لأن الحرف الأول إن أُدرج في الثاني ذاتاً وصفة فإن كانا مثلين أو متقاربين لكن انقلب ذات الأول إلى ذات الثاني وصفته إلى صفته فالإدغام حينئذ تام ،مثل إدغام " مدّ "،وإدغام الدال في الظاء نحو ﴿إِذْ ظَّلَمُوا﴾[2].

وإن أُدرج الحرف الأول في الثاني ذاتاً لا صفة بأن كانا متقاربين فانقلب ذات الحرف الأول إلى الثاني ولم تنقلب صفته إلى صفته بل بقي في التلفظ فالإدغام حينئذ ناقص والصفة باقية من الحرف الأول .

إما غنّة ، وهي في إدغام النون الساكنة والتنوين في الواو والياء .

وإما إطباق ، وهو في إدغام الطاء المهملة في التاء المثناة الفوقية نحو : ﴿ أَحَطْتُ ﴾[3] .

وإما استعلاء،وهو في إدغام القاف في الكاف في﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ ﴾[4]))[5] .

القسمة الثالثة : الإدغام المتماثل و المتجانس و المتقارب :

حدّد علماء التجويد والقراءات هذه القسمة من خلال معيار نوع الصوت المدغم في النون الساكنة أو التنوين ، ومدى تقارب سماته من سماتهما .

---

١) الإدغام الكبير : ١٤ – ١٥ .

٢) النساء : ٦٤ .

٣) النمل : ٢٢ .

٤) المرسلات : ٢٠ .

٥) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد : ٣٩٥ ، وينظر :الرعاية :٢٣١ ، والمنح الفكرية :٢٩.

ولم يخصص علماء التجويد في كثير من المواضع هذه القسمة بأحكام النون الساكنة ، بل حاولوا تعميمها على الأصوات قاطبة [١].

ويذهب المرعشي إلى أن الإدغام ينقسم إلى : إدغام مثلين وإدغام متجانسين وإدغام متقاربين، وأن ((الحرفان إذا التقيا بأن لا يكون حاجز بينهما ، فإما أن يكونا مثلين بأن اتفقا مخرجاً وصفة كالباء مع الباء ، وإما أن يكونا متجانسين بأن اتفقا مخرجاً يعني : المخرج الكلي ، واختلفا صفة كالطاء والدال والتاء ، وإما أن يكونا متقاربين بأن تقاربا مخرجاً يعني : المخرج الكلي ، وصفة كالدال والسين المهملتين فإنهما متقاربان مخرجاً وكالتاء المثناة الفوقية والثاء المثلثة ، فإنهما متقاربان صفة لأنهما مهموستان منفتحتان مستفلتان مرققتان إلاّ أن التاء شديدة والثاء رخوة))[٢].

ث- **الاقلاب :**

الاقلاب لغة : التحويل ، تحويل الشيء عن جهته ، واصطلاحا جعل حرف مكان حرف ، وهذا الحكم التعاملي خاص بتعامل النون الساكنة و التنوين مع الباء ،إذ إنّ النون الساكنة اذا وقعت قبل الباء تتأثر بها تأثرا يؤدي إلى تغيير نطقها، إذ تنقلب النون إلى صوت وسط بينها وبين الباء ، وهو الميم .

ولعلماء التجويد وقفة خاصة في هذا الأمر إذ اهتموا بالجوانب المتعلقة بأداء هذا الصوت ، ((قال الداني : " والحال الثالثة أن تقلبا ميماً من غير إدغام ، وذلك إذا لقيا الباء،نحو﴿ **أَنۢ بُورِكَ** ﴾[٣] ، و﴿ **أَنۢبِئْهُم** ﴾[٤] ، و﴿ **جُدَدٌۢ بِيضٌ** ﴾[٥] ، و﴿ **ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا** ﴾[٦] ، وما أشبهه . وإنما قلبا ميماً عندها خاصة من أجل مؤاخاة الميم للنون في الغنّـة

١) ينظر : الكشف : مكي : ١ / ١٣٥ ، و المنح الفكرية : ٣٢ .
٢) جهد المقل : ١٨٢- ١٨٣ ، وينظر : الإقناع : ١ / ٢٤٠ ، و إبراز المعاني : ٦٢ وما بعدها .
٣) النمل : ٨ .
٤) البقرة : ٣٣ .
٥) فاطر : ٢٧ .
٦) النور : ٤٠ .

ومشاركتها للباء في المخرج فقلبا ميماً من أجل ذلك " ، وقال مكي : " ولا تشديد في هذا ، والغّنة ظاهرة فيه في الحرف الأول نفسه، لأنك أبدلت من حرف فيه غّنة حرفاً آخر فيه غّنة ، وهو الميم الساكنة . فالغّنة لازمة للمبدل والمبدل منه في نفسه ، فلا بد من إظهارها في هذا على كلّ حال .

والعلة في إبدال النون الساكنة والتنوين ميماً عند الباء أن الميم مؤاخية للباء ، لأنها من مخرجها ، ومشاركة لها في الجهر والشدة . وهي أيضاً مؤاخية للنون في الغّنة والجهر . فلما وقعت النون قبل الباء ، ولم يمكن إدغامها فيها لُبعد المخرجين ، ولا أن تكون ظاهرة لشبهها بأخت الباء وهي الميم ، أبدلت منها ميماً لمؤاخاتها النون والباء "))[1].

١- **التفخيم و الترقيق :**

التفخيم و الترقيق أداءان نطقيان متضادان ، بحيث يأتي الأول خلاف الثاني ، وقد عرض علماء العربية إلى هذين الحكمين : بوصفهما أداءين حاضرين في لسان العرب بنحو كبير .

ويعّرف التفخيم بأنه : ((الأثر السمعي الناشئ عن تراجع مؤخرة اللسان بحيث يضيق فراغ البلعوم الفموي عند نطق الصوت ، و أصوات التفخيم ... هي : الصاد و الضاد و الظاء والطاء واللام والراء الألف))[2] .

وقد توقف علماء التجويد والقراءات القرآنية عند هذا الحكم طويلاً ، وحاولوا تفصيل القول فيه والكشف عن ماهيته؛ليتسنى لهم معرفة الحكم المقابل له . أعني الترقيق . .

فالتفخيم ((عبارة عن سمن يدخل الحرف فيمتلئ الفم بصداه))[3] ، أما الترقيق فـ((عبارة عن نحول على جسم الحرف فلا يمتلئ الفم بصداه))[4] .

وعلى هذا الأساس جعل المرعشي من الإطباق والاستعلاء أساساً لقضية التفخيم والترقيق ، وتفاوت درجة كل منهما قائم على التفاوت في درجة الإطباق أو الاستعلاء ، فيضع لنا ما يشبه القاعدة وهي : إنّ قدر التفخيم على قدر الاستعلاء والإطباق ، فما

---

١) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد :٤٤٣ – ٤٤٤،وينظر:الرعاية :٢٤٠، والكشف:١٦٥/١

٢) المصطلح الصوتي في الدراسات العربية : ١٤٥– ١٤٦ ، وينظر : علم الأصوات : ١١٧ .

٣) جهد المقل : ٧٧ .

٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

كان إطباقه أو استعلاؤه أبلغ كان تفخيمه أبلغ ، فالطاء المهملة أفخم الحروف ، لأنّ إطباقها أبلغ وأقوى من بقية الحروف ، ولما كان الصاد والضاد متوسطين في الإطباق كانتا متوسطتين في التفخيم أيضاً ، ولما كانت الظاء المعجمة أضعف حروف الإطباق في الإطباق كان تفخيمها أقلّ من تفخيم أخواتها، ونجد هذا التدرج في حروف الاستعلاء أيضاً ،لّما كان القاف أبلغ في الاستعلاء من الغين والخاء كان أفخم منهما ، لأن القاف " تشترك مع الغين والخاء ، في استعلاء أقصى اللسان ، وتنفرد عنهن بزيادة هذا الاستعلاء ، وهو يرى أنّ حروف الإطباق أبلغ في التفخيم من باقي حروف الاستعلاء ، لأن كل مطبق مستعل وليس كل مستعل مطبقاً ، فالزيادة في حروف الإطباق كان لها حصة في زيادة التفخيم.

ويمكن أن يعطينا كلام المرعشي فكرة عن جهد المرعشي في الكشف عن القوانين الصوتية لكل ظاهرة ، فموضوع التفخيم والترقيق يبحثه علماء التجويد محصوراً بالراء واللام ، أي متى يكون الراء مرققاً ؟ ومتى يكون مفخماً ؟وكذلك اللام، والمرعشي لم يهمل هذا الجانب إلاّ أنه اعتنى أولاً ببيان القيمةالصوتية لكل منهما .

فالمرعشي جعل الأصوات المفخمة على درجات ،بعضها أبلغ من بعض في التفخيم، وأصوات الإطباق أكثر تفخيماً من أصوات الاستعلاء ، والدكتور أحمد مختار عمر وصف حروف الإطباق بأنها كاملة التفخيم ، وأصوات الاستعلاء بأن تفخيمها جزئي أو من الدرجة الثانية(١).

وناقش المرعشي قضية حروف المدّ من حيث التفخيم والترقيق ، فالألف المدّية تابعة لما قبلها ، فإذا وقعت بعد الحرف المفخّم تُفخّم ، وإذا وقعت بعد الحرف المرقق ترقق ، لأن الألف ليس فيه عمل عضو أصلاً حتى يوصف بالتفخيم والترقيق ، وهذا هو الشائع المعروف بالنسبة للألف ، لكن المرعشي يلتفت إلى الواو والياء ، ويصرح بأن الواو كالألف من حيث تفخيمها ، فيقول : ((ولعل الحق أن الواو المدّية تفخّم بعد الحرف المفخّم " ، أما الياء فيسكت عنها))(٢).

---

١) ينظر : دراسة الصوت اللغوي : ٢٧٨ .

٢) جهد المقل : ٧٧ – ٧٨ .

وقد سبق عبدُ الوهاب القرطبي ، المرعشي في عملية ربط التفخيم و الترقيق بالاستعلاء و الإطباق ، بل وصلت حالة الفهم لتلك العلاقة عند القرطبي الى أنه بيّن نقاط الفرق بينهما أيضاً .

وقد أوضح القرطبي موقفه هذا في معرض حديثه عن اتصاف بعض الأصوات بهذين الأدائين الصوتيين ، فإذا ((وافقت الراء فيه اللام فإنها ترقّ في حال وتفخّم في أخرى ، والمقتضي للرقّة فيها الكسر حسب اقتضائه للترقيق في الراء وللإمالة في الألف ، ووجهة إرادة المناسبة بين الحروف ، والأصل في ذلك الألف وإنما اختصّت الراء واللام بالترقيق والتفخيم دون غيرهما من الحروف لشبه بينهما وبين الألف . أما اللام فإنه انحرف واستطال حتى خالط أكثر الحروف ولهذا جعل علماً للتعريف فأشبه الألف بمنزلة حرفين فشابه الألف بذلك أيضاً .

فصار التفخيم في كونه انحصار الصوت بين اللسان والحنك نظير الاستعلاء والإطباق ، ولهذا أثر الاستعلاء في الإمالة والترقيق فمنعهما ، لأنه ضدّ .

والفرق بين الاستعلاء والإطباق وبين الترقيق و التفخيم أن الاستعلاء يلزم حروفه فلا يزول عنها وكذلك الإطباق بخلاف الترقيق والتغليظ فإنهما يتعاقبان على الراء واللام كالإمالة والتفخيم في الألف ، والفرق بين الألف وبين حروف الترقيق والتغليظ والاستعلاء والإطباق أن هذه الأشياء يتغيّر بها ذات الحرف بخلاف الألف فإنها تتغّير بتغّير الحركة قبلها ، أعني في الإمالة والتفخيم))[1] .

---

١) الموضح : ١١٠ .

ثانياً : الظواهر الصوتية :

تنّوع تعامل الناطق العربي مع الأصوات المشكّلة لسياقات التواصل اللسانية ، وفي القسم السابق من هذا المبحث كّنا قد عرضنا لموضوع التأثر والتأثير بين أصوات تلك السياقات ، أما في هذا القسم من المبحث فسنعرض لظواهر صوتية أخرى تتعلق بكيفية نطق جملة من الأصوات ، لا سيما الصوائت منها .

وتتعلق ظواهر هذا القسم بقضيتين مهمتين تتحددان بـ :

أ- قطع النطق و آثاره في بنية الصوت المنطوق :مخرجياً ووصفياً .

ب- كيفية التعامل مع ملامح الصوت في سياقات معينة من جهتي : التقصير والتطويل في زمان تأديته .

وعلى هذا الأساس ، سنقف عند موضوعين يشتغلان ببنية هذا التعامل الصوتي ، وهما :

- الوقف .
- المدّ والتقصير .

الظاهرة الصوتية الأولى :

الوقف وحالاته النطقية :

الوقف من الموضوعات المشتركة بين أغلب علوم العربية ؛ ذلك أنها تتعلق ببنية الكلمة وآثارها النطقية ، فضلاً عن الدلالية .

وقد عُرِّف الوقف تعريفات كثيرة منها ، تعريف رضي الدين الاستربادي له بأّنه : ((السكوت على آخر الكلمة اختياراً لجعلها آخر الكلام))[1]، لذا قّرر علماء العربية ، ومنهم أبو علي الفارسي أن ((الحروف التي يوقف عليها لا تكون إلاّ ساكنة ، كما أن الحروف المبتدأ بها لا تكون إلاً متحركة))[2].

وغالباً ما يؤثر الوقف في بنية الصوت النطقية ، لاسيما بنية الصوائت ، خصوصاً إذا علمنا أنّ ((تَطَرُّف صوت المدّ قد يؤدي به إلى حذف أو قصر أو تغّير ، ولعل ما يحدث في العربية من حذف لصوت المدّ المتطرف في حالة الوقف يوضح ذلك جيداً ،

---

١) شرح الشافية : ٢ / ٢٧١ .

٢) التكملة : ١٨٧ .

حتى قيل إن العربية لا تقف على متحرك بل إنّ طائفة من اللهجات القديمة غالت في هذا الحذف ، حتى أنها حذفت أصوات المدّ الطويلة أيضاً من نحو الواو والياء))[1] .

ولم يخالف علماء التجويد والقراءات هذا النهج المجمع عليه من جمهور علماء العربية ، والذي أيّده – في غالب نتائجه – الدرس اللساني الحديث[2] ؛ وقد ذكر علماء العربية – ومنهم المجودون – أنماطاً كثيرة للوقف على آخر الكلمة ، منها :

١- <u>الوقف بالسكون ، ويتحدد بأربعة أحوال ، هي :</u>

أ- إن كان اللفظ منتهياً بالسكون قبل الوقف ، نحو قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ [3] .

ب- إن كان منتهياً بالضمة أو الكسرة ، سواء أكان منوناً أم غير منون ، نحو قوله تعالى : ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾[4] .

ت- إن كان منتهياً بالفتحة وغير منون ، نحو قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾[5].

ث- إن كان اسماً منقوصاً محذوف الياء ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾[6] .

---

١) في أصوات اللغوية : دراسة في أصوات المدّ العربية : ٢٠٩ ، وينظر : جمهرة اللغة :١ / ٢٣٤ .

٢) ينظر : ايضاح الوقف والابتداء : ١ / ١٤٩ ، و المكتفى في الوقف والابتداء : ١٠٦ ، النشر : ١ / ٢٤٠ ، وغيرها من المؤلفات .

٣) الشرح : ٧ – ٨ .

٤) المدثر : ٩ – ١٠ .

٥) الطارق : ٥ .

٦) الرعد : ١١ .

الوقف بالألف ، ويتحدد بأربعة أحوال أيضاً ، هي :

أ- إن كان منتهياً بالألف ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ [1] .

ب- إن كان منوناً منصوباً ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ﴾[2] .

ت- إن كان اسماً مقصوراً منوناً ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾[3] .

ث- إن كان فعلاً ، مقترناً بنون التوكيد الخفيفة ، نحو قوله تعالى : ﴿ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ﴾[4] .

٢- **الوقف بالواو ، ويتحدد بحالة واحدة :**

وهي أن يكون الموقوف عليه فعلاً لامه واْو سواء أكان مرفوعاً أم منصوباً ، نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ [5] .

٣- **الوقف بالياء ، ويتحدد بحالتين ، هما :**

أ- إن كان الموقوف عليه فعلاً لامه ياء ، مرفوعا كان أم منصوبا ، نحو قوله تعالى : ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [6] .

ب- إن كان اسماً منقوصاً غير منون ، نحو قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [7] .

---

١) الضحى : ١ – ٢ .

٢) العاديات:١ .

٣) الكهف:١٣ .

٤) العلق: من الآية١٥ .

٥) الرعد: من الآية٣٦ .

٦) الفجر :٢٩ – ٣٠ .

٧) طه : ١٠٨ .

٤- الوقف بالهاء أو التاء الساكنتين و يتحددان بحالتين ، هما :

أ- التاء المربوطة : نحو قوله تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ ﴾[١] .

ب- التاء المفتوحة : نحو قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾[٢].

٥- الوقف بهاء السكت ، وتتحدد بحالتين ، هما :

أ- إن كان الموقوف عليه فعل أمر من نوع اللفيف المفروق ، وحذفت فاؤه وعينه ، نحو قولك : افهم الدرس وعه .

ب- إن حذفت ألفات أسماء الاستفهام في سياقات خاصة ، نحو قوله تعالى : ﴿ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾[٣].

وعلى الرغم من هذا التناول ، تميّزت حالتان من حالات الوقف على الصوائت ، خصّهما علماء العربية ، ولا سيما المجودون بالدرس والتحليل ، وهما :

الروم والإشمام :

قال سيبويه : ((فأما المرفوع والمضموم فإنه يوقف عنده على أربعة أوجه : بالإشمام ، وبغير الإشمام كما تقف عند المجزوم والساكن ، وبأن تروم الحركة التحريك، و بالتضعيف))[٤] .

يتحدث سيبويه هنا عن حالات الوقف على آخر الكلمة ، وأثر ذلك الوقف في بنية الصوائت النطقية ، ولم يكن هذا الموقف هو الشائع بين علماء العربية بل اختلفوا فيه اختلافاً كبيراً ، إذ ((ذكر سيبويه أن الروم في الحركات الثلاث ، بينما ذكر الزجاجي أن " الإشمام وروم الحركة إنما يكونان في المرفوع " ، أما الإشمام فالراجح أنه يكون في الرفع

---

١) الحاقة : ١ – ٢ .

٢) النحل:٥٧ .

٣) الحاقة: من الآية ١٩و الآية ٢٠؛ وهناك حالات أخرى توقف عندها المجودون فضلا عن النحاة ، ينظر : شرح المفصل : ٩ / ٦٧ ، والمنح الفكرية : ٧١ ، وينظر : دراسات في التجويد والأصوات اللغوية : ٧٣ و ١٢٨ وغيرها .

٤) الكتاب : ٤ / ١٦٨ .

فقط لأنه ضّم الشفتين ولا يكون ذلك في الرفع وأما الروم فيكون في الحركات الثلاث لأن الروم هو نطق الحركة بصوت خفي وهذا يكون فيها جميعاً وقد ذكره ابن جني حين قال : " تفصل به المذكر والمؤنث في قولك في الوقف أنت وأنت " فذكر النصب والجر ، وذكر ذلك مكي ، وكذلك الداني قائلاً : " ويستعمل في الحركات الثلاث " ، أما القرطبي فقد رأى الروم في " المضموم والمكسور إعراباً كان أم بناءً دون المفتوح " ، معللاً ذلك بقوله : إن المفتوح تكون الحركة فيه أسرع ظهوراً لخفته ، وعلى ذلك صاحب" اللسان " ، وصاحب " النشر"))[1].

والثابت في مفهوم هذين الأدائين ، أن الروم هو ((النطق بالحركة بصوت خفي [أو] النطق ببعض الحركة ويكون في الضمة والكسرة))[2] ، في حين يُعرَّف الإشمام بأنه ((حالة من حالات الوقف على الصوت في الكلمة المرفوعة وهي أن تقف على الصوت دون إتباعه حركة الضم،وإنما تضّم شفتيك فقط ، أو هو الإشارة إلى حركة الرفع من غير تصويت))[3].

<u>الظاهرة الصوتية الثانية : التعامل النطقي مع كمية الأصوات :</u>

إنّ دراسة كمية الصوت ومدة إنجازه نطقياً ، عبر قياس مدة نطق الصوت زمنياً بوساطة أجهزة مخبرية ، يعدّ من الموضوعات المهمة في الدرس اللساني الحديث .

وهو أمر لم يغفله علماؤنا القدماء على مختلف مشاربهم التحليلية و انتماءاتهم المعرفية ، بل إنهم وقفوا عنده وقفة عميقة و طويلة ؛ لاستبيانه على نحو دقيق .

وقد أشارت الدراسات اللغوية الموازنة إلى أنّ العربية بقيت ((محافظة على نظام أصوات المدّ السامي القديم المتألف من ثلاثة أصوات هي الفتحة والضمة والكسرة على حين تفرعت هذه الأصوات في كثير من اللغات السامية إلى أصوات عدة يختلف عددها

---

١) المصطلح الصوتي: ٢٦٦ – ٢٦٧ ، وينظر : الكتاب : ٤ / ١٦٨ و ١٧١ ، ، وشرح الجمل : ٣٧٤ ، والخصائص : ٢ / ٣٢٨ ، والرعاية : ٢٦٠ ، والتحديد : ٩٨ ، والموضح : ٢٠٩ ، واللسان : ١ / ١٢٦ ، والنشر : ٢ / ١٢٣ ، وقد توقف أبو عمرو الداني عند خلاف المجودين ولاسيما في هاتين الحالتين ، ينظر : ١.

٢) النشر : ٢ / ١٢١ .

٣) المصطلح الصوتي : ٢٤٧ ، وينظر : النشر : ٢ / ١٢١ .

من لغة إلى أخرى ثم كان لهذه الأصوات المتفرعة أن تكتسب في كثير من الأحيان استقلالاً "فونيمياً" بحيث صار تغييرها علامة على تغيير في معنى الكلمة .

لقد مرّت العربية التاريخية في بعض حقبها بتطورات أصابت نظام المدّ فيها ، فكان أن ظهرت أصوات مدّ فرعية في سائر لهجاتها القديمة ، من نحو الإمالة والتفخيم والاختلاس والحركات المشوبة غير أن ما يميز العربية من سائر اللغات السامية أن هذه الأصوات المتفرعة قد بقيت فيها مجرد صور allophones من صور نطق أصوات المدّ الأساسية تستعمل في مواضع سياقية بعينها ، أملتها عوامل بحتة من نحو المماثلة Assimilation والميل إلى الانسجام Vowel Harmony أو العادات النطقية الخاصة ببيئة بعينها ولم تستطع هذه الأصوات أن تكتسب قيماً خاصة بها ، مما أدى بها بعد ذلك إلى أن تختفي من النطق في العربية الموحدة ، بحيث عادت هذه اللغة إلى نظام أصوات المدّ السامي القديم))(1).

وعلى هذا الأساس شمّر علماء العربية – ولاسيما علماء التجويد و القراءات القرآنية – عن سواعدهم للنهوض بدراسة عميقة في هذا الموضوع .

وسنقف فيما يأتي من حديث خلال فقرات هذا المبحث ، عند موضوعين تضادا في زمن النطق ، بحيث جاء الأول منهما على أساس التطويل ، في حين جاء الثاني على أساس التقصير .

١- **المدّ :**

هو حكم نطقي يقاس من خلاله زمن أداء الصوت ، ويتحدد هذا الموضوع بالصوائت التي عرفت بوساطته بـ " أصوات المدّ " .

((فهو حكم يجب لحروف المدّ واللين إذا كان عقيبها همزة أو حرف ساكن مدغم أو مظهر كـ " السماء " و " البناء " و " قائل " و" بائع" ، و كـ " الضالين " و" العادين " ... وما أشبه ذلك))(2). أي إنّه :((عبارة عن زيادة المدّ في حروف المدّ لأجل همزة أو ساكن بعدها))(3).

---

١) في الأصوات اللغوية : دراسة في أصوات المدّ العربية : ٢١٥ ، وينظر دروس في علم أصوات العربية : ١٤٧ .

٢) الموضح : ١٢٨ .

٣) جهد المقل : ٧٦ .

وتحدّث علماء التجويد عن علّة وجود المدّ في هذه الجمهرة من الأصوات ، ((فعلة وجوبه فيما إذا كان بعد حرف المدّ همزة أن حروف المدّ في غاية الخفاء والخفّة والهمزة في غاية الظهور والثقل ، فهما ضدّان ، فجاء المدّ مقّرباً لهذه الحروف ومظهراً لخفائها ، ليحصل هناك مناسبة ما تحصّن الهمزة وتحرسها ، ولولا ذلك لم يؤمن من أن يغلب خفاؤها على الهمزة ، فتضعف وتتلاشى . فأما إذا انفتح ما قبل الياء والواو فإنهما لا يمدّان إذا عقبتهما الهمزة في مثل " خلوا إلى " و " تعالوا إلى " و " مطر السوء " ، لأن اللسان ينبسط بهما ، فتثقلان و لا تخفيان خفاء الواو والياء والألف مع حركاتهن ، فلم يجب المدّ لذلك .

فالحاصل أن هذه الحروف إنما مدّت لئلا يكون اللسان منتقلاً عن الأخف إلى الأثقل دفعة ، فلا يتحقق مخرج الهمزة فقويت بالمدّ إرادة لبيان الهمزة ، وقصداً لتحقيق مخرجها ، وتوخي تّمكن النطق بها ، ولهذه العلّة استحب إظهار السكون قبلها إبرازاً بّيناً شافياً))[1].

وحاول بعض العلماء إجراء مقابلات بين بعض التأديات النطقية لجملة من الأصوات العربية ، كالذي فعله المرعشي عندما ساوى بين تأدية المدّ و الغّنة ،إذ ((يلائم إحداث الغّنة مع تلفظ المدّ ، ولذا يلفظ بعض الناس المدّ مصحوباً بالغّنة في مثل " نستعين " وهو لا يشعر بذلك ، وذلك لحن ، وطريق معرفة حدوثها في مثل ذلك أن تلفظ مرة مع الإمساك على أنفك ، ومرة بدونه فإن اختلف صوت المدّ في الحالين فاعلم أنه مصحوباً بها ، وطريق الحذر عنها منع النفس الجاري مع المدّ عن التجاوز إلى الخيشوم ، وامتحان صوته بالإمساك على الأنف وتركه إلى أن يتعود ، تخليص المدّ عنها))[2] .

وتحدّث علماء التجويد عن أضرب المدّ وحالاته، وقد لخص ذلك عبد الوهاب القرطبي بنصّ قال فيه : ((فالحاصل أن هذه الحروف على ستة أضرب :

ضرب لا مدّ فيه ولا تمكين ، وهو الألف .

وضرب دون الممكن المقصور وفوق الحركة ، وهو العين .

وضرب ممكن مقصور ، وهو الطا والحا و الها وما أشبه ذلك .

---

١) الموضح : ١٢٨ – ١٢٩ ، وينظر : الكتاب : ٤ / ٤٣٧ ، والنشر : ١ / ٣٤٤ .

٢) جهد المقل : ٧٦ .

وضرب فوق ذلك بأدنى مدّ ، وهو الكاف والقاف و" صاد " و " نون " في قراءة من أظهر و " نستعين " في حال الوقف بغير روم .

وضرب ممدود أتّم في " لم " و " صاد ذكر " و " نون والقلم " في قراءة من أمحض الإدغام . وكذلك " زكرياء " و " السماء " و " الضالين " وما أشبهه .

وضرب ممدود مداً وسطاً بين مدّ القاف والكاف وبين مدّ " لم " و " صاد ذكر " في قراءة من أدغم ، وهو النون إذا أُدغمت بغنة في " نون و القلم " ، وفي " نستعين " إذا وقف عليها بسكون أو إشمام))[1].

ووقف علماء التجويد والقراءة القرآنية عند قضية تقدير المدود ، وقد حدّدها علي القاري بنصّ جاء فيه : ((وأما معرفة مقدار المدّات المقدرة بالألفات فأن تقول " آ " مرة أو مرتين أو زيادة . وتمدّ صوتك بقدر قولك : ألف ألف ، أو كتابتها ، أو بقدر عقد أصابعك في امتداد صوتها . وهذا كله تقريب لا تحديد للشأن . إذ لا يضبطه إلاّ المشافهة و الإدمان))[2] .

كذلك أشار علماء التجويد والقراءة إلى محاذير المدّ و إشكالاته النطقية ،التي تخالف قوانين النطق الفصيح الصحيح[3].

٢- **الاختلاس والإخفاء :**

إنّ هذين الأداءين من بين جملة أداءات نطقية مهمة في متن الدراسة اللسانية العربية بُبعدها الصوتي .

وقد أشار أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤ هـ) إلى هذه الأهمية في بابه الموسوم بـ " ذكر البيان عن حقائق الألفاظ وحدود النطق بالحروف " إذ قال في مستهله ما نصّه : ((اعلموا أن التجويد لا يتمكن والتحقيق لا يتحصل إلاّ بمعرفة حقيقة النطق بالمتحرك ، والمسكّن ، والمختلس ، والمرام ، والمشّم ، والمهموز ، والمسهل ، والمحقق ، والمشدد ،

---

١) الموضح : ١٣٨ – ١٣٩ ، وينظر : التنبيه على اللحن : السعيدي : تحقيق : د. غانم قدوري الحمد : ٢٨٣ – ٢٨٥ .

٢) المنح الفكرية : ٤٨ .

٣) ينظر : التنبيه على اللحن : السعيدي ، و بيان العيوب التي يجب أن يتجنبها القرّاء .

والمخفف ، والممدود ، والمقصور ، والمبين ، والمدغم ، والمخفف ، والمفتوح ، والممال))[١] .

وقد ذكرنا فيما تقدم أنّ هذين الأداءين ، أعني الاختلاس والاخفاء ، يشكلان ظاهرة صوتية تسير باتجاه معاكس لاتجاه ظاهرة المدّ النطقية ؛ لأنهما قائمان على أساس تقصير مدة نطق الصوت لا تطويلها .

وعلى هذا الأساس بنى الداني تعريفه للصوت المختلس على أنّ : (([حقّ] حركته من الحروف ... أن تسرع اللفظ به إسراعاً يظن السامع أن حركته قد ذهبت من اللفظ لشدة الإسراع ، وهي كاملة في الوزن ، تامة في الحقيقة ، إلاّ أنها لم تمطط و لا ترسل بها ، فخفي إشباعها ولم يتبين تحقيقها))[٢] .

أما الصوت المخفى ، فهو عنده – بحسب توجيه سيبويه له – لا يخالف اشتغال المختلس ، وقد وضح هذا الفرض بقوله : ((وكذا المخفى حركته من الحروف سواء ، قال سيبويه : المخفى بوزن المظهر . وقال غيره : هو بزنته إلاّ أنه أنقص صوتاً منه . وحقيقته في اللغة السترة ، ومن ذلك قوله تعالى : " إن الساعة آتية أكاد أُخفيها "[٣] ، أي أسترها . والمخفى شيئان : حرف وحركة ، فإخفاء الحرف نقصان صوته ، وإخفاء الحركة نقصان تمطيطها))[٤] .

وعليه فهذان ((المصطلحان يشيران إلى تقصير يلحق الحركات لكنه غير محدد بمقدا ر واضح ، ويبدو أنهما أعمّ دلالة على ذلك من الروم ، وإن كانا من جنسه ، قال الداني : " فأما ما ضعفت صوتك بحركته ولم تتمه فنحو الروم والإخفاء والاختلاس ، وقد قدمنا أنه محرك في الحقيقة "))[٥].

---

١) التحديد : ٩٥ .

٢) التحديد : ٩٥ – ٩٦ ، وينظر : جمال القراءة وكمال الإقراء : ١ / ٢٠٠ .

٣) من سورة طه /١٥ .

٤) التحديد : ٩٦ ، وينظر : التيسير : ١٢٧ .

٥) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد : ٥١٢ .

المبحث الخامس :

((منهج المدرسة : المحاسن والمآخذ))

لا تكاد تخلو نظرية من النظريات . على مختلف مرجعياتها و آليات اشتغالها المعرفي . ، من نقدات أو مواقف مناهضة أو مؤيدة .

وكذا الحال بنتاجات علماء التجويد والقراءات القرآنية ، فهي خاضعة أيضاً لمقياس هذا الفرض – من دون أدنى شكّ – .

لذا سنقف عبر فقرات هذا المبحث عند أهم نقاط التأييد أو المخالفة ، فضلاً عن نقاط الخلل و القوة في كتابات المجودين ومقولاتهم ، من خلال قسمين تحددا بـ :

أولا المحاسن :

لم تكن المدرسة الصوتية عند المجودين وعلماء القراءات القرآنية خالية من الإضافات ، بل كانت زاخرة بالمعطيات الجديدة والمهمة في آن .

ولعل دأبهم على تحصيل الجديد في البحث والتحليل ، فضلاً عن تحقيق الغايات المنشودة من دراسة النظام الصوتي في اللسان العربي ، هو الذي ترك بعض الخلل في منهجيتهم و مقولاتهم ودراساتهم،وهو ما أشرنا إليه في القسم الأول من هذا المبحث .

وقبل الخوض في حيثيات ما أضافه علماء التجويد والقراءة القرآنية إلى مفردات الدراسة الصوتية في تراثنا اللساني ، لا بد من قولة مهمة نوجزها بالآتي :

إنّ المجودين وعلماء القراءة القرآنية ، حاولوا تقديم منهج تعليمي دقيق للعالم و المتعلم المتصدي لتلاوة القرآن أو تعليمه للنشء .

ويتلخص منهجهم ذاك بوضع الحلول الناجحة للمخالفات النطقية المتلمسة في تأدية الأصوات .

وقد أكدت هذا الفرض الكثير من نصوص المجودين المدونة في تأليفاتهم المتنوعة ، ومنها ما رواه ابن غانم (ت ١٠٠٤ هـ) في " بغية المرتاد " ، إذ نقل رواية جاء فيها : ((قال الأستاذ أبو حيان في شرح التسهيل إنما ذكر النحويون صفات الحروف لفائدتين : إحداهما لأجل الإدغام . ثم قال : والفائدة الثانية وهي الأولى في الحقيقة بيان الحروف العربية حتى ينطق من ليس بعربي بمثل ما ينطق به العربي ، فهو كبيان رفع الفاعل

ونصب المفعول ، فكما أن نصب الفاعل ورفع المفعول لحن كذلك النطق بحروفها مخالفة مخارجها لما روي من العرب في النطق بها لحن)) [1].

ولتحقيق هذه الغاية سعوا إلى وضع مفردات نظريتين مهمتين اشتغلت على النهوض بهذه الوظيفة .

وتتحدد هاتان النظريتان بالآتي :

١- **اللحن الجلي و اللحن الخفي :**

تُعدّ هذه المقولة من أهمّ مقولات علماء التجويد والقراءات ، لا سيما في بُعدها الوظيفي المشتغل على نسقية رصد الخطأ ومعالجته ؛ لتمكين العالم والمتعلم من تحصيل النطق العربي الفصيح الصحيح .

وقد كتب علماء التجويد والقراءات الكثير من المؤلفات التي تفاوتت في حجمها عن هذه المقولة ، وهو ما يؤكد أهميتها و صدارتها لأولويات العمل التحليلي للمجودين و القرّاء .

وقد نسب الدكتور غانم قدوري الحمد هذه المقولة إلى ابن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ) ، من خلال ورود نصوص تلّمح إلى ذلك ، منها ما نقله أبو عمرو الداني في كتابه " التحديد " ، إذ قال فيه : ((حدثني الحسن بن شاكر السمسار ، قال : حدثنا أحمد بن نصر ، قال : سمعت ابن مجاهد يقول : اللحن في القرآن لحنان : جلي وخفي ، فالجلي لحن الإعراب ، والخفي ترك إعطاء الحرف حقّه من تجويد لفظه))[2].

لكن الدكتور مشتاق عباس معن اعترض على هذا التأكيد من الدكتور الحمد [3]، في تسليم ريادة هذه الفكرة إلى ابن مجاهد ، ذلك أن ((مستنده في ذلك الرأي لا يدّعم فكرته، بل يجعلها خارج إطار المناقشة ؛ لأن نصّ أبي عمرو الداني يشير إلى قول ابن مجاهد روايةً ، من دون أن يحدّد أسبقيته على من سواه من مؤلفي التجويد ... لذا كان من الأولى بالدكتور غانم أن يقول : إنّ أولى الإشارات إلى اللحن الجلي والخفي أشارت إلى

---

١) بغية المرتاد لتصحيح الضاد : ٦ و – ٦ ظ ، نقلاً عن كتاب : الدراسات الصوتية عند علماء التجويد : ٤٩ .

٢) التحديد : ١١٦ ، وينظر : السبعة في القراءات : ٤٩ .

٣) ينظر : الدراسات الصوتية عند علماء التجويد : ٥٠ ، واللحن الجلي واللحن الخفي في الدرس الصوتي العربي : ٧ – ٨ (بحث) .

ابن مجاهد ، مما يرجّح ريادته في القول بتلك الفكرة ، لا أن يؤكد ريادته ، فمستنده لا يوحي بذلك))[١] .

وقد أشار السعيدي (ت ٤١٠ هـ) إلى هذه النظرية في رسالته الجليلة " التنبيه على اللحن الجلي و اللحن الخفي " ، وتعرض لتعريفها وتفصيل القول فيها ، إذ ((ينبغي لقارئ كتاب الله ، عزّ وجلّ ، بعد معرفته باللحن الجلي أن يعرف اللحن الخفي ، لأن اللحن لحنان : لحن جلي ولحن خفي .

فاللحن الجلي هو أن يرفع المنصوب ، أو ينصب المرفوع ، أو يخفض المنصوب أو المرفوع ، وما أشبه ذلك ، فاللحن الجلي يعرفه المقرئون والنحويون وغيرهم ممن قد شمّ رائحة العلم .

واللحن الخفي لا يعرفه إلاّ المقرئ المتقن الضابط ، الذي تلقن من ألفاظ الأستاذين ، المؤدي عنهم ، المعطي كل حرف حقه ، غير زائد فيه ولا ناقص منه ، المتجنب عن الإفراط في الفتحات والضمات والكسرات والهمزات ، وتشدديد المشددات ، وتخفيف المخففات ، وتسكين المسكّنات ، وتطنين النونات ، وتفريط المدات وترعيدها ، وتغليظ الراءات وتكريرها ، وتسمين اللامات وتشريبها الغنّة ، وتشديد الهمزات وتلكيزها وقد روي لنا عن حمزة في كراهية هذه الخصال والنهي عنها وهو صاحب التحقيق))[٢].

٢- **تثقيف اللسان و ترويضه :**

إنّ رياضة الألسن و تثقيفها من الأمور التي أكدها علماء التجويد ، وقد حاول الدكتور مشتاق عباس معن الوقوف عندها ببحث وسمها فيه بـ " النظرية " ، وعدّها مهتضمة غير مدروسة أو ملتفت إليها على نحو دقيق ، ويراد بها : تعويد الطلاب والقرّاء على النطق بنحو فصيح صحيح ، عبر مشافهة الشيوخ والمجازين من علماء التجويد والتلاوة [٣].

وقد أشار الكثير من علماء التجويد والتلاوة إلى ضرورة هذه الآلية في ترسيخ العلم في الذهن .

---

١) نظرية اللحن الجلي واللحن الخفي في الدرس الصوتي عند علماء التجويد " قراءة في المقولة والإجراء : ٩ (بحث) .

٢) التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي : ٢٧ – ٢٨ .

٣) ينظر: نظرية تثقيف اللسان و ترييضه : ١٠ (بحث) .

ومن ذلك قول ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) : ((أول ما يجب على مريد إتقان قراءة القرآن تصحيح إخراج كل حرف من مخرجه المختص به تصحيحاً يمتاز به عن مقاربة ، وتوفية كل حرف صفته المعرفة به ، توفية تخرجه عن مجانسه . يعمل لسانه وفمه بالرياضة في ذلك إعمالاً يصير ذلك له طبعاً وسليقة ، فكل حرف شارك غيره في مخرج فإنه لا يمتاز عن مشاركه إلاّ بالصفات ، وكل حرف شارك غيره في صفاته فإنه لا يمتاز عنه إلاّ بالمخرج ... فإذا أحكم القارئ النطق بكل حرف على حدته موفٍّ حقّه ، فليعمل نفسه بإحكامه حالة التركيب ، لأنه ينشأ عن التركيب ما لم يكن حالة الإفراد ، وذلك ظاهر ، فكم ممن يحسن الحروف مفردة ولا يحسنها مركبة ، بحسب ما يجاورها من مجانس ومقارب ، وقوي وضعيف ، ومفخم ومرقق ، فيجذب القوي الضعيف ، ويغلب المفخم المرقق ، فيصعب على اللسان النطق بذلك على حقه إلاّ بالرياضة الشديدة حالة التركيب ، فمن أحكم صحة اللفظ حالة التركيب حصّل حقيقة التجويد بالإتقان والتدريب))(١).

وكذلك قول مكي بن أبي طالب : ((وكل ما ذكرته من هذه الحروف لم أزل أجد الطلبة تزل بهم ألسنتهم إلى ما نبهت عليه ، وتميل بهم طباعهم إلى الخطأ فيما حذرت منه ، فبكثرة تتبعي لألفاظ الطلبة بالمشرق والمغرب وقفت على ما حذرت منه ، ووصيت به من هذه الألفاظ كلها ، وأنت تجد ذلك من نفسك وطبعك))(٢).

وأكد هذا الدأب المرعشي بقوله : ((وتجويد القرآن قد يحصله الطالب بمشافهة الشيخ المجود بدون معرفة مسائل هذا العلم ، بل المشافهة هي العمدة في تحصيله ، لكن بذلك العلم يسهل الأخذ بالمشافهة ، ويزيد به المهارة ، ويصان به المأخوذ عن طريان الشك والتحريف كما صرّح به في الرعاية))(٣).

والغاية من هذه النظرية . على حدّ تعبير د. مشتاق(٤) . جملة أمور ، لعلّ أهمها :

- تكميل معطيات النظرية السابقة " نظرية اللحن الجلي واللحن الخفي " ، من خلال إنزال ملاحظات المخالفة النطقية لتأدية الأصوات منزل الواقع ، عبر

---

١) النشر : ٢١٤/١ – ٢١٥ .

٢) الرعاية : ١٤٤ .

٣) جهد المقل : ١١٠ .

٤) ينظر : نظرية تثقيف اللسان وترييضه :١٥ (بحث) .

تثقيف لسان الطالب و القارئ بالتأدية الصحيحة ، وتجنب المخالفات التي رصدها العالم من خلال النظرية الأولى .

- وضع منهج تعليمي دقيق لتثبيت المعلومة على نحو صحيح في ذهن الطالب والقارئ ، بحيث ترسخ في ذهنه عبر ممارساته النطقية للصورة الصحيحة لنطق الصوت ، و لا يتأتّى ذلك إلاّ عبر رصد الخطأ وتجنب الوقوع فيه ، أو رصده ووضع العلاج الأمثل له .

لذلك نجد أن هناك قصوراً في بعض جوانب الدراسة الصوتية عند المجودين من حيث بعض الأمور التي ذكرناها في القسم الأول من هذا المبحث ؛ لأنهم أكّدوا تحقيق هاتين النظريتين ، وتثبيت ركائزهما في منهج العالم والمتعلم .

ثانياً : المآخذ :

إن كتابات المجودين وعلماء القراءة القرآنية تمتاز بجملة سمات لا نجدها ذات بُعد إيجابي ، على وفق عرف الدراسة العلمية الدقيقة .

ومن خلال تتبع مقولاتهم وجدنا أن ثمة أمورا لا بد من الإشارة إليها ، ليكون لكلامنا أدلة،وعليه أمكننا تلخيص ملاحظاتنا حيال نقاط السلب في مقولاتهم بما يأتي :

١- لا تكاد تتخلص كتابات المجودين وعلماء القراءات من آثار علماء العربية الذين سبقوهم بالدراسة ، ولاسيما علماء النحو والصرف .

وقد حاول الدكتور غانم قدوري الحمد الاعتذار لهم من خلال غايتهم التي قصدوا بها : دراسة النظام الصوتي في اللسان العربي من وجهة خاصة ، وهو ما سنقف عنده في قسم الإضافات .

فقد ((كانت دراسة الأصوات عند علماء التجويد ... ترتبط بأغراض معينة في الموضوعات التي كانوا يبحثونها ، ولم تكن تتبع نظرة شاملة مستقلة تهدف إلى بيان النظام الصوتي للغة العربية وما يخضع له ذلك النظام من الاعتبارات الصوتية في الكلام المنطوق . وليس هذا الكلام من باب النقد أو الطعن على جهود علماء العربية ، وإنما هو من باب تقرير الحقائق لنحدد بالموازنة اتجاهات علماء التجويد في دراسة الأصوات . على أننا نلاحظ أن اتجاهاً جديداً برز لدى بعض النحاة المتأخرين ، وإن ظلت دراسة الأصوات تسير عندهم في نفس الإطار ، ذلك الاتجاه هو أنهم جعلوا من أسباب البحث في الأصوات أن ينطق غير

العربي بالأصوات العربية مثل ما ينطق العربي ، وهو اتجاه تعليمي محض لا استبعد تأثرهم فيه بجهود علماء التجويد))[١].

٢- التقصير في بعض جوانب الدرس ، ولعل سبب ذلك التقصير يعود إلى اهتمامهم بدراسة شاملة للسان العربي ، وهو مذهب أيده الدكتور غانم قدوري الحمد حين وسم منهجهم بالمنهج " الشامل " .

وفي رأيي أن هذا التأييد من الدكتور الحمد يعد مخالفة صريحة لما نقلناه عنه قبل قليل من الاعتذار عن متابعة المجودين لعلماء العربية ؛ إذ قال الدكتور بأن منهجهم لم يكن لدراسة النظام الصوتي كله في العربية ، بل كان لغاية معينة ، في حين يؤكد هنا أنهم كانوا يبتغون من دراستهم تقديم دراسة شاملة للسان العربي على وفق منهجهم الشامل .

وقد بّين الحسن بن قاسم المرادي – ت ٧٤٩ هـ – تلك الشمولية في نصّ من نصوصه ، قال فيه:((إن تجويد القراءة يتوقف على أربعة أمور :

أحدها : معرفة مخارج الحروف .

والثاني : معرفة ما يتجدد لها بسبب التركيب من الأحكام .

والثالث: رياضة اللسان بذلك وكثرة التكرار .

وأصل ذلك كله وأساسه تلقيه من أولي الإتقان ، وأخذه عن العلماء بهذا الشأن ، وإن انضاف إلى ذلك حسن الصوت وجودة الفك و ذربة اللسان ، وصحة الأسنان كان الكمال))[٢].

١) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد : ٤٨ – ٤٩ .

٢) شرح الواضحة في تجويد الفاتحة : المرادي : ٣٠ .

الفصل الرابع

مدرسة الفلاسفة المسلمين الصوتية

المدخل:

للفلاسفة المسلمين أثر كبير في بناء الصرح العلمي عند العرب ،وذلك لما قدموه من ثقافة كبيرة أغنت الفكر الإنساني عموما والعربي على وجه الخصوص ،إذ تفردوا عن غيرهم من الدارسين في طبيعة البحث وعمقه،وكان البحث اللغوي واحدا من العلوم التي كتبوا فيها وأغنوها بدراستهم العلمية الدقيقة التي شغلت مساحة زمنية كبيرة.

وعلى الرغم من السعة الزمنية التي شغلتها هذه المدرسة وتعدُّد علمائها وتوزّعهم على هذه الحقبة الطويلة ،لم تستطع أن تستميل اهتمام الدارسين وتحرك أقلامهم ، اللهم إلا القليل ممن حاول دراسة الجوانب اللغوية عند علمائها[١]،ومن بينها الجانب الصوتي الذي اهتموا به كثيرا ؛ إذ لم يكتفِ أصحاب هذه المدرسة ، على وجه العموم ، بدراسة الأصوات من زاوية واحدة بل تعددت زوايا النظر وتنوعت ؛ فالكندي مثلا درس اللثغة وابن سينا درس أسباب حدوث الحروف في رسالته المعروفة ، إلا أن الجانب الاشمل الذي توحدت فيه نظرة المدرسة الفلسفية هو الجانب الفيزيائي الذي درسوه في مصنفاتهم المتعددة وأولوه عناية خاصة،فلم تقف هذه المدرسة عند الأمور العامة لهذا الجانب من الدراسة بل وقفت على الخصائص الجزئية في علم الصوت ((فهولاء آمنوا أنّ العلم هو مجموعة من الملاحظات والاستدلالات المؤسسة عليها،ثم دراستها وأخذ الخلاصات منها وهذه الخلاصات هي العلم أي هي اكتشاف الحقائق ومعرفة القوانين التي تربط هذه الحقائق))[٢] .

فنحن نجدهم يتحدثون عن طبيعة الصوت اللغوي وكيفية انتقاله عن طريق تموج الهواء ،كما هو الأمر عند الفارابي وإخوان الصفا وابن سينا ،فقد شملت دراسة الفارابي الصوتية الكثير من الظواهر ابتداء من علم الأصوات الطبيعي الذي حاول فيه أن يقف على ماهية الصوت ومصدره وكيفية انتقاله وكيفية السمعية وصولا إلى دراسة التنغيم وأقسامه وخصائصه،ثم ينتقل الفارابي في دراسته إلى علم الأصوات

---

١) ينظر على سبيل المثال المباحث اللغوية عند الفلاسفة المسلمين (اطروحة) عماد حازم طه ،والبحث الصوتي والدلالي عند الفيلسوف الفارابي(رسالة) رجاء عبد الرزاق كاظم الرفاعي ،والدرس الصوتي عند ابن سينا (رسالة) علاء جبر محمد .

٢)كلمة في منهج البحث اللغوي عند العرب :١٤.

النطقي متحدثا عن أعضاء النطق ،وقد حاول الفارابي أن يتوسع في حديثه فتحدث عن طبيعة الحروف وخصائصها فضلا عن حديثه عن المقطع الصوتي والنغم[١].

ولم يختلف إخوان الصفا عمّن سبقهم في دراستهم اللغوية إذ بحثوا في طبيعة اللغة وكيفية التصويت وحدوث الصوت وانتقاله ،و أشاروا إلى العملية السمعية وكيفية استقبال الصوت،وإن كانوا أقل تفصيلا ممن سبقهم وحتى من لحقهم كابن سينا[٢] .

وقد شهدت المدرسة الصوتية الفلسفية تطورا ملحوظا على يد ابن سينا الذي توسعت دراسته الصوتية وتنوعت لتشمل الحديث عن علم الأصوات الطبيعي ابتداء من طبيعة الصوت وحدوثه وانتقاله والوسط الناقل له وصولا إلى العملية السمعية،فضلا عن دراسته التفصيلية لعلم الأصوات النطقي والوقوف على أعضاء النطق وتفصيلاتها ، فضلا عن حديثه عن الحروف العربية وكيفية حدوثها وبيان خصائصها،واسباب اختلاف كل حرف عن غيره[٣] .

ولم يبتعد البيروني وابن باجة وابن رشد والبغدادي في دراستهم للغة عموما والأصوات على وجه الخصوص عن دراسة من سبقهم من الفلاسفة المسلمين إذ ساروا على خطهم في الدراسة متناولين الطبيعة الفيزيائية للأصوات وكيفية حدوث الصوت وانتقاله مكونين بذلك مدرسة صوتية ذات ميل فيزيائي في دراستها للصوت وهو الأمر الذي جعلها واضحة المعالم ومتميزة الخصائص والمنهج.

وعلى الرغم من تأخر الحقبة الزمنية التي يقع فيها الفلاسفة المسلمون إذا ما قيسوا بغيرهم من دارسي الصوت العربي،إذ يعد الخليل بن أحمد الفراهيدي أول من أسس الدرس الصوتي العربي على وفق حاجته التي دعته إلى الدراسة ووضع الأسس الصوتية التي تعينه في ترتيب معجمه وجعلها مقياسا للكلمات مؤسسا بذلك مدرسة صوتية تفردت عن غيرها من المدارس ،إلا انه لا يمكن لاحد من الدارسين أن ينكر التطور الصوتي الذي

---

١) ينظر البحث الصوتي والدلالي عند الفيلسوف الفارابي(رسالة): ٣١.٣٠ .

٢) ينظر: البحث اللساني عند إخوان الصفا وخلان الوفا: ١٢ (بحث) .

٣) تجدر الإشارة هنا إلى أننا سنعرض عن الحديث عن الحروف ومخارجها كما وصفها علماء المدرسة وكذلك عن المقطع والنبر والتنغيم لانها لم ترد عند جميع علماء المدرسة وانما وردت اشارات قليلة عند الكندي والفارابي ومفصلة عند ابن سينا وقد تحدثنا عنها بالتفصيل في رسالتنا للماجستير؛ ينظر: الدرس الصوتي عند ابن سينا(رسالة): ١١٢-١٦٥ .

أحدثته المدرسة الفلسفية في دراستها للأصوات كما في دراسة الكندي والفارابي واخوان الصفا وابن سينا وغيرهم من الفلاسفة ، إذ تعددت الموضوعات الصوتية التي درسوها وفصلوا القول فيها فتنوعت جوانب دراستهم للصوت إذ شملت الجانب الطبيعي (الفيزيائي) والجانب النطقي للأصوات ،وكان الجانب الطبيعي أكثر حضورا عندهم من غيره،فلم يترك دراسته أّياً منهم ،أما الجانب النطقي والحديث عن صفات الحروف فلم نجده إلا عند عدد منهم وأهمله بعضهم والسبب في ذلك هو أّنهم حاولوا أن يفسروا الظاهرة الصوتية من الجانب الطبيعي لأنها تعتمد على العقل . عندهم . في الوصول إلى حقائقها فهي غير منظورة فاقتربت بذلك من الفكرة الفلسفية وهي غير منظورة أيضا،فضلا عن كون هذا الجانب،أي الطبيعي، للصوت واحدا من الجوانب التي ارتبطت بالموسيقى والنغم الذين اهتموا بهما كثيرا .

المبحث الأول :
علم الأصوات الطبيعي

تباينت اتجاهات الدراسة الصوتية عند علماء العربية على وفق تباين المدرسة التي ينتمون إليها وغايتها ومنهجها في الدراسة ، فكانت السمة البارزة والأكثر تمييزا لهذه المدرسة هي تأكيدها دراسة الجوانب الطبيعية في الظاهرة الصوتية،ورصدها رصدا يهيئ لهم الوقوف على الكثير من حقائقها،ومحاولة تفسيرها،وهذا لا يعني أنّ جميع الدارسين في هذه المدرسة ساروا على وتيرة واحدة أو أن آراءهم كانت متشابهة ومتطابقة،بل قد تباينت آراؤهم في تفسير الظواهر الصوتية فمنهم من ركز على جوانب طبيعية لم يركز عليها غيره ومنهم من أهمل دراسة بعض الجوانب قاصرا دراسته على ما رآه الأقرب من العملية السمعية[1] .

وعلى الرغم من كون الهدف الأساس من دراسة الأصوات من الجانب الطبيعي عند الفلاسفة الوقوف على تفسير دقيق لظاهرة النغم التي أولوها عناية خاصة في دراستهم ،نجد أنّ هذه الدراسة قد مثلت المدخل الأساس لدراسة الصوت اللغوي وهو مسار أثبتت الدراسات الصوتية الحديثة صحته ورجحته على غيره من الدراسات،إذ اهتم المحدثون في دراستهم بالدراسة الطبيعية (الفيزيائية) وجعلوها مدخلا أساسيا في دراستهم الصوتية ومنطلقا لدراسة علم الأصوات النطقي[2].

ولعل من أبرز الجوانب الطبيعية التي تناولتها مدرسة الفلاسفة المسلمين الصوتية هي :

١. حدوث الصوت :

طرح الفلاسفة المسلمون مسألة حدوث الصوت طرحا دقيقا وهو الأمر الذي جعله صورة أولى شابهت ما قاله المحدثون من بعدهم في دراساتهم ،إذ ذهبت المدرسة الفلسفية إلى القول أن السبب الأساس في حدوث الصوت هو عملية قرع جسم لجسم آخر واشترطوا في هذا الجسم شروطا منها ؛الصلابة والملاسة وقوة القرع فضلا عن وجود الوسط

---

١) ينظر: علم الأصوات الموجي والسمعي:٦٠.

٢) ينظر على سبيل المثال: الأصوات اللغوية : ٦-٢٦ ، والكلام إنتاجه وتحليله : ٢١٦ ، ودراسة الصوت اللغوي : ١- ٤٣، ودراسة السمع والكلام : ٢٥ .

الناقل للصوت .

فقد ذهب الفارابي إلى تحديد سبب حدوث الصوت بقوله : ((هو مماسة الجسم الصلب جسما آخر صلبا مزاح له عن حركته))[١]، ولا ندري كيف استساغ بعضهم القول بأنه :((قد بلغت فكرة إصدار الصوت نضجها عند الفارابي فقد تحدث عن مصدر الصوت وعزاه إلى تصادم الأجسام بعضها مع بعض))[٢] مع أن الفارابي كان أول الفلاسفة الذين أشاروا إلى هذه العملية وليس إخوان الصفا كما ذهب الباحث وذلك بحكم الزمن الذي عاشه الاثنان.

وإلى ذلك ذهب أيضا إخوان الصفا الذين عدّوا قرع الجسم الصلب لجسم صلب آخر مثله سببا في حدوث الصوت[٣]إذ تحدث إخوان الصفا في اكثر من موضع عن مصدر الصوت،واصطلحوا على تسميته(بالقرع) فقالوا: ((....ولربما احتك بعض الأحجار ببعض ،فيحدث من بينهما قرع في الهواء ،والصوت قرع يحدث من الهواء إذا صدمت الأجسام بعضها بعضاً ،فتحدث بين ذينك الجسمين حركة عرضية تسمى صوتاً ،بأي حركة تحركت، ولأي جسم صدمت ومن أي شي كانت ،وهذه الأصوات تنقسم قسمين حيوانية وغير حيوانية،......وجميع هذه ،طبيعية وصناعية ،لا يحدث فيها صوت ولا يسمع لها حركة إلا من تصادم بعضها ببعض ،وامتزاج بعضها ببعض ،فإنه لولا أن الزامر ينفخ في الناي والمغني يحرك الوتر ،والناقر ينقر الحجر ،لم يوجد لذلك صوت ولا يسمع له حس))[٤]ومن ذلك أيضاً قولهم : ((وكل هذه الأصوات إنما هو قرع يحدث في الهواء عن تصادم الأجرام ،وذلك أن الهواء بشدة لطافته وخفة جوهره وصفاء طبعه وسرعة حركة أجزائه ،يتخلل الأجسام كلها،فإذا صدم جسم جسماً آخر انسل ذلك الهواء وتدافع إلى جميع الجهات وحدث منه شكل كما ذكرنا أولاً ،فيصل بمسامع الحيوان))[٥] ،وفي هذه النصوص ينكشف لنا مدى الدقة والفهم لنوع الصوت ومصدره عند إخوان الصفا .

ولعل التميز في وصف عملية حدوث الصوت في هذه المدرسة وجِد على يد ابن

---

١) الموسيقى الكبير : ٢١٢ .

٢) منهج الدرس الصوتي عند العرب (اطروحة) : ٢٧.

٣) ينظر : رسائل إخوان الصفا :٣٩٢/١.

٤) المصدر نفسه : ٩٥/٣.

٥) المصدر نفسه : ١٣٣/٣.

سينا الذي ذهب إلى القول بأنّ القلع هو السبب الآخر لحدوث الصوت فضلا عن القرع، فهو يرى أنّ ((... الصوت بّين واضح من أمره أّنه يحدث وأّنه ليس يحدث إلا عن قلع أو قرع وأما القرع فمثل قرع صخرة أو خشبة فيحدث صوت،وأما القلع فمثل ما يقلع أحد شقي مشقوق عن الآخر كخشبة ينحى عليها بأن يبين أحد شقيها عن الآخر طولا))[١].

والى ذلك ذهب البيروني الذي كان ينظر إلى هذا الأمر نظرة سابقيه إلا انه لم يفصل القول فيه[٢]؛ وعرف ابن باجة الصوت بأنه الأثر الحادث في الهواء عن تصادم جسمين متقاومين[٣]،

ونجد ابن رشد يشير إشارة سريعة إلى القرع وذلك في حديثه عن الفرق بين الصوت والحرف فقال:((إن الصوت عنصر للحرف كما ان النحاس عنصر للصنم، إلا أن الصوت ليس عنصرا محضا للحروف، ويشبه أن يكون الفرق بين الصوت في كونه عنصرا للصنم أن الصوت لا يقرب من صورة ما قبل القارع له، لذلك كان النحاس عنصرا محضا ولم يكن الصوت للحروف عنصرا محضا، ولكن يشبه العنصر من جهة قبوله للحروف، ويشبه الجنس من جهة انه لا ينفك عن أنواع الأصوات))[٤] فهو يشير إلى أن الصوت يحدث عن عملية القرع للأجسام .

وإلى ذلك أشار عبد اللطيف البغدادي حين ذهب إلى أن الأثر الحادث في الهواء عند إدراكه يسمى صوتاً [٥].

ومن هنا يتضح لنا مقدار العمق الفكري في الطرح الصوتي عند الفلاسفة المسلمين إذ أدركت مدرستهم الصوتية كيفية حدوث الصوت عموما وحدوث الصوت اللغوي على وجه الخصوص ،وهي لا تختلف . فيزيائيا . عنها[٦]، فطرحهم لهذه الأفكار
كان بمثابة نظرية دلت على الطبيعة الفيزيائية للطرح الصوتي في هذه المدرسة ،وهي نظرية علمية تدل على فهم عميق لأثر الذبذبات ووصول الأثر السمعي للصوت الذي

---

١) الشفاء الطبيعيات :علم النفس :٨٢،وينظر تفصيل هذا القول وتميز ابن سينا في هذا المجال في الدرس الصوتي عند ابن سينا (رسالة) : ٦٥ وما بعدها .

٢) ينظر: الجماهر في معرفة الجواهر:٤٠.

٣) ينظر:كتاب النفس : ١١١.

٤) تفسير ما بعد الطبيعة : ٩٥٣.

٥) ينظر:مقالتان في الحواس : ٨٤.

٦) تجدر الإشارة هنا إلى أنّ لهذه المدرسة رأياً في الفرق بين الصوت والحرف وقد بينا ذلك في رسالتنا للماجستير كما بينه غيرنا من بعدنا فعزفنا عن إعادته هنا ، ينظر: الدرس الصوتي عند ابن سينا (رسالة) :٦١ ،وينظر : منهج الدرس الصوتي عند العرب (اطروحة) : ١٧.

يستند إلى عمليتين مهمتين هما : القرع والقلع ومنهما تحدث الاهتزازات وتنتقل في الهواء إلى جميع الاتجاهات [1].

٢. انتقال الصوت :

لم تهمل المدرسة الفلسفية أمر انتقال الصوت اللغوي ووصوله إلى الآلة السامعة له،بل أولت هذا الأمر عناية كبيرة فتنبهت إلى كونه العنصر الآخر المتمم لعملية حدوث الصوت اللغوي ، وأنّ الموجة الصوتية تنتقل على شكل كروي يتسع ويضيق بحسب قوته وبعده عن المصدر إلى أن يضمحل وهو أمر أثبتته الدراسات الصوتية الحديثة[2].

فقد تحدث الفارابي عن انتقال الصوت مشيرا إلى الطريقة التي ينتقل بها الهواء بعد حمله للصوت فقال :((أما كيف يتأدى إلى السمع فإن الهواء الذي ينبو من المقروع هو الذي يحمل الصوت فيحرك مثل حركته الجزء الذي يليه فينقل الصوت الذي كان قبله الأول ويحرك الثاني ثالثا يليه فيقبل ما قبله الثاني، والثالث رابعا يليه، فلا يزال هذا التداول من واحد إلى واحد حتى يكون آخر ما يتأدى إليه من أجزاء الهواء هو الهواء الموجود في الصماخين،وهواء الصماخ ملاق للعضو الذي فيه القوة التي بها يسمع ويتأدى ذلك إلى القوة السامعة فيسمعه الإنسان))[3] . وفي ذلك النص إشارة واضحة إلى الكيفية التي بوساطتها ينتقل الصوت من مكانه وصولا إلى الحاسة السامعة .

وقد كان هذا النص . بسبب دقته . مدعاة لقول بعض الدارسين المحدثين إن كلام الفارابي ((فيه إشارة إلى ما يسمى حديثا (بالرنين) الذي هو ظاهرة جعل جسم ما يتحرك عن طريق ذبذبات جسم آخر ،أي تقوية الصوت الصادر من جسم ما باهتزاز جسم آخر متأثرا بالجسم الأول فالجسم المتذبذب ينقل ذبذبته إلى جسم آخر يليه، لأن كل ذبذبة تميل إلى تحريك الأجسام المرنة التي توجد على طريق موجتها الصوتية))[4]،ولا يبدو لنا أن الفارابي أراد الحديث عن الرنين وإنما أراد أن يبين بشكل دقيق الكيفية التي ينتقل بها الصوت وهي أن تحرك الموجة الصوتية الموجة الصوتية الثانية التي تلامسها.

---

١) ينظر: علم الأصوات السمعي والموجي عند علماء المسلمين القدماء : ١٠٢.

٢) ينظر: دراسة الصوت اللغوي:١٠، وينظر: علم الأصوات العام : ٣٢.

٣) الموسيقى الكبير:٢١٦.

٤) منهج الدرس الصوتي عند العرب (اطروحة):٤٥ .

وقد أشار الفارابي إلى الموجة الصوتية أثناء حديثه عن انتقال الصوت حيث ذهب إلى أن الهواء يحمل الصوت فيحرك بمثل حركته الجزء الذي يليه فينتقل الصوت الذي كان قبله الأول ويحرك الثاني ثالثا يليه فيقبل ما قبل الثاني والثالث رابعا يليه، فلا يزال هذا التداول من واحد إلى واحد حتى يكون آخر ما يتأدى إليه من أجزاء الهواء هو الهواء الموجود في الصماخين إلى أن يلاقي القوة التي بها يسمع وقد أبرز تلك الإشارة بقوله : ((يكون هذا الهواء نفسه إذا فارق الذي عنه نبا، يتفق فيه أن يصدم جسما آخر فينبو عنه أيضاً وينكفئ فيصدم من خلفه آخر ثم ينكفئ أيضاً فيصدم آخر ولا يزال هذا التداول حتى تسكن حركته فتضعف موجته حتى يسكن)) [١].

وحصره إخوان الصفا بالهواء ((وذلك أنّ الهواء لشدة لطافته وصفاء جوهره وسرعة حركة أجزائه يتخلل الأجسام كلها،ويسري فيها ويصل إليها ويحرك بعضها إلى بعض فإذا صدم جسم جسما انسل ذلك الهواء من بينهما، وتدافع وتموج إلى جميع الجهات وحدث من حركته شكل كروي فاتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج وكلما اتسع ذلك الشكل ،ضعفت قوة ذلك الصوت إلى أن يسكن ....)) [٢].

وقد ذهبوا إلى أن تموج الهواء ينتشر في جميع الجهات ويحدث على شكل كروي يتسع ويضيق فإذا اتسع الشكل ضعفت حركته وتموجه إلى أن يسكن ويضمحل وذلك أنّه إذا ((صدم جسم جسماً ،انسل ذلك الهواء من بينهما ،وتدافع التموج إلى جميع الجهات،وحدث من حركته شكل كروي يتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج .وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت قوة ذلك الصوت إلى أن يسكن .ومثال ذلك إذا رميت في الماء الهادئ الواقف في مكان واسع حجراً فيحدث في ذلك الماء دائرة من موضع وقع الحجر فلا تزال تتسع فوق سطح الماء وتتموج إلى سائر الجهات .وكلما اتسعت ضعفت حركتها حتى تتلاشى وتذهب))[٣].

ويريد إخوان الصفا بقولهم (تتلاشى وتذهب) أنّ الموجة الصوتية إذا استمرت في تموجها تكبر سعة الموجة الصوتية، فيكون وقع الذبذبات الصوتية على الأذن قويا في حالة ضيق الشكل الكروي في حين يكون تأثيره على الأذن ضعيفا في حالة سعة الشكل

١) الموسيقى الكبير: ٢١٦.

٢) رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا: ١٨٨/١.

٣) المصدر نفسه :١٠٢/٣و١٠٣.

الكروي . وعلى هذا يترتب ارتفاع الصوت مع ضيق الشكل الكروي لقربه من المصدر وانخفاضه مع سعة الشكل الكروي لبعده عن المصدر وهو ما ذهب إليه المحدثون عينه[١].

أي إن الصوت ينتقل في الهواء بصورة اهتزازات دائرية الشكل فيشكل موجة صوتية يؤثر بعضها على بعض عن طريق انتقال الحركة إلى الأجزاء التي تليها فيتحقق من ذلك انتقال الصوت مع اتساع رقعته في الانتقال إلى أن يتلاشى .

أما ابن سينا فيرى : ((إن التموج ليس هو حركة انتقال من هواء واحد بعينه بل كالحال في تموج الماء يحدث التداول بعد صدم مع سكون قبل سكون وهذا التموج الفاعل للصوت سريع لكنه ليس بقوي الصك)) [٢].فيكثر تردد الموجة الصوتية عندما تتصل أجزاؤها ويقل تردد الموجة عندما تتشظى أجزاؤها وتتشذب[٣].

ويذهب ابن باجة إلى القول بأن مصدر الصوت هو الأثر الحادث من تصادم جسمين متقاومين،فإن كانت هذه الأجسام صلبة فعند قرعها بقارع يحدث عنها صوت، أما إذا كانت رطبة فلا يحدث ذلك الصوت إلا إذا كانت حركة القارع إلى المقروع أسرع من انحراف ذلك الرطب فتقاومه ، فيتحرك الذي فيه تلك الحركة وينبو عنها، وتتدفع منه إلى جميع الجهات التي تلي المكان الذي التقى فيه القارع والمقروع ، والهواء المندفع عن القارع يحمل أثرا خاصا به[٤].

وحاول عبد اللطيف البغدادي أن يعلل الطريقة التي ينتقل بها الصوت ولم يبتعد كثيرا عن رأي سابقيه فذهب إلى القول بأن الهواء الناتج من تصادم الأجسام بقوة يتأثر بذلك الأثر ويتدافع مع مجاوره حتى يصل إلى العصب المفروشة على الصماخ، وبّن إن هذه الحركة التداولية تكون على شكل دوائر أو قطع دوائر ذلك ((لأن الهواء بسيط لا يقبل ما كان من الأشكال ذا زوايا . . .))[٥].

---

١) ينظر : المنظومة الكلامية:٥١.

٢) الشفاء ،الطبيعيات :٨٩ ، وينظر :الدرس الصوتي عند ابن سينا (رسالة):٧٩.

٣) ينظر:الدرس الصوتي عند ابن سينا (رسالة) : ٨٥.

٤) ينظر: كتاب النفس : ١١١.

٥) مقالتان في الحواس : ٨٤.

وذهب الدرس الصوتي إلى أن موجات الماء السطحية تشارك بعض صفات الموجات السمعية الهوائية، إذ تتشكل الموجات المائية من ذبذبات الجزيئات المائية تماما كما تتشكل الموجات الصوتية من ذبذبات الجزيئات الهوائية، ويقع الاختلاف بين الصنفين من الموجات في أن تذبذب الجزيئات الهوائية تكون في اتجاه حركة الموجة نفسه، في حين يتجه تذبذب الجزيئات المائية في الموجات المائية السطحية باتجاه الأعلى والأسفل بشكل رئيس وبزوايا قائمة وباتجاه حركة الموجة، وعوضا عن ظاهرتي الضغط والخلخلة في الموجات الهوائية تشكل الموجات المائية السطحية قمما وأغوارا على مستوى سطح الماء[١].

أي إنّ الصوت ينتقل في الهواء بصورة اهتزازات موجية ، وان أجزاء الهواء التي تصاب بحركة تهتز فتنتقل الحركة إلى الأجزاء التي تليها وهكذا يتم انتقال الصوت [٢].

٣. سرعة الصوت:

لجأ الفلاسفة المسلمون في قياس سرعة الصوت إلى موازنته بالضوء ورؤية المصدر الذي يحدث عنه الصوت واستطاعوا الوصول إلى حقيقة مهمة مفادها أن الضوء أسرع من الصوت على الرغم من عدم استعمال الأجهزة الصوتية الحديثة التي استعملها المحدثون .

فقد أخذ الفارابي من حديثه عن القرع كونه السبب في حدوث الصوت سببا في حديثه عن سرعة الصوت ،فهو يرى أنّ الهواء إذا اندفع بشدة وكان الصوت أشد اتصالا كان الصوت أسرع وإذا كانت أجزاء الصوت أكثر تباعدا وأقل اتصالا كان الصوت أبطأ[٣].

فسرعة الصوت . كما يراها الفلاسفة . تعتمد على سرعة القارع وسرعة انسلال الهواء منه ومقدار تموج الهواء وبعد القارع عن الأذن فذهب إخوان الصفا إلى أن عملية القرع إذا حدثت يتحرك الهواء بشكل كروي وتكون حركته في جميع الاتجاهات بشكل كروي يتسع باتساع القارورة إذا نفخ الزجاج فيها ويبدأ الصوت بالضعف باتساع الشكل الكروي لضعف حركته وتموجه إلى ان يسكن ويضمحل [٤].

---

١) ينظر: المنظومة الكلامية:٤٢.

٢) ينظر: علم الأصوات الموجي والسمعي عند علماء المسلمين القدماء: ١٠٥.

٣) ينظر: الموسيقى الكبير: ٢١٢-٢١٤.

٤) ينظر: رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا :١/١٨٨.

وذهب ابن سينا إلى أنّ الصوت أسرع من الضوء وأرجع السبب في ذلك إلى ((أنّ البرق يحس في الآن بلا زمان والرعد الذي يحدث مع البرق يحس بعد زمان لأن الأبصار لا يحتاج فيه إلا إلى موازاة وإشفاق ، وهذا لا يتعلق وجوده بزمان، و أما السمع فيحتاج فيه إلى تموج الهواء أو ما يقوم مقامه، ينتقل به الصوت إلى السمع وكل حركة في زمان ، ولهذا عادة ما يرى وقع الفأس إذا كان يستعمل في موضع بعيد قبل أن يحس بالصوت بزمان محسوس القدر، و أما إذا قرب فلا يمكنك أن تفرق بين الزمان القصير وبين الآن))[١]،وقد كان ابن سينا مخطئا حين قال إن الإبصار لا يحتاج إلى زمان[٢].

ولم يخرج ابن رشد عن رأي ابن سينا هذا بل تبعه فيه فقال: ((إن الإضاءة من الكمالات التي ليست منقسمة بانقسام الجسم ولا حاصلة في زمان))[٣]،ويحاول ابن رشد أن يسند تعليله هذا باستدلال منطقي فيقول : ((وكما أنّ القرع يؤدي بالحركة إلى أنّ تعرض فيه ولما كانت كل حركة في زمان كان هذا الإدراك أيضاً في زمان بخلاف ما عليه الأمر في الأبصار ولذلك ما يسمع الرعد بعد رؤية البرق والسبب ان الفاعل لهما واحد))[٤] .

ويسمي المحدثون سرعة الصوت (الشدة الصوتية) وهم يرون أنّ شدة توتر الصوت تزداد إذا قرب من مصدره، وتضعف إذا بعد عن مصدره، لأن الصوت مهما كان مصدره يحتوي على اضطراب مادي في الهواء يتمثل في قوة أو ضعف سريعين للضغط المتحرك من المصدر ثم يضعف تدريجيا حتى ينتهي إلى نقطة الزوال النهائي[٥].

---

١) الشفاء : الطبيعيات : المعادن والآثار العلوية :٦٩.

٢) ينظر الدرس الصوتي عند ابن سينا(رسالة): ٨٢.

٣) رسائل ابن رشد ، كتاب النفس : ٢٨ .

٤) المصدر نفسه: ٣١.

٥) ينظر :دراسة الصوت اللغوي: ٤ و٨.

٤- درجة الصوت :

يتوقف ضغط الصوت على سرعة ذبذبات الصوت وعددها ،وبهذه السرعة والعدد يكون الصوت دقيقا أو مرتفعا ،أو منخفضا أو سميكا ،وبهما يسمى الصوت حادا او غليظا،وبهذه الصفات يستطيع السامع التفريق بين الأصوات الدقيقة والسميكة[١] .

وتنبهت المدرسة الفلسفية إلى هذا الأمر وتحدث علماؤها عنه ،إذ ذهب الفارابي إلى القول بأن درجة الصوت تعتمد على حدته وثقله وشدة القرع تلك الشدة التي تعتمد على نوع الجسم المقروع وملاسته ، فإذا كان الجسم المقروع شديدا كان الصوت حادا ، وقوة الجسم المقروع وملاسته تؤثر في درجة الصوت –أيضاً – فكلما كان الجسم المصدوم أكثر صلابة وملامسة كان الصوت أكثر حدّة((. . . ومتى نبا الهواء من بين القارع والمقروع، متجمعا متصل الأجزاء أحدث حينئذ صوتا، وكلما كان الهواء النابي من بينهما أشد اجتماعا فحدوث الصوت فيه أمكن و أجود ،ومتى كان المقروع خشنا أو متخلخلا كان ذلك فيه أقل إمكانا))[٢].

ولا يفرق الفارابي في حديثه عن درجة الصوت وأسباب حدوثه بين النغم الإنساني و النغم الصادر من المزامير فهو يقول : ((و أسباب الحدة والثقل في النغم الإنسانية هي بأعيانها أسباب الحدة والثقل في النغم المسموعة من المزامير فإنّ الحلوق كأنها مزامير طبيعية والمزامير كأنها حلوق صناعية))[٣].

وذهب إخوان الصفا إلى القول بأن((الأصوات الحادة والغليظة متضادتان، ولكن إذا كانت على نسبة تأليفية ائتلفت وامتزجت واتحدت وصارت لحنا موزونا واسعد السامع وفرحت بها الأرواح وسرت بها النفوس، وإذا كانت على غير النسبة تنافرت وتباينت ولم تألف سماعها ولم تستلذها المسامع، بل تنفر عنها، وتشمئز منها النفوس))[٤].

ولم يكن إخوان الصفا في حديثهم عن درجة الصوت أقرب إلى الدقة والوضوح من الفارابي إلا أنّهم استطاعوا أن يميزوا بين درجة الأصوات من حيث كونها غليظة وحادة، فضلاً على أن قولهم بأنه إذا التقت الأصوات بنسبة تأليفية امتزجت واتحدت وصارت لحنا

---

١) ينظر :دراسة الصوت اللغوي: ٨٢.

٢) الموسيقى الكبير: ٢١٢/١.

٣) المصدر نفسه :١٦٦/١.

٤) رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا : ١٩٥/١.

موزونا اسعد السامع، وإذا كانت بغير نسبة تنافرت فلم يستلذها السامع، إنما هو إشارة إلى ما يسمى (الصفات الأكوستيكية للأصوات) التي تقسم الأصوات إلى قسمين : أصوات موسيقية وأصوات ضوضائية بناء على انتظام الذبذبات وعدم انتظامها، فمتى انتظمت ذبذبات هواء الصوت كان الصوت موسيقيا، وإن لم تنتظم كان الصوت ضوضائيا[1].

ولم يبتعد ابن سينا في حديثه عن درجة الصوت كثيرا عن حديث الفارابي، فتحدث عن درجة الصوت من خلال حديثه عن الحدة والثقل –أيضاً – فبين أنّ الحدة هي قوة تراص أجزاء من موج الهواء الناقل للصوت، أما الثقل فيكون عكس ذلك[2]،فكلما زادت صلابة الجسم المقروع زادت حدة الصوت، أما أسباب الحدة والثقل فقد أعاد ابن سينا الأسباب نفسها التي ذكرها الفارابي والتي أشرنا إليها سابقا[3].

ولم يذهب ابن رشد إلى ما ذهب إليه الفارابي وابن سينا كما ذكر بعض الباحثين[4]، فلم يكن تحديده بالدقة التي كان عليها سابقيه من الفلاسفة وإن تنبه على ما لم يتنبهوا عليه وهو حجم القارع ؛ فإذا كان حجمه كبيرا كان الصوت الصادر منه أغلظ إذ قال: ((فأما العلة التي من أجلها يكون الصوت من الأجسام الصلدة ، فلأنها إذا تلاقت بسطوحها لم يطأ بعضها عن بعض فيطفوا الهواء عنها بشدة ولذلك ما كان منها أعرض كان صوته أعظم))[5].

وفرق ابن رشد بين الأصوات التي تحدث في الأشكال المجوفة من الأجسام والأشكال الصلدة، فالصوت يكون قويا عندما يصدر عن الأجسام الصلدة، في حين أنّ الأجسام المجوفة تصدر صوتا أقل حدة من سابقه[6].

---

١) الصوتيات:٥١-٥٢ وينظر: منهج الدرس الصوتي عند العرب (اطروحة) : ٦١ .

٢) ينظر :الشفاء : الرياضيات : جوامع علم الموسيقى:١٠.

٣) ينظر: الدرس الصوتي عند ابن سينا(رسالة) :٨٤ ، والبحث الصوتي والدلالي عند الفيلسوف الفارابي(رسالة) : ٦٥.

٤) ينظر: منهج الدرس الصوتي عند العرب (اطروحة) : ٢ .

٥) رسائل ابن رشد : كتاب النفس:٣١.

٦) ينظر: المصدر نفسه:٣٢.

ومن عرضنا لهذه الآراء لعلماء المدرسة الفلسفية حول درجة الصوت نرى أنّ فكرة الحدة والثقل (درجة الصوت)عندهم تعتمد على القول بأن قوة الحركة وضعفها هما السببان اللذان يؤثران على ضغط الهواء ويؤديان إلى اضطرابه ،وهو الأمر الذي يؤثر في ارتفاع درجة الصوت وقلته .

ويمكننا أن نميز بوساطة الحدة والثقل بين الصوت الخفيض والصوت الحاد ،وهما يرتبطان بسرعة الحركة الاهتزازية، فالتواتر العالي يولد صوتا حادا والتواتر الضعيف يعطي صوتا خفيضا [١].وهاتان العمليتان تكسبان الصوت صفة القوة والضعف بوصفهما مقياسا للطاقة التي تنتجها الحركة الاهتزازية الصادرة عنهما،فإذا قرعنا جسمين متماثلين برفق وجسمين آخرين بقوة فإن الفرق بين الصوتين الناتجين هو أنّ أحدهما خفيض، أما الآخر فيكون قويا ويمكن سماعه من بعد، وذلك لأن الحركة القوية ستؤدي إلى اضطراب أكبر في ضغط الهواء والعكس صحيح ، وهذا ما يعبر عنه في الدرس الصوتي الحديث بالشدة التي تكون نتيجة سعة حركة اهتزاز الصوت وتترجم طبيعيا بالضغط والقوة [٢].

٥- الصدى :

لم يكن مفهوم الصدى واضحا عند علماء العربية حتى عند عدد من الفلاسفة المسلمين فنحن لا نجد إلا إشارات يسيرة إلى حركة الصوت وارتداده عند الفارابي و إخوان الصفا.

إلا أنّنا نجد نظرة فيزيائية دقيقة لمفهوم الصدى عند ابن سينا ومن بعده ابن رشد ، فقد ذهب ابن سينا في تعريف الصدى إلى القول بأنه((يحدث من تموج يوجبه هذا التموج إذا قاومه شيء من الأشياء كجبل أو جدار حتى إذا وقفه لزم أن ينضغط أيضاً بين هذا التموج المتوجه إلى قرع الحائط أو الجبل وبين ما يقرعه هواء آخر يردّ ذلك ويصرفه إلى جهة خلت منه بانضغاط ، فيكون شكله الشكل المحول على هيأة))[٣]،ويرى أن ما يميز بين الصدى والصوت هو أن الصدى لا يحدث عن قرع جسم لجسم آخر و إنما هو ارتداد الصوت الذي يصطدم بجسم آخر إلى المصدر الذي انطلق منه لأن قرع مثل هذا الهواء

---

١) ينظر:علم الأصوات العام: ٣٩.

٢) ينظر :علم الأصوات العام:٤٠-٤١.

٣) الشفاء : الطبيعيات : علم النفس:٨٨ .

قرع ليس بالشديد ولو كان شديدا بحيث يحدث صوتا لأضر بالسمع وأن الصدى صفة تلحق كل الأصوات وإن كانت لا تسمع[1] .

فالصدى كما يراه ابن سينا ما هو إلا((الارتداد الحاصل للهواء الناقل للصوت نتيجة اصطدامه بجسم ما، فيرجع هذا الهواء على شكل صدى للصوت الأول فيحمل بذلك صفة الصوت الأول وهيأته .وقد ربط ابن سينا بين إرسال الصوت واستقباله عن طريق الصدى، ويعطينا –أيضاً – وسيلة إدراك الصدى من جانب سمعي يرتكز على أوليات الإدراك الحسي، وهو شبيه بالإدراك الرياضي الذي يلجأ إلى التعميم القائم على مدركات حسية متوازنة، تعتمد طرفين، تموجا أول وتموجا ثانيا، ويخلص إلى أن التموج الثاني هو الذي يحدث الصدى لاعتماده رجع التموج الأول الناقل للصوت الذي لا يمكنه أن يولد صوتا من تموج ثانٍ لأنه ليس له قدرة إسماعية شديدة متحصلة من القرع ولو توافرت له لأضرت بالسمع))[2].

ويذهب ابن سينا أيضا إلى القول بأن((المسافة إذا كانت قريبة بين المصوت وبين عاكس الصوت لم يسمعا في زمانين متباينين، بل يسمعان معا كما يسمع صوت القرع معه، وان كان بعده بالحقيقة))[3]وهو بذلك يبين السبب الذي لأجله لا يسمع الصدى في الأصوات التي نتحدث بها في المنازل والبيوت .

ولم يبتعد ابن رشد في مفهومه للصدى كثيراً عن مفهوم ابن سينا فهو يرى أن الصدى انعكاس للصوت، لأن الأصوات تحدث عن القرع وأن أي قرع يحدث معه انعكاس،هذا الانعكاس الذي ييسر حدوث العملية الصوتية وسماع الإنسان صوته، ويشير ابن رشد إلى أن الصدى يحدث في الأجسام ذات الأشكال المجوفة فهو يقول: ((وأما ذوات الأشكال المجوفة فالأمر في ذلك بين وذلك أن الهواء يندفع من جوانبها مرارا كثيرة فيحدث هناك صوت طويل ، ومن هذا الجنس حدوث الصدى وذلك أنه ليس شيئا أكثر من انعكاس الهواء عن الجسم الذي يلقاه حافظا لذلك الشكل))[4].

ومن هنا يتبين لنا أنه على الرغم من عدم وجود مفهوم دقيق للصدى عند عدد من علماء المدرسة الفلسفية إلا أنهم لم يهملوا تعريفه ،وهو الأمر الذي سهل على اللاحقين منهم بيانه بشكل قارب في مفهومه مفهوم المحدثين الذين ذهبوا إلى تعريفه بقولهم إن الصدى هو((تكرار الصوت الأصلي الذي يحدث نتيجة لانعكاس الأمواج

١) ينظر: الدرس الصوتي عند ابن سينا (رسالة): ٥٣.

٢) منهج الدرس الصوتي عند العرب (اطروحة) : ٤٥ .

٣) الشفاء : الطبيعيات : علم النفس : ٨٨.

٤) رسائل ابن رشد : النفس : ٣٢.

الصوتية،ويسمع بوضوح بعد زوال التأثير الذي يحدثه الصوت الأصلي على الأذن))[1]، وبذلك نستطيع أن نلمح القرب الكبير بين ما ذهب إليه الفلاسفة المسلمون وما ذهب إليه المحدثون في مفهوم الصدى .

---

١) علم اللغة النفسي : ٤٧ .

المبحث الثاني :

علم الأصوات النطقي وكيفية السمع:

١. أعضاء النطق:

لم تعد نظرة العديد من الدارسين الذاهبة إلى القول بأن العلماء العرب لم يكونوا عارفين بالأعضاء النطقية معرفة دقيقة مقبولة وذلك بعد العثور على العديد من النصوص التي تدل على هذه المعرفة إذ ((يعد الإمام جعفر الصادق (ع) (ت ١٤٨ ﻫ) من أوائل العلماء العرب الذين وصفوا الأعضاء النطقية وصفا دقيقا يكاد يقرب من الوصف الحديث، وذلك من خلال ما نقله عنه أبو عبد الله المفضل (كان حّيا عام ١٨٣ﻫـ) في كتابه (توحيد المفضل)، إذ وصف تلك الأعضاء بـ(آلات النطق الإنساني)، وتتبعها من الحنجرة حتى الشفتين ، إذ قال مخاطبا المفضل : ((أطل الفكر يا مفضل في الصوت والكلام وتهيئة آلاته في الإنسان، فالحنجرة كالأنبوبة لخروج الصوت، واللسان والشفتان والأسنان لصياغة الأصوات والنغم، ألا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقم السين، ومن سقطت شفته لم يصحح الفاء، ومن ثقل لسانه لم يفصح الراء، وأشبه شيء بذلك المزمار الأعظم، فالحنجرة تشبه قصبة المزمار، والرئة تشبه الّرق الذي ينفخ فيه لتدخل الريح، والعضلات التي تقبض على الرئة ليخرج الصوت كالأصابع التي تقبض على الّرق حتى تجري الريح في المزامير، والشفتان والأسنان التي تصوغ الصوت أصواتا ونغما كالأصابع التي تختلف في فم المزمار، فتصوغ صفيره ألحانا غير أّنه وإن كان مخرج الصوت يشبه المزمار بالآلة والتعريف، فإن المزمار في الحقيقة هو المشبه بمخرج الصوت))[١].

فهذا النص يدل دلالة واضحة على معرفة دقيقة بأعضاء النطق وإدراك لوظائفها الصوتية ،وهو سابق للكثير من النصوص الأخرى الدقيقة التي تحدثت عن أعضاء النطق،تلك النصوص التي كان من أبرزها نصوص علماء المدرسة الفلسفية الذين كانوا دقيقين في أكثرها،إذ وصف الكندي هذه الأعضاء وبين مخارج الأصوات في ضوئها إلا أنه لم يتحدث عنها بالدقة التي تحدث بها من جاء بعده [٢]،فقد ذهب الفارابي إلى تسمية

---

١) توحيد المفضل : ٦٢-٦٣ ، وينظر: منهج الدرس الصوتي عند العرب ٦٥ .

٢) ينظر :رسائل الكندي الفلسفية : ٥٢٦و٥٢٧.

هذه الأعضاء بأعضاء النطق وهي تسمية دقيقة[١]،((وهو بذلك مهد لاستقرار مفهوم المصطلح ودلالته ، وأدرج فيه مجموعة من الأعضاء التي لها أثر مهم في إنتاج الأصوات اللغوية إلا أنه اكتفى بسرد هذه الأعضاء من دون أن يفصّل القول فيها))[٢].فقد اكتفى بذكر أسماء بعض تلك الأجزاء ولم يشرح وظيفتها التي تقوم بها،كما في حديثه عن (اللهاة) فقال : ((والحرف صوت له فضل من يحدث فيه بقرع شيء من أجزاء الفم من لهاة أو شيء من أجزاء الحلق))[٣]،وكذلك عند حديثه عن الأنف والفم[٤].

والخطوة الكبرى التي أحدثتها هذه المدرسة في هذا الموضع كانت على يد ابن سينا الذي تحدث بشكل مفصل عن أعضاء النطق وهو الأمر الذي ميزه عن بقية الدارسين إذ استطاع في دراسته لأعضاء النطق أن يبين وظيفة كل عضو وأن يشرح شكله ويحدد مكانه وطريقة مرور الهواء من خلاله ومساهمته في النطق فقد افرد فصلا كاملا في رسالته أسباب حدوث الحروف تحدث فيه عن هذه الأعضاء فضلا على بقية كتبه إذ تحدث عن الحجاب الحاجز والرئتين وقصبة الرئة والحنجرة ولسان المزمار والعظم اللامي واللهاة والأنف والحنك واللسان والأسنان والشفتين[٥] .

ولم نجد هذا التفصيل عند بقية علماء المدرسة وانما اكتفوا بترديد ما ذكره السابقون أو بالإشارة إلى هذه الأعضاء .

٢. إنتاج الكلام:

لم تهمل مدرسة الفلاسفة الحديث عن إنتاج الصوت اللغوي وكيفية حدوثه ،فقد أشار إلى ذلك علماؤها حيث ذهب الفارابي إلى القول بأن الأصوات تحدث ((من القرع بهواء النفس بجزء أو أجزاء من حلقه أو بشيء من أجزاء ما فيه وباطن أنفه أو شفتيه فإن هذه هي الأعضاء المقرعة بأعضاء النفس ،والقارع أولا هي القوة التي تسرب هواء النفس من الرئة وتجويف الحلق أولا فأولا إلى طرف الحلق الذي يلي الفم والأنف والى ما بين الشفتين

---

١) الموسيقى الكبير : ١٠٦٨.

٢) الدرس الصوتي والدلالي عند الفيلسوف الفارابي(رسالة) : ٥٠ ، وينظر: الموسيقى الكبير : ١٠٦٨.

٣) شرح العبارة : ٢٩.

٤) ينظر: الحروف :١٣٦، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الفارابي حاول أن يبين وظيفة عدد من أعضاء النطق ومنها الحلق وأجزائه واللسان والأسنان،ينظر: المصدر نفسه : ١٣٦ .

٥) ينظر: أسباب حدوث الحروف : ٧٢، والقانون في الطب :١١٢٢و١١٤٥، و ينظر تفصيل ذلك في : الدرس الصوتي عند ابن سينا(رسالة) : ٨٩-١١٠ .

،ثم اللسان يتلقى ذلك الهواء فيضغطه إلى جزء جزء من أجزاء باطن الفم والى جزء جزء من أجزاء أصول الأسنان فيقرع به ذلك الجزء فيحدث من كل جزء يضغطه اللسان عليه ويقرعه به تصويت محدود وينقله اللسان بالهواء من جزء إلى جزء من أجزاء اصل الفم فتحدث تصويتات متوالية كثيرة محدودة))[١]، فالفارابي في هذا النص يشرح كيفية إنتاج الكلام في آلة التصويت الإنساني والكيفية التي يقرع بها الهواء أعضاء النطق مما يعمل على إنتاج الكلام ،وحاول الفارابي أن يشبه هذه الكيفية بإنتاج الأصوات في المزامير والأوتار الصوتية وذلك تقريبا للفكرة وتوضيحا لها[٢] .

أما ابن سينا فقد كان أكثر وضوحا من الفارابي في الكيفية لعملية إنتاج الكلام إذ ذهب إلى القول بأن إنتاج الكلام يبدأ بان يحدث دفع للهواء من جوف الإنسان (الرئة) عن طريق ضغط عضل الصدر والحجاب المحيط بها حتى يصل هذا الهواء إلى الحنجرة فيصد الهواء هناك الغضاريف الثلاثة ((الدرقي والذي لا اسم له والطرجهالي))[٣] ، تلك الغضاريف التي وظيفتها تحديد كمية الهواء المار من تجويف الحنجرة فيكون الصوت بذلك حادا أو ثقيلا ،وهنا يتحول الهواء إلى صوت ثم ينتقل الهواء إلى موضع آخر من مواضع النطق فيحدث صدام آخر له يحدد نوع الصوت ،وإذا وصل الهواء إلى اللسان فإنّه يقطع إلى حروف ويؤلف من هذا التقطيع الكلام.،ولم يكتف ابن سينا بهذا الأمر وإنما أشار إلى وظيفة الأعضاء الأخرى في إنتاج الكلام كاللهاة والأنف والشفتين[٤] .

ولم يبتعد المحدثون كثيرا ،في حديثهم عن إنتاج الكلام، عن هذه الأفكار فهم يذهبون إلى أن الأصوات تنتج عن القرع أو احتكاك جسم بجسم أو نفخ بجسم،وأما الكلام فيحدثه((عمود هوائي متحرك يجري خلال فراغ ضيق في الفم ،أو
الأنف ،أو الحلق وكون العمود الهوائي متحركا يستلزم وجود باعث على حركته))[٥].

٣. الأذن العملية السمعية:

١) الحروف:١٣٦.

٢) ينظر: الموسيقى الكبير :١٠٦٧، والبحث الصوتي والدلالي عند الفيلسوف الفارابي(رسالة):٦٤.

٣) ينظر: تعريف هذه المصطلحات في الدرس الصوتي عند ابن سينا(رسالة):٢٣-٧٠ .

٤) ينظر: القانون في الطب:١١٤٥و١١٧٢،وأسباب حدوث الحروف:٦٥-٦٧،والدرس الصوتي عند ابن سينا(رسالة) : ١٠٩.

٥) علم اللغة، السعران :١٥٠.

تحدث عملية استقبال الصوت عن طريق الأذن ، فهي الأداة التي تحول الصوت من إشارات مادية (ذبذبات في الهواء) إلى إشارات عصبية تنتقل إلى الدماغ .

وتقسم الأذن إلى أجزاء ثلاثة رئيسة لكل جزء منها وظيفة محددة وتفصيلات دقيقة، وهي : الأذن الخارجية التي تلتقط الذبذبات الخارجية ، والأذن الوسطى التي تحول الضغط الصوتي إلى ذبذبات ميكانيكية . والأذن الداخلية التي تحول الذبذبات الميكانيكية إلى دافع عصبي ترسله إلى الدماغ والى ذلك أشار المحدثون في أبحاثهم [١].

وقد تحدث الفلاسفة المسلمون عن الأذن وأهميتها في العملية السمعية،إذ تحدث الفارابي عنها وعن استقبالها الصوت ووصفها بآلة خُلقت للسمع ، إلا أنه لم يتطرق إلى تشريح الأذن أو ذكر أجزائها الكلية[٢].

وأشار إخوان الصفا إلى أن الأذن هي أداة استقبال الصوت سواء كانت في الإنسان أم الحيوان ، فعند تموج الهواء بحركته يدخل في الأذن ثم يصل إلى الصماخ في مؤخرة الدماغ[٣].ففي حديثهم عن العملية السمعية قالوا : ((... فبلغ ذلك التموج الذي جرى في الهواء إلى مسامعه ودخل صماخه وتحرك الهواء المستقر في عمق الأذنين بحسب القوة السامعة بذلك التموج والحركة التي تنتهي إلى مؤخرة الدماغ ،ثم يقف فلا يكون له مخرج ،فيؤديه إلى الدماغ ،ثم يؤدي الدماغ إلى القلب فيفهم القلب من هذه الحاسة ما أدته إليه من ذلك الحدث فإن كان صوتاً مفهوماً يدل على معنى توجهت المعرفة بذلك ؛وإن كان غير مفهوم فإنه لابد أن يستدل بصفاء جوهره على ذلك الصوت))[٤] .

أما ابن سينا فقد كان أكثر دقة من غيره في حديثه عن الأذن بسبب كونه طبيبا فقد عدها أداة خاصة بالسمع فقط، وبين أقسامها وتشريحها وكان أكثر الفلاسفة دقة في ذلك[٥].

وذهب ابن باجة في حديثه عن كيفية السمع إلى وصف الأذن بأنها أداة السمع[١].ووصف عبد اللطيف البغدادي الأذن في حديثه عن تموج الهواء إلى أن يصل

---

١) ينظر: علم الأصوات العام: ٥٤.٥١.

٢) ينظر: الموسيقى الكبير :١٤٥٠.

٣) ينظر: البحث الصوتي والدلالي عند الفيلسوف الفارابي (رسالة) :٣٢.

٤) رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا :١٠٣/٣.

٥) ينظر: الدرس الصوتي عند ابن سينا(رسالة) : ٨٦ ، وينظر أيضاً ما جاء في كتاب القانون في الطب : ١١٤٥.

إلى الأذن حاسة السمع فقال : ((ولا يزال ذلك الهواء المتأثر بذلك الأثر يتدافع بكسب مجاوره أثره حتى يصل إلى العصبة المفروشة على الصماخ التي هي بمنزلة الرَّق على الطبل، وهناك موضع السمع وقوة الإدراك))(٢).

وهذه الآراء عموماً تقترب كثيرا من مذهب المحدثين في الحديث عن جهاز الاستقبال (الأذن) ، مع الاختلاف في التقسيم الدقيق للأذن وتسمية تلك التقسيمات بمسميات تختلف عما هي عند القدماء، كالأذن الداخلية، والأذن الوسطى، والأذن الخارجية، ولكل واحدة منها وظيفتها وتقسيماتها الخاصة بها(٣).

أما السمع فيقوم على أساس فيزيائي ألا وهو حركة الهواء الخارجي . كونه العامل الأساس الذي ينقل الصوت . الذي يحرك الهواء الراكد في الأذن حيث يهتز غشاؤها محركاً الأذن الداخلية التي يتحرك غشاؤها الداخلي محدثاً اهتزازات للعظيمات التي تنقل هذه الحركة إلى السائل التيهي الذي يحرك الأعصاب المحيطة به فينقل هذه الذبذبات إلى القوة الكامنة في الدماغ الذي يبدأ بتفسيرها وبيان معلوماتها ومصدرها .

ولعل أول النصوص التي تتحدث عن السمع نجدها عند الفيلسوف الفارابي وذلك في قوله : ((إنّ الهواء الذي ينبو من المقروع هو الذي يحمل الصوت فيحرك بمثل حركته الجزء الذي يليه فينقل الصوت الذي قبله الأول ويحرك الثاني ثالثا يليه فيقبل ما قبله الثاني والثالث رابعا يليه، فلا يزال هذا التداول من واحد إلى واحد حتى يكون آخر ما يتأدى إليه من أجزاء الهواء هو الهواء الموجود في الصماخين، وهواء الصماخ ملاق للعضو الذي فيه القوة التي بها يسمع فيتأدى ذلك إلى القوة فيسمعه الإنسان))(٤).

ولإخوان الصفا وقفة دقيقة في وصف السمع وكيفية حدوثه إذ كرروا هذه الوقفة كثيراً في رسائلهم ومن هذا قولهم :((... وذلك أن الهواء بشدة لطافته وخفة جوهره وصفاء طبعه وسرعة حركة أجزائه يتخلل الأجسام كلها ،فإذا صدم جسم جسماً آخر انسل ذلك الهواء وتدافع إلى جميع الجهات وحدث منه شكل كما ذكرنا أولاً فيصل بمسامع الحيوان

---

١) ينظر: كتاب النفس: ١١٢.

٢) مقالتان في الحواس: ٨٤.

٣) ينظر: علم الأصوات العام :٥٤.٥٠.

٤) الموسيقى الكبير :١٢١٤، وينظر كتاب الحروف :١٣٦.

))[1] ،وفي نصٍ آخر مشابه لهذا النص أضافوا قولهم : ((...إلى أن يبلغها إلى أقصى غاياتها عند القوة السامعة لتؤديها إلى القوة المفكرة)) [2]،ومن ذلك أيضاً قولهم : ((إذا صدم جسم جسما آخر انسل ذلك الهواء من بينهما وتدافع وتموج إلى جميع الجهات، وحدث من حركته شكل كروي يتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج، وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت قوة ذلك الصوت إلى أن يسكن ،ومثال ذلك إذا رميت في الماء الهادي الواقف في مكان واسع حجراً، فيحدث في ذلك الماء دائرة من موضع وقع الحجر ، فلا تزال تتسع فوق سطح الماء وتتموج إلى سائر الجهات ،وكلما اتسعت ضعفت حركتها حتى تتلاشى وتذهب فمن كان حاضرا في ذلك الموضع أو بالقرب منه من حيوان ،سمع ذلك الصوت ،فبلغ ذلك التموج الذي جرى في الهواء إلى مسامعه ودخل صماخه وتحرك الهواء المستقر في عمق الأذنين بحسب القوة السامعة بذلك التموج والحركة التي تنتهي إلى مؤخرة الدماغ ثم يقف فلا يكون له مخرج فيؤديه إلى الدماغ ،ثم يؤديه الدماغ إلى القلب فيفهم القلب من هذه الحاسة ما أدته إليه من ذلك الحادث))[3].

إذن فإخوان الصفا يستندون في حديثهم عن العملية السمعية إلى الظاهرة الفيزيائية القائمة على كيفية حمل الهواء للصوت وكيفية نقله إلى الأذن ومن ثم إلى ا لدماغ وهو أمر شاركهم فيه المحدثون عند حديثهم عن السمع ؛ إذ يرون أنه يقوم على أساس ذبذبات الصوت التي يسير كلّ منها اثر الآخر ويستمر هذا التتابع او التدافع إلى ان يصل إلى الصماخ وهو مؤخرة الدماغ ومنه قوة الإدراك السمعي عند الإنسان[4].

أما ابن سينا فيرى أن السمع يحدث من تموج الهواء المنضغط بين قارع ومقروع مقاوم له انضغاطا عنيفا يحدث منه صوت يذهب إلى تموج الهواء الراكد في تجويف الدماغ فيحركه حتى تلامس تلك الأمواج الأعصاب السمعية في الصماخ [5].

فلم يخرج ابن سينا عمّا ذهب إليه مَن سبقه مِن أنّ العملية السمعية تستند إلى تموج الهواء الذي يمر بالأذن، ويؤثر بالهواء الراكد في الصماخ الذي يمتد تأثيره إلى الأعصاب

---

١) رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا :١٢٣/٣.

٢) المصدر نفسه :١٢٥/٣،وينظر أيضاً جامعة الجامعة:١٧٢.

٣) المصدر نفسه :١٠٢/٣و١٠٣.

٤) ينظر: الأصوات اللغوية :١٥٠، وعلم اللغة (سوسير) :٨٧ .

٥) ينظر :أحوال النفس: ٨٥.

السمعية فيحدث الإدراك في الصماخ الذي يصل تأثيره إلى الأعصاب السمعية فيحدث الإدراك السمعي[1].

ولابن باجة تعريف للسمع (الحاسة السامعة) يذهب فيه إلى القول بأن((القوة السامعة هي استكمال لحاسة السمع، وفعلها إدراك الأثر الحادث في الهواء عن تصادم جسمين متقاومين وهذه الحال هي التي يكون بها الشيء مسموعا وإحساسها هو سمع))[2].

ولم يكن ابن رشد أكثر دقة من سابقيه في تعريف العملية السمعية وانما عرف العملية السمعية من خلال تعريفه للحاسة السامعة فقال: ((هي القوة التي من شأنها أن تستكمل معاني الآثار الحادثة في الهواء من مقارعة الأجسام بعضها بعضا المسماة أصواتا))[3].

وكان عبد اللطيف البغدادي أكثر دقة من ابن رشد فقد بين أن الصوت الحادث عند مصادمة الأجسام التابعة لحركاتها هو في الوقت نفسه أثر حادث في الهواء المتأثر بذلك الأثر يتدافع حتى يحاول أن يكسب الأثر المجاور له ويبقى يسير على هذا التدافع حتى يصل إلى العصبة المفروشة على الصماخ التي هي بمنزلة الدَّق على الطبل، وهناك يكون موضع السمع وقوة الإدراك[4].

وهنا نستطيع أن نلمس مدى التقارب بين ما طرحه علماء هذه المدرسة وما توصل إليه المحدثون في دراساتهم القائمة على الأجهزة الحديثة في دراسة علم الصوت ،إذ توصلوا إلى أن الذبذبات الهوائية تؤثر في التغيرات العصبية التي تمد الأعصاب الموصلة إلى منطقة الإدراك السمعي في المخ [5]،إذ إن ذبذبات الهواء تنتقل إلى الأذن عن طريق طبلة الأذن، فيهتز غشاؤها اهتزازات تتناسب مع هذه الذبذبات ومن الأذن الداخلية تنتقل إلى السائل التيهي بوساطة سلسلة من العظيمات فينبه الأعصاب المفروشة فيه فتنقل هذه الذبذبات بدوافع عصبية إلى المراكز السمعية في الدماغ [6].

---

١) ينظر :الإدراك الحسي عند ابن سينا :١١١ ، والدرس الصوتي عند ابن سينا(رسالة) :٨٨.

٢) كتاب النفس : ١١١.

٣) رسائل ابن رشد : كتاب النفس :٣٠.

٤) ينظر: مقالتان في الحواس : ٨٤.

٥) ينظر: علم الأصوات العام :٥٥.

٦) ينظر :علم اللغة، سوسير:٧٨ ، والأصوات اللغوية :١٥، ودراسة السمع والكلام:٢٧.

المبحث الثالث :

منهج المدرسة ، المحاسن والمآخذ

إن المنهج العلمي في الدراسة بات المطلب الأساس الذي تقوم عليه الدراسات العلمية الرصينة،فهو الأساس الذي تستقيم بوساطته الدراسة ويتبين ما هو صحيح فيها وما هو خطأ،وقد حاول علماء المدرسة الفلسفية أن يسيروا على خط منهجي واحد في دراستهم للجانب الصوتي ، وهو أمر يدعونا إلى الاعتزاز بالجهد الذي بذله العلماء العرب في دراستهم للجانب الطبيعي للأصوات ،وعلى الرغم من أن نظرة علماء هذه المدرسة لم تتجاوز الجزئية ولم تظهر في شكل نظرية صوتية متكاملة إذ فرضت عليهم طبيعة الدراسة أن تكون المادة عندهم متجزئة في بطون مؤلفاتهم الأمر الذي أدى إلى غفلة عدد منهم عن الكثير من مواطن الدراسة فتفاوتت الدراسة عندهم بين عالم وآخر ،إلا أن منهجيتهم تكاد تكون منهجية شاملة تسري على جميع ظواهر علم الأصوات الطبيعي ، وإن كانت الموضوعات لديهم تعتمد على التجربة الفردية كقياس سرعة الصوت بالنسبة إلى سرعة الضوء،وقد أخذت هذه المنهجية بعد ذلك تتحول من ملاحظة فردية مجرَّدة إلى قانون شامل تناقلوه فيما بينهم .

إن الحكم على منهج الدراسة الصوتية عند الفلاسفة المسلمين سيؤكد على الجانب الطبيعي(الفيزيائي) ، لكونه من أبرز المواضع التي حاولت هذه المدرسة دراستها والوقوف عليها فضلا عن بقية المواضع التي سبقت الإشارة إليها[١].

فكان لا بد لنا من معرفة ملامح وأبعاد المنهجية الصوتية التي سارت عليها هذه المدرسة ،فالجهد الصوتي لها كان متكاملا شاملا وان عني عناية خاصة بالدراسة الصوتية الفيزيائية فيه ، إذ شملت دراستهم موضوعات هذا العلم واقتربت كثيرا من نظريات الدراسة الحديثة للصوت . على المستوى الفيزيائي والنطقي . وبسب هذا النوع من الدراسة

---

١) تجدر الإشارة هنا إلى أن دراسة الأصوات من هذا الجانب هو مسار علماء هذه المدرسة جميعا ،وليس صحيحا ما ذهب إليه الدكتور محمد المانع الذي ذهب إلى القول من أنّ ابن سينا ((هو أول عالم في علم الأصوات بمعناه الحديث والمعاصر في التراث العربي . الإسلامي ٠٠٠ وهو رائد هذا العلم بالمعنى العلمي الدقيق..حيث درس ظاهرة الصوت فيزيائيا باعتباره تموجا في الهواء)) ينظر: الأصوات عند ابن سينا :٣ .

صارتالعناية بطبيعة المنهج تتجه صوب النظرة الفيزيائية التي طرحتها هذه المدرسة في دراستها لهذا الجانب من جوانب اللغة.

فالجهد العلمي لهذه المدرسة واضح جدا ومساهمتهم في دراسة الأصوات بدت أكثر وضوحا ، وهذا ما دل عليه المبحث الأول من هذا الفصل،إلا أن المنهج الذي سارت عليه هذه المدرسة بات به حاجة إلى نظرة متفحصة للوصول إليه على مستوى الدراسة التي سار عليها أتباعها ،فهو يقوم على أهم مرتكزات علم الأصوات السمعي المتمثلة في الجانب المادي أو الطبيعي،كالصوت والوسط الناقل وكذلك العملية السمعية،وهي مباحث ترتبط بالظاهرة السمعية العامة ارتباطا وثيقا،فوجود هذه المباحث، وإن جاءت مبثوثة في مؤلفاتهم ، يستدعي وجود منهج عندهم ، الأمر الذي يستوجب وجود قواعد إجرائية تنظيمية تعطي الباحث طبيعة منسقة وهو ما نراه عند علماء المدرسة الفلسفية ، إذ وجدنا الدراسة الصوتية عندهم أخذت بالتركيز والتطور من حيث السعة وإضافة المفاهيم والمصطلحات ،فنحن نجد الفكرة المعينة مثلا تبدأ عند أولهم لتتسع عند متأخرهم وتأخذ ما هو أشمل وأوسع في الدراسة مكونين بذلك منظومة شاملة لعلم الأصوات السمعي،إذ بدأت المدرسة بالحديث عن ماهية الصوت وحدوثه ثم بيان الوسط الناقل له وصولا إلى العملية السمعية[١]،وهو مسار أيدته الدراسات الحديثة وسارت عليه في دراستها لعلم الأصوات الفيزيائي[٢] ، مع اختلاف في اسلوب الدرس بين الدراستين، من حيث التقسيمات الجزئية ، وعبارة النص من حيث الغموض والوضوح .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المدرسة الصوتية الفلسفية كانت في دراستها للسمع وتفسيرها له تقوم على خبرات مستمدة من ثقافة قائمة على الملاحظة والتجربة الذاتية لرصد أشكال الظواهر السمعية ، وهي أمور لم ينظر إليها أصحاب المدرسة بوصفها وسائل تفسيرية تعلل الظواهر السمعية وأسباب حدوثها ، وإن لم يكن لهم إلمام كاف بمفهوم هذه الظواهر ومكوناتها أو حدودها الاصطلاحية كما هو الحال عند المحدثين الذين اعتمدت تجاربهم الأجهزة العلمية الدقيقة والمختبرات الحديثة في تفسير الظواهر السمعية ورصدها.

---

١) ينظر رسائل الكندي الفلسفية : ٥٢٧، والموسيقى الكبير :٢١٢-٢٢٤، ورسائل إخوان الصفا وخلان الوفا :١/١٨٨ وما بعدها ،واسباب حدوث الحروف : ٥٦وما بعدها.

٢) ينظر : الصوتيات:٣٥-٥٦، والمنظومة الكلامية : ٣٥-٥٥.

وعلى الرغم من اختلاف اسلوب الطرح قديما وحديثا نجد أنّ ذلك لا يمنع من التوافق الكبير بين ما ذهب إليه الفلاسفة وما جاء به المحدثون[1]،ولعل أهم الملامح التي يمكن أن نلحظها في منهج المدرسة الفلسفية الصوتي يكمن في النقاط الآتية :.

١. اتبع الفلاسفة في دراستهم الصوتية منهجا يخلط بين الوصفية والمعيارية في تفسير الظواهر الصوتية، إذ انهم وصفوا ما أحسوا به من ظواهر صوتية في العملية السمعية الكلية،وفسروها على وفق خبراتهم المستمدة من تجاربهم القائمة على الملاحظة الذاتية في رصد الظواهر الطبيعية (السمعية) ، فغلب على وصفهم الطابع الفلسفي المستند إلى الأدلة المنطقية في التعليل ومحاولة الوصول إلى الحقيقة ، إذ حاولوا البرهنة على صحة ما توصلوا إليه من نتائج في هذا الجانب ، غير أنّ منهجهم لم يكن شكلياً بحتا على الرغم من أنّ الشكل يعد من أهم الأسس التي يستند إليها المنهج الوصفي الذي يعنى بالظاهر أكثر من عنايته بالمضمون .

إذ وجدناهم يعتمدون كثيراً المضمون أيضاً ، وبذا كان الخلط بين الوصفية والمعيارية واضحا في منهجهم ؛ إذ اعتمدوا التعليل والتقنين ، كما في حديثهم عن سرعة الصوت قياسا إلى سرعة الضوء ، وتعليل الحدة والثقل اللذين يصيبان الأصوات باعتماد بعد المسافة وقربها من المصدر ، وبعد هذا أخذوا بصياغة قوانين عامة ترى أن الضوء أسرع من الصوت وأن قرب التموج من مصدر الصوت يجعل الصوت حاداً وبعده يجعله ثقيلاً .

٢. إنّ الملاحظة الأكثر وضوحا على منهج المدرسة الفلسفية تكمن في الصورة التي جاءت فيها المادة الصوتية ، إذ وجدنا عند متابعتنا لمظان علماء هذه المدرسة أنها كانت مجزأة لا تجمعها وحدة موضوعية ، وهو الأمر الذي جعل من الصعوبة على الدارس أن يكّون في ذهنه تصوراً شمولياً للظواهر الصوتية عند المدرسة .

وهو الأمر الذي دعانا إلى العمل على لم شتات هذه المواد وتصنيفها ضمن فقرات الموضوع الواحد للوقوف على منهج شامل للمادة اللغوية عندهم ، وذلك برصد جهد العلماء بعضهم مع بعض فضلا على رصد جهد العالم الواحد ، وإبراز ما أغفله السابق وذكره اللاحق حتى ظهر لنا مدى التطور الذي أحدثه أتباع المدرسة عن طريق إفادة متأخرهم من متقدمهم إذ كانت الفكرة عندهم تمر بمراحل معينة فتتطور حتى تصل إلى قمة نضوجها واكتمالها .

---

١) ينظر علم الأصوات العام : ٣٠-٤٥ .

٣- حاول علماء هذه المدرسة اعتماد تقديم الأمثلة الموضحة للدراسة الصوتية وذلك باعتماد الظواهر المنظورة كما في حديثهم عن الموجة الصوتية؛ إذ شبه الفارابي حركة الجزئيات الهوائية بحركة الخرز التي تنتقل بين الأصابع التي تضغط عليها[١]، وهو ما يسمى في الدرس الصوتي الحديث (ضغط الصوت) إذ تتعرض الجزئيات عند حدوث التصويت إلى ضغط المصدر المسبب للصوتوتتأثر به تأثيراً مباشراً فكلما زاد الضغط كان الصوت قويا وكلما قل كان الصوت ضعيفاً [٢] .

٤. اعتمدت المدرسة الفلسفية في دراستها على مصطلحات صوتية مختلفة تفردت بها عن غيرها من المدارس الصوتية كما في مصطلح (القرع والقلع) و (الحدة والثقل) و(الرطوبة واليبوسة) وغيرها من المصطلحات ، إذ امتازت هذه المدرسة بظهور عدد كبير منها تداولها علماؤها وحاولوا بيان مفاهيمها وهو الأمر الذي يدل على وجود منظومة اصطلاحية خاصة بها ، وإن لم يكن المصطلح متطابقا تماما عند جميع علماء المدرسة كما هو الحال في مصطلح (الرطوبة واليبوسة) وهذه سنة من سنن التطور وانتقال المصطلح من فوضى العموم إلى دقة الدلالة[٣] .

٥امتازت هذه المدرسة عن غيرها من المدارس بعدد من المعايير الصوتية التي كانت بمثابة الحدود الفاصلة بين الأصوات والمقياس الذي قيست به صحة نطقها والحد الذي استطاعوا بوساطته أن يبينوا موضع كل صوت منها والكيفية التي ينطق بها والتي اعتمدتها ولم يعتمدها غيرها من المدارس الصوتية كمعيار الرطوبة ومعيار الحدة والثقل إذ كان لها مفهومها الخاص بها ، كما اعتمدت أيضاً عددا من المعايير التي اعتمدتها غيرها من المدارس كمعيار حركة اللسان ومعيار حبس الهواء وغيرها .

٦. إن الأمر الذي يمكن ملاحظته بوضوح والذي يعد مأخذاً مهماً على المنهج الذي اتبعه الفلاسفة المسلمون في دراستهم الصوتية هو إهمالهم للكثير من الظواهر الصوتية المهمة كالإدغام والإمالة والمماثلة وغيرها من التعاملات الصوتية التي تمثل مدخلاً مهما في دراسة ظاهرة النطق الصوتي والتغيرات التي تطرأ عليها عند النطق بها .

---

١) ينظر : الموسيقى الكبير :١/ ٢١٣ .

٢) ينظر :المنظومة الكلامية :٥٠ .

٣) ينظر تفسير هذه المصطلحات ومدلولاتها في الدرس الصوتي عند ابن سينا (رسالة) الفصل الأول منها .

٧ـ إذا ما استثنينا بعض الإشارات التي أوردها الكندي في رسالة اللثغة وكذلك بعض الإشارات التي ذكرها الفارابي و ما كتبه ابن سينا في رسالته أسباب حدوث الحروف فلا نجد لهذه المدرسة إشارات دقيقة في مخارج الأصوات وتحديد مواقعها إذ لم تهتم هذه المدرسة بمواقع الحروف على جهاز النطق بل كان جل اهتمامها بالجانب الطبيعي (الفيزيائي) للأصوات على وجه العموم .

٨ـ درس علماء هذه المدرسة علم وظائف الأصوات دراسة دقيقة وواعية فدرسوا المقطع والنبر والتنغيم إذ حددوا مفاهيم هذه المصطلحات وبينوا تفاصيلها ، وقد أثبتت الدراسات أن مفهومهم لهذه الموضوعات كان دقيقا بحيث شابه ما ذهب إليه المحدثون ووصلوا إلى دقائق الأمور حتى أنّهم لم يأتوا بالكثير إذا ما وازنّا عملهم بما قدمه علماء هذه المدرسة[١] .

ومن هنا نستطيع القول إن الدافع الأساس الذي دفع علماء هذه المدرسة إلى دراسة الأصوات هو محاولتهم الإجابة عن عدد من الأسئلة التي طرحوها من نحو سؤالهم عن طبيعة العملية الصوتية؟ وما هي الكيفية التي تحدث بها؟ وكيف لها أن تنتقل من مصدرها إلى متلقيها؟ ومن هنا كانت الإجابات عن هذه الأسئلة المدخل الذي فتح الباب على هذا العلم وبدأ علماء هذه المدرسة بدراسته ، ومن هنا أخذت الدراسة الصوتية تنمو وتتطور عند علماء هذه المدرسة ، إذ اخذ متأخرهم عن متقدمهم أوليات هذا العلم وأضاف إليه ما استجد عنده من مادة صوتية ، وهكذا أخذت المادة الصوتية تتسع عند علماء هذه المدرسة وتتطور إلاّ أن الذي يلاحظ على منهج هذه المدرسة التفاوت الكمي في المعالجة بين عالم وآخر كما هو الحال عند إخوان الصفا الذين اكتفوا بتعليل بعض الظواهر وتركوا أخرى من دون معالجة .

كما أنّ الملاحظ على دراستهم أيضا أنهم انطلقوا فيها من الرغبة في الوصول إلى حقائق عن العملية الصوتية في شكلها العام ولذا لم تبرز معالم دراسة الحروف بشكلها المفصل والدقيق إلاّ عند ابن سينا.

---

١) ينظر تفصيل هذا في:المباحث اللغوية عند الفلاسفة المسلمين (رسالة): ٩٩ و البحث الصوتي والدلالي عند الفيلسوف الفارابي(رسالة) :٩٨، والدرس الصوتي عند ابن سينا(رسالة) :١٧٨ .

الفصل الخامس

مدرسة البلاغيين الصوتية

المدخل

المبحث الأول : آلية التصويت

المبحث الثاني : المخارج الصوتية

المبحث الثالث : الصفات الصوتية

المبحث الرابع : منهج المدرسة المحاسن والمآخذ

المدخل

جرت العادة في الدراسات اللسانية الحديثة أن تدرس البلاغة في المستوى الأخير من مستويات دراسة اللغة ، والمتمثل بـ " المستوى الدلالي " ؛ ذلك أن ((علم الدلالة قطاع من قطاعات الدرس اللساني الحديث ، شأنه في ذلك شأن الأصوات والتركيب ومجال هذا العلم دراسة المعنى اللغوي على صعيدي المفردات والتراكيب ، وإن كان المفهوم السائد هو اقتصار الدلالة على دراسة المفردات وما يتعلق بها من مسائل))[1].

لكننا في هذه الدراسة لا نسعى إلى توطين هذا المفهوم فحسب ، بل نسعى إلى البحث عن وجوه جديدة لهذا الحقل المعرفي الجليل ،عبر النظر في مستويات التحليل اللساني .

وبعد أن دققنا في مضامين المتن البلاغي العربي ، وجدناه يتعلق بمستويات أخرى تفوق المستوى الدلالي ، منها :

. المستوى الصوتي .

. المستوى البنائي / الصياغي .

. المستوى التركيبي .

يأتي هذه التنوع الدراسي في المتن البلاغي العربي ، من باب أن : الحقول المعرفية يخدم بعضها بعضاً ، ومن غير الممكن أن يستغني حقل من الحقول عن غيره ، إلاّ ما ندر .

وقد أضاف هذا التداخل إلى الحقول المعرفية ، جوانب تحليلية متنوعة ، منها :تنوع مستويات التحليل في المتن البلاغي العربي . بحيث تطرق البلاغيون إلى المقدمات الصوتية المهمة سعياً منهم إلى فهم التنوعات الصوتية والإيقاعية المختلفة في اللسان العربي .

فالإيقاع . مثلما هو معروف . سند رئيس لفنون البلاغة ،لاسيما الفنون البديعية : اللفظية منها والمعنوية ، وهي بمجملها تشكّل مضمون : علم البديع .

أما المستوى البنائي والتركيبي فيظهران في مباحث بلاغية عدة منها :

ـ مباحث الفصاحة ، وهي مقدمة مهمة في دراسة البلاغة العربية ، بحيث أنّ هناك موازين بنائية وتركيبية لا يمكن تجاوزها ، وإن تّم تجاوزها خرجت عن المستوى

---

١) مبادئ اللسانيات : ٢٧٩ .

الفصيح ، ففقدت بذلك سمة البلاغة .

ـ مباحث القول البنائي والتركيبي البلاغية ، وذلك من خلال كسر نسق القاعدة ، وتجاوزها ، تحت ما يسمى : مجالات التغّير الدلالي والخروج عن المعنى القارّ و الموضوع للألفاظ والتراكيب في العربية ، ويتحقق هذا الأمر في موضوعات بلاغية كثيرة منها : أحوال المسند و المسند إليه في علم المعاني ، والمجاز وما يشاكله في علم البيان .

وعلى هذا الأساس تأتي البلاغة العربية واحدة من العلوم المعرفية المتنوعة في بُعدها التحليلي للنصوص ، أو التقعيدي للمنطوق .

وفي ضوء ما تقدّم ، جاز لنا أن نبحث في المؤلفات البلاغية ، و مقالاتهم ، عن البُعد التنظيري والإجرائي لعلم الأصوات من وجهة نظر الدلاليين القدماء ، المعروفين بـ " البلاغيين " .

وعلى هذا الأساس جاءت تسميتنا لبحوث البلاغيين في جانبها الصوتي بـ " المدرسة الصوتية " ؛ لأنها تحمل مقومات تلك التسمية التي حدّدناها في فقرات المدخل العام لهذه الدراسة .

وسنتأكد من مضامين هذه المقالات الأولية التي افترضناها في فقرات هذا المدخل عبر المباحث الأربعة لهذا الفصل ؛إذ سنتناول : الجوانب التقليدية / الاتباعية التي لم يخالف البلاغيون فيها نسق المقالات اللسانية التي سبقهم إليها علماء العربية الآخرون ، وكذا حال المقالات التي تجاوزوا فيها خطّ التقليد / التبعية ، إذ قدّموا من خلالها رؤى جديدة لقضايا طرحت سالفاً ، أو لم تطرح .

وتأسيساً على هذا النهج رأينا تقسيم هذا الفصل على أربعة مباحث ، ينهض كل مبحث بعبء تحليلي خاصّ ، يسهم بضمّه إلى العبء الذي تنهض به المباحث الأخرى في توضيح فقرات هذه المدرسة بُبعدها الصوتي .

وجاءت قسمة هذه المباحث على نحو مضامينها بنسق تصنيفي هو الآتي:

ـ آلية التصويت ومقدماتها .

ـ مبحث المخارج الصوتية .

ـ مبحث الصفات الصوتية .

ـ مبحث منهج المدرسة ، المحاسن والمآخذ، .

المدخل

المبحث الأول

((آليـة التصويـت))

إنّ البحث في آليات التصويت وسبل النطق عند الإنسان ، من المباحث المهمة في الدرس اللساني الحديث ، لكن هذا لا يعني هذا أن القدماء أغفلوا الحديث عنه ، بل العكس هو الصحيح ؛ إذ تنبه أغلبهم على أهميته ، ولاسيما البلاغيون منهم ، وتبعاً لهذا التنبه تناول بعضهم مباحث منها .

ولبيان نسقية هذا التنبه سنعمد في هذا المبحث إلى وضع أربعة محاور مهمة في بيان آلية التصويت أو التقديم لها ، مفادها :

. توليد الأصوات .

. التمييز بين الصوت و الحرف .

. الرسم التوضيحي .

. الأصوات الأصول والفروع .

أولاً : توليد الأصوات :

قبل الخوض في تعرض البلاغيين إلى مبحث آليات توليد الصوت ، لا بد من الوقوف عند مقالات بعضهم حيال مفهوم الصوت .

فقد عرّفه أبو طاهر البغدادي (ت ٥١٧ هـ) أنّه : ((آلة اللفظ والذي به يبلغ السامع ما يدركه))[١]، وهو يقترب((بذلك مما يطرحه العالم اللغوي دو سوسير في تحديد آلية التصويت وإدراكه من خلال تقسيمه عملية التوصيل الكلامي إلى :

. صور صوتية .

. صور سمعية .

ويريد بالأول الرمز أو الكلمة الدالة على معنى من المعاني ، ويقصد بالثاني ما ينطبع في الذهن من صور لشكل ذلك الرمز في الطبيعة ، فلفظ " شجرة " له صورة صوتية : تتمثل بنطقه ، وصورة سمعية : تتجسد بصورتها الطبيعية في الواقع المنطبعة في الذهن ،

---

١) قانون البلاغة : ٧٥ .

فلفظ " الشجرة " يستجلب صورتها ، وما يؤكد هذا التقارب تعريف " أبي طاهر البغدادي " للفكر أنه (مستثار الصوت) ، أي أن النطق أحد مقومات استجلابه وتحريكه))[١].

وقد توقف ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) عند ماهية الصوت ، وذلك على وفق منهجه العقلي الذي يحاجج به أقرانه من أصحاب علم الكلام الذين حالوا الخوض في مسألة " كلام الله " .

فقد صوّر ابن سنان الصوت بأنّه : ((معقول ، لأنه يدرك ، و لا خلاف بين العقلاء في وجود ما يدرك ، وهو عَرَض ليس بجسم ، ولا صفة لجسم ، والدليل على أنه ليس بجسم ، أنه مدرك بحاسة السمع ، والأجسام متماثلة ، والإدراك إنما يتعلق بأخص صفات الذوات ، فلو كان جسماً لكانت الأجسام جميعها يتعلق بحاسة السمع ، وفي علمنا ببطلان ذلك دليل على أن الصوت ليس بجسم السمع ، وهذه الجملة تحتاج إلى أن نبين أن الأجسام متماثلة ، وأن الإدراك إنما يتعلق بأخص صفات الذوات ، لأن كون الصوت مدركاً بالسمع ، والأجسام غير مدركة بالسمع ، مما لا يمكن دخول شبهة فيه ولا منازعة ، والذي يدل على تماثل الأجسام أنا ندرك الجسمين المتفقي اللون فيلتبس أحدهما علينا بالآخر ، لأن من أدركهما ثم أعرض عنهما وأدركهما من بعد يجوز أن يكون كل واحد منهما هو الآخر ، بأن نقل إلى موضعه ، ولم يلتبسا على الإدراك إلاّ لاشتراكهما في صفة تناولها الإدراك ، وقد بّينا أن الإدراك إنما يتناول أخصّ الذات ، وهو ما يرجع إليها ، ... وإذا كان الجسمان مشتركين فيما يرجع إلى ذاتيهما فهما متماثلان ، لأن هذا هو المستفاد بالتماثل))[٢] .

أما آلية التصويت التي توقف عندها بعض البلاغيين فقد لُخصت بثلاثة أركان هي:

١. التصويت .
٢. الوسط الناقل للصوت .
٣. استقبال الصوت .

---

١) أثر التفكير الصوتي في دراسة العربية(اطروحة) : ٢٥٢ – ٢٥٣ ، وينظر : قانون البلاغة : ٧٥ ، وفرديناند دو سوسير تأصيل علم اللغة وعلم العلامات : ٣٦ – ٤٣ .

٢) سّر الفصاحة : ١٦ – ١٧ .

فالصوت في عرف أكثر البلاغيين يخرج مستطيلاً ساذجاً حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده ، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفاً [1]، ولا يعني هذا أن الأصوات تأتي على نحو متوحد من جهة النطق والسمة الصوتية ، بل هي تختلف باختلاف مقاطع الصوت، حتى شبه بعضهم الحلق والفم بالناي، لأن ((الصوت يخرج منه مستطيلاً ساذجاً ، فإذا وضعت الأنامل على خروقه ووقعت المزاوجة بينها سمع لكل حرف منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا وقع الصوت في الحلق والفم بالاعتماد على جهات مختلفة سمعت الأصوات المختلفة التي هي حروف، ولهذا لا يوجد في صوت الحجر وغيره لأنه لا مقاطع فيه للصوت)) [2] .

ويأتي توليد الأصوات على وفق لعمليتين أساسيتين ، سمّاهما ابن سنان بـ :

. الاعتماد .

. المصاكة .

وقد وردا في أغلب نصوصه التي تكلم فيها على آلية توليد الأصوات ، ومن ذلك قوله : ((فأما الكلام في تماثلها واختلافها فالدلالة على ذلك ما قدّمناه من الإدراك لها، وبيانه في الحروف، فان الراء تدرك ملتبسة بالراء ومخالفة للزاي، وقد بينا أن الإدراك يتناول أخص صفات الذات،ولا يجوز وجود الصوت إلاّ في محلٍّ، أما من أثبت حاجة جميع الأعراض إلى المحالّ من حيث كان عَرَضاً ، وأما من أجاز وجود بعض الأعراض في غير محل بدلالة أنه يتولد عن اعتماد الجسم ومصاكته لغيره، ولأنه يختلف حاله محله، فيتولد من الصوت في الطست خلاف ما يتولد في الحجر، فيقول: قد ثبت وجود بعض الأصوات متفقة في أنها لا توجب حالاً لمحل ولا جملة))[3].

أما حديثهم عن الوسط الناقل ، فوردت إشارات في نصوصٍ لابن سنان ، منها قوله : ((الأصوات تدرك بحاسّة السمع في محالّها، ولا تحتاج إلى انتقال محالّها وانتقالها، وكونها أعراضاً منع من انتقالها، وقد استدلّ على ذلك بأنها لو انتقلت لجاز أن تنتقل إلى بعض الحاضرين دون بعض،حتى يكون مع التساوي في القرب والسلامة يسمع الصوت ... ولا

---

1) ينظر : سر الفصاحة : ١٣ .

٢)سر الفصاحة : ٢٣.

٣) المصدر نفسه : ٢٠.

يجوز البقاء على الأصوات))[1] .

وفي النصّ أيضاً إشارات إلى استقبال الصوت بعد وصوله إلى مصدر الاستقبال ، متجهاً إليه من مصدر الإرسال .

---

١) المصدر نفسه : ٢١–٢٢.

ثانياً : التمييز بين الصوت والحرف :

داخَل عُلماء العربية بين مصطلحي الحرف والصوت ، وهي مسألة معروفة عند الدارسين المحدثين ، لكن لم يخلُ التراث اللساني العربي من التنبيه على هذه المرادفة المربكة للقارئ .

فعدم التمييز بين هذين المصطلحين يبعد الفهم الصحيح عن ذهنية القارئ ، فحديث العالم عن الصوت المنطوق سمة معنوية تخالف التصوّر الذي قد يتبادر إلى الذهن من أن المقصود هو الحرف بُبعده المادي المنظور ، وعليه وردت نصوص عدّة في " سرّ الفصاحة " تؤكد تنّبه ابن سنان إلى ضرورة التفريق تلك ، ومنها نصّه الذي قال فيه : ((الكلام هو الصوت الواقع على بعض الوجوه بما لا فائدة في إعادته، وأمّا الصوت فلا شبهة في انّه غير باقٍ...، وإذا كان الكلام هو الصوت – لا يجوز عليه البقاء – فكيف يقال إنّه يوجد في قراءة كل قارئ ومع الكتابة وغيرها؟ ويدل أيضاً على أن الكتابة لا يوجد معها كلام وإنما هي إمارات للحروف بالمواضعة أن الاستفادة بالكتابة كالاستفادة بعقدة الأصابع والإشارة وغيرهما من الأفعال التي تقع المواضعة عليها، فلو كان لابدّ من الكلام يوجد مع الكتاب لأجل الفائدة الحاصلة بها لوجب ذلك في جميع ما ذكرناه))[١] .

وهذا النَّفَس متلمس في نصوص ابن سنان ، وهو سبيل درج عليه المحدثون من اللسانيين ، بحيث دأبوا على تخصيص ((مصطلح الحرف بمعنى الرمز الكتابي ، وهو رمز الكلام الملفوظ الذي هو الصوت ، ويصف بعض المحدثين الحروف بأنها " حيل أو وسائل كتابية تستخدم لتمثيل النطق وتصويره " ، ولعله لجأ إلى هذا الوصف لإيضاح البُعد بين الرمز والصوت ، فقيمة الرموز أو الحروف إذن ليست قيمة ذاتية طبيعية بل هي مستمدة من الاتفاق العربي ، إذ إن الكتابة ليست من جوهر اللغة ، فاللغة أقدم من الكتابة ، والكتابة عرض واللغة مجموعة أصوات لغوية ، والكتابة رموز لهذه الأصوات ، وهذا هو الفرق بين الحرف والصوت))[٢] .

---

١) سر الفصاحة : ٤٦– ٤٧.

٢) المصطلح الصوتي: ٢٢٠ .

ثالثاً : الرسم التوضيحي :

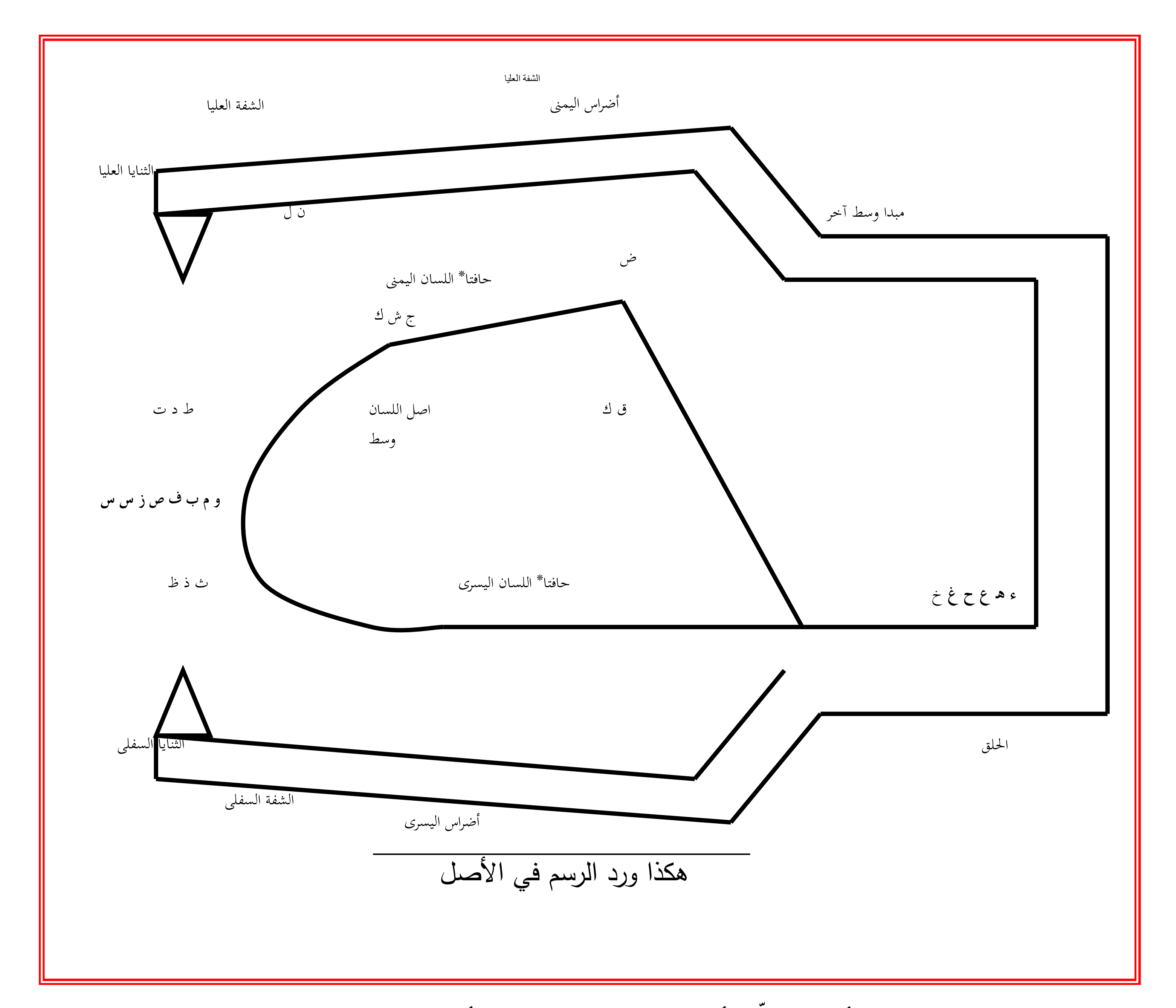
إن مسألة الرسوم التوضيحية مسألة مهمة في الدرس المعرفي الحديث ، سواء أكان طابعه إنسانياً أم تطبيقياً / علمياً ؛ لما يقدمه من وسيلة للإيضاح وتقريب الفكرة من الأذهان .

وإلى وقت قريب جداً كان الظن السائد أن الغربيين وعلماءهم هم الذين وضعوا هذه الإضافة المهمة في هيكل الحقول المعرفية المتنوعة ، ولاسيما الحقل اللساني منها ، .

لكن الدأب المخلص من دارسي العربية والمهتمين منهم بالتراث وتحقيقه – على نحو خاص – هو الذي كشف : أن الذين أضافوا هذا الركن التعريفي / التوضيحي هم العرب لا غيرهم ، وأضافوا أن الذين رَكَزوا هذا الركن المهم في مفاصل الدرس اللساني الحديث – بنحو عام – و الصوتي منه – على نحو خاص – هم البلاغيون .

فقد كشف مخطوط من كتاب " مفتاح العلوم " للسكاكي(ت ٦٢٦ هـ) ، أّنه أول من حاول وضع رسم أولي للجهاز النطقي الإنساني ، وهي مثبتة في الكتاب المطبوع ، ولا يضر الخلاف الجزئي في بعض المخطوطات الأخرى ، فسببه معروف ؛ يعود إلى إمكانات النسّاخ في الرسم ، وإخلاصهم في النقل .

مخارج الحروف عند السكاكي :



هكذا ورد الرسم في الأصل

وعلى هذا الأساس صرّح أغلب الدارسين المحدثين بأهمية هذه الإضافة ، وإسهامها في دفع مسيرة الدرس اللساني – على نحو عام – و الصوتي منه – على نحو خاص –، فقد ((كان للسانيين العرب المسلمين أثرهم في الدرس اللغوي، كما كان لهم فضل الريادة في كثير من الآراء في مجال تصنيف الأصوات ووصفها وتحديد مخارجها نظرياً عند الخليل و سيبويه وابن جني، وعملياً عند السكاكي الذي وضع أول رسم تشريحي يبيّن

مخارج الأصوات العربية فيما نعلم، وهذا أمر لم تعرفه الدراسة الصوتية المعاصرة إلاّ حديثاً))[1] .

رابعاً : الأصوات الأصول والفروع :

تحدّث علماء العربية عن الأصوات الأصول والفروع في اللسان العربي ، وانطلقوا في ذلك من منطلقات نطقية و لهجية و تعاملية متنوعة .

وليس خافياً على المهتمين باللسان العربي ودارسيه أهمية هذا التصنيف ، وإشارته إلى حيوية الذهن العربي وحركية عقول علمائه .

ولم يفت الدارس البلاغي العربي في تراثه المعرفي الإشارة إلى هذا التصنيف المهم ، بل بالعكس تناوله بالدرس والتحليل .

وقد ذكر ابن سنان مضمون هذا التصنيف بُعده التقليدي / الاتباعي ، بقوله : ((ما يحسن استعماله في الفصيح وما لا يستحسن ، فالتي تحسن ستة حروف: وهي النون الخفيفة التي تخرج من الخيشوم، والهمزة المخففة، وألف الإمالة، وألف التفخيم، وهي التي بها ينحى نحو الواو، وذلك كقولهم في الزكاة – الزكاوة – والصاد التي كالزاي ، نحو قولهم في مصدر –مزدر– والشين التي كالجيم، نحو قولهم في أشداق –أجدق))[2].

((والحروف التي لا تستحسن ثمانية: وهي الكاف التي بين الجيم والكاف، نحو –كلهم عندك، والجيم التي كالكاف نحو قولهم للرجل – ركل ، والجيم التي كالشين، نحو قولهم – خرشت، والطاء التي كالتاء، كقولهم –طلب، والضاد الضعيفة –كقولهم:

في أثرد – أضرد – والصاد التي كالسين في قولهم –صدق– والظاء التي كالثاء، كقولهم –ظلم– والفاء التي كالباء، كقولهم –فرند)) [3] .

ولكن لم يكن هذا المستوى هو الطاغي على مقالات البلاغيين في هذا التصنيف ، بل حاولوا التجديد فيه من خلال تغيير وجهة هذا التصنيف .

وقد ذكر الباحث " مشتاق عباس معن " هذين البُعدين ، وصنّفهما على وفق نسقهما الإضافي أو الاتباعي على صنفين ، هما :

. المستوى الإتباعي .

---

١) معجم اللسانيات الحديث: مقدمة المعجم .

٢) سر الفصاحة: ٢٩.

٣) المصدر نفسه : ٢٩.

. المستوى الإبداعي .

وأراد بالمستوى الأول ، تناول البلاغيين قضية الأصلية و الفرعية على وفق ما تناوله غيرهم من علماء العربية ؛ في حين أراد بالثاني ، تجاوز التناول التقليدي إلى ما هو جديد في عرف العربية[١] .

وكان هذا التناول الجديد بمثابة المعيار ، بحيث وضعه البلاغيون للتمييز بين الأصوات التي تسهم في تحسين البنية اللفظية وتجعلها سهلة بعيدة عن التنافر وقبح النغم[٢] ، ولم يكن معيارهم الثاني واضحاً بنحو بّين، بل لفّه شيء من الغموض، ولكّني من خلال تتبع نصوص البلاغيين وجدتهم يؤكدون شيئين يمكن عدّهما معياراً لقسمتهم تلك :

١- رونق الصوت و إسهامه في تحسين النغم سواء أكان بناء اللفظ مسبوكاً في النثر أم في النظم.

٢- إذا كان اللفظ المراد معرفة سمات أصواته المؤلفة لبنيته مسبوكاً في بناء شعري، اشترطوا في قافيته أن تكون سلسة سهلة المخرج[٣].

ويمكن جمع الأصوات الأصول المستحسنة بالآتي: (/ ب / / ف / / م / / و / / ر / / س / / د / / ن / / ل / / ع / / ق / / هـ/) [٤] .

أما الأصوات التي اُستقبحت عند البلاغيين في كتاباتهم ، فهي: (/ ث / / ذ / / خ / / ش / / ص / / ط / / ظ / / غ)[٥] .

وتباينت مقالات البلاغيين حيال مصدر القبح و الحسن في نغمية الصوت ، فهل هي ذاتية تنبع من ذات الصوت ، أو هي طارئة تأتي من منابع خارجية ؟وإن أجمع أغلب البلاغيين على أن قضية القبح و الحسن في الصوت تأتي من منابع خارجية طارئة .

---

١) ينظر : أثر التفكير الصوتي في دراسة العربية : ٢٦٩ .

٢) ينظر: عيار الشعر: ١٤ شروح ،وينظر: التفكير الصوتي في دراسة العربية : ٢٦٩ .

٣) أكد البلاغيون مسألة حسن نغم الصوت ورونقه وعلل ذلك ابن طباطبا العلوي من أنّ: (الأذن تتشوق للصوت الخفيض الساكن وتتأذى بالجهير الهائل) : عيار الشعر :١٤.

٤) ينظر :المثل السائر :١ / ١٨٠ – ١٨٣ .

٥) ينظر: المصدر نفسه : ٢٧٠ .

ولعل موقف الرازي أدقّ تلك المواقف ، إذ صرّح بأن العلماء والناطقين ((قد يمدحون اللفظ أيضاً ، فيقولون: لفظ متمكّن غير قلق ولا ناب به موضعه وأنه جّيد السّبك، صحيح الطابع، وأنه ليس فيه فصل عن معناه، وأنّ من حقّ اللفظ أن يكون طبقاً للمعنى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، وكقول من وصف رجلاً من البلغاء بأنه كانت الألفاظ قوالب لمعانيه، وقد يذمونه بأنه معقّد، وانه لتعقيده استهلك المعنى والقلق ليس آحاد الحروف، بل الكلمة. وهي بمجموعها غير موجودة، لأن الحرف الأول ما لم يعدم لا يوجد الآخر،وبتقدير وجود الكلمة بتمامها يمتنع وصفها بهما، لأنّ الشيء إنّما يتمكن ويقلق في مكانه الذي يوجد فيه، ومكان الحروف هو الحلق والفم واللسان فلو اتصفت بالتمكن والقلق لكانا في أماكن الحروف من الحلق واللسان والفم))(١) .

وفي حقيقة الأمر ، إنّ جعل الأصوات على مستويين من التلقي بوصف بعضها بأنها ذات وقع حسن وبعضها الآخر بأنها ذات وقع قبيح يعود – إن أردنا القول – إلى أمرين :

- الموقع .
- الذوق .

فجميع الأصوات إذا لم تركّب في سياق لفظي لا يمكن الحكم عليها بالقبح أو الحسن، ففي حال كونها مفردة من دون تركيب تتساوى قيمتها في النطق، وخصوصاً إذا كانت الأصوات من الأصوات الأصول، ولولا تميزها في الأداء لما اختارها الناطق الأول واستعان بها في تواصله الكلامي، وأكد العلوي هذه المسألة بنص تقدم ذكره(٢).

وعلى هذا الأساس أنكر الرازي أن يكون العيب في الصوت نفسه وذكر أنه في موقعه من التأليف ولولا ذاك لاستقبح الصوت أصلاً في النطق قبل التأليف ؛ لذلك اعترض على من يمدحون الألفاظ ويذمونها(٣).

---

١) نهاية الإيجاز: ١٠٠-١٠١.

٢) ينظر: الطراز: ١/ ٥٨.

٣) ينظر: نهاية الإيجاز: ١٠٠-١٠١.

واستتكار البلاغيين لجملة من الصياغات اللفظية السابقة قام على أساس (الذوق)، فلكل بيئة لغوية ذوق يباين ذوق البيئات الأخرى ولا يشذ عن ذلك إلاّ نادراً ، سواء أكانت تلك البيئات من أصول لغوية مختلفة –كالعربية والهندية– أم من أصل لغوي واحد ، كاللهجات الفصيحة للعربية ،.

ويعود تباين الأذواق عند الناطقين بلغاتهم إلى أسباب مختلفة فمنها؛ اختلاف البيئة الطبيعية التي يسكنون فيها؛ كاختلاف بيئة نجد عن الحجاز مما ولد لديهم اختلافاً في تحقيق الهمز وتركه، وكذلك، القرب والبعد من بيئات لغوية مخالفة للغتهم؛ كمجاورة قبائل العراق الشرقية لبلاد فارس وقبائل الشام الشمالية لبلاد الروم، مما ولّد في ألسنة تلك القبائل عادات كلامية باينت ما هو سائد عند العرب غير المخالطين فأبعدت عن الاستشهاد عند أكثر رواد المدارس اللغوية .

لذلك ميّز العرب بين أصوات الأبنية المؤلّفة لكلامهم، وجعلوها ذات وقع حسن، أو ذات وقع قبيح استناداً إلى الذوق الذي تكّون لديهم من خلال جملة من التجارب المتراكمة في أذهانهم على جميع المستويات .

المبحث الثاني

((المخارج الصوتية))

يعدّ هذا المبحث من أهم المباحث اللسانية في دراسة الصوت اللغوي ؛ ذلك أنّه يتعرض لتناول الركيزة الأولى لولادة الأصوات ، وتحديد هويتها ، وسماتها النطقية الرئيسة .

ولأهمية هذا المبحث اصطلح عليه بعض الباحثين الغربيين المحدثين بـ " النظرية"، وامتدح كثيراً تناول علماء العربية لها ، إذ وصفها " جان كانتينو " – على وفق طرح علماء العربية – بأنها نظرية محكمة وعلمية ودقيقة ، لـ ((أنّ نظرية مخارج الحروف عند النحاة العرب نظرية أحكموا ضبطها بعناية))[1] .

وعلى الرغم من هذا الاحتفاء الغربي بمقالاتنا العربية ، تعرّض بعض الدارسين المحدثين من العرب إلى انتقاد أقوال العرب في هذا المجال ، إذ وصف عملهم : بأنّه عمل غير دقيق وفيه تخليط كبير وحسبك أن ترى ابن الجزري يفاضل بين الآراء المختلفة في تحديد عدد منها [2] .

ولسنا في معرض الردّ على هذا الرأي ، ويكفينا مؤنة الردّ ما عرضناه في الفصول السابقة ، وما سنعرضه في هذا الفصل من توجهات تصنيفية لترتيب الأصوات داخل الجهاز النطقي للناطق العربي .

ولعل الاختلاف في ترتيب الأصوات بين العلماء يعود لجملة أسباب ، وهي في مجملها حالة صحية في متننا التراثي المعرفي اللساني .

ومن بين تلك الأسباب :

١ـ اختلاف آليات الفحص الذاتي بين علمائنا القدماء ، فنظرية " الفونيم " قالت : بأن الصوت له أكثر من صورة نطقية ، والفارق الجوهري بينها جزئي لا يمكن تصيده إلا عبر المختبرات الصوتية وآلات الفحص المعملي ، لذا من الطبيعي أن يختلف تحسّس الأصوات بين الناطقين القدماء . ولو على نحو جزئي . ، وهو ما شهدناه في دراساتهم لأصوات العربية .

---

١) دروس في علم أصوات العربية : ٣١ .

٢) ينظر : مناهج البحث في اللغة: ١١١ .

٢. الفروق الحاصلة بين علمائنا تعود لسببين رئيسين :
أ. الخلاف في التسمية ، أو مجال حدود المخرج .
ب . عدم العناية – عند أغلبهم –بالترتيب داخل المخرج الواحد ، فمثلاً : المخرج الشفوي يضمّ : الميم والباء والواو – بحسب تصوّرهم– ، فيكتفي أغلبهم بهذا التحديد من دون الاهتمام بترتيب تلك الأصوات ، فمثلاً :

يرتبها بعضهم على النحو الآتي : م ، ب ، و ، في حين يرتبها بعضهم الآخر : ب، م ، و ، وتجد أحياناً من يرتبها على نحو مغاير ، مفاده : و ، م ، ب ، وهكذا .

لذا يجب علينا أن نحاكم القضية المطروحة على وفق سياقاتها الزمانية و إمكانات التحليل في كلّ مرحلة .

وعلى وفق هذا لهذا التصوّر جاء الخلاف بين علماء البلاغة الذين لم يهملوا هذا المبحث المهم والحيوي ، وقد ذهب أحد الباحثين المحدثين إلى أن هذا المبحث لم يكن تقليدياً في مقالات البلاغيين ، بل كانت فيه لمسات إبداعية فاق فيها البلاغيون سواهم من علماء العربية ، وقد لخصها في أربع نقاط هي :

((١. أن مذهب التبعية التي اتُّهِم بها البلاغيون –وخصوصاً لسيبويه –لم يكن دقيقاً ، إذ نلاحظ من خلال الموازنة أن الذي تابع سيبويه منهم الرازي فقط .

٢. لم يأتِ ترتيبهم للأصوات على وتيرة واحدة ، بل حدثت هناك مخالفات بينهم وجاءوا على فريقين – وإن تبادلوا المواقع في أكثر الأحيان .

٣. إن تتبع خلافاتهم في الترتيب جاء لغايتين :
أ. بيان حيوية أذهانهم في الدرس ؛ لأن الاختلاف أمر حيوي إذ لاحظناهم خالفوا السابقين ، وكذلك فيما بينهم ، مما يؤكد أن بحثهم للأصوات لا يقل أهمية عن دراسة من سبقهم .
ب . معرفة أيهم أقرب إلى الدرس الحديث من خلال تتبع الخلاف .

٤.طابق قولهم الدرس الحديث في ترتيب الأصوات في ثلاثة مواضع هي :
١ . اقتفاؤهم على جعل الهمزة أعمق الأصوات على الرغم من خلافهم في الألف والهاء ...
٢. ترتيب أصوات ط ، د ، ت ، إذ رتبها المحدثون ترتيب الرازي و السكاكي .
٥. ترتيب : ظ ، ذ ، ث ، إذ رتبها المحدثون ترتيب الرازي و السكاكي))[1].

---

١) أثر التفكير الصوتي في دراسة العربية : (أطروحة) : ٢٦١ – ٢٦٢ .

وعلى الرغم من الأدلة التي قدّمها الباحث هنا ، وموافقتي إياه في أغلب نقاط النتيجة التي توصل إليها ، أجدني أخالفه في أن ما ذكره يأتي في جملة المفردات اللسانية التي شكّلت بمجملها متن الدرس الصوتي العربي ، لذا لا تفاضل بين الدارسين . على وفق الحقول المعرفية التي يشتغلون فيها . بل هي تكميل بين مقالات علمائنا القدماء .

وقبل الخوض في تفاصيل هذا المبحث ، تجب الإشارة إلى أننا سنعرض لمضامين هذا الفصل على وفق زاويتين :

الزاوية الأولى : منهجية الترتيب :

لم يكن المنهج المعتمد عند البلاغيين في ترتيب الأصوات جارياً على وتيرة واحدة ، بل جاء على وتيرتين أساسيتين ، هما :

. وتيرة الترتيب الإجمالي .

. وتيرة الترتيب التفصيلي.

ونريد بالوتيرة الأولى ، ترتيب الأصوات على أساس اختزال مخارجها الصوتية بعدد محدد من المخارج العامة .

في حين تأتي الوتيرة الثانية بتفصيل المخارج الصوتية على خانات مفصلة ، من دون اللجوء إلى تكثيفها في خانات محددة .

ولعل الوتيرة الثانية هي الغالبة على منهجية البحث لديهم ؛ ذلك لأنه الأكثر دقّة في وصف المخارج ، وتوصيل مواطنها وآليات نطقها على نحو أدق إلى ذهنية القارئ .

وقد استند البلاغي يحيى بن حمزة العلوي اليمني (ت ٧٠٥ هـ) إلى وتيرة الترتيب الإجمالي ، بحيث اختزل المخارج الصوتية في ثلاثة مخارج عامة لخصها في قسمته الأصوات ((باعتبار مخارجها ، وهو أنواع ثلاثة :

النوع الأول : مخرج الحلق ، وله سبعة أحرف ، ولها منه مخارج ثلاثة فللهمزة، والهاء والألف أقصى الحلق ، وللعين و الحاء أوسطه ، وللغين ، والخاء أدناه .

النوع الثاني : الشفهية وهي الباء والفاء والميم والواو .

النوع الثالث : حروف اللسان وهو ما عدا هذين المخرجين على تفاوت فيها في حافات اللسان ومدارجه ووقوعها في طرفه ، ووسطه ، وأقصاه وموضعه كتب النحاة))[1].

---

١) الطراز :٥٨/١ .

أما الوتيرة الثانية فهي الغالبة على مقالات البلاغيين – كما ذكرنا في فقرة سابقة –، وستكون مادة الزاوية الثانية من هذا المبحث .

<u>الزاوية الثانية : تفصيلات الترتيب المخرجي :</u>

عمد أغلب البلاغيين ممّن تعرض لترتيب المخارج الصوتية داخل الجهاز النطقي إلى هذه الوتيرة الترتيبية ، وعلى الرغم من هذا الميل المنهجي عند أغلبهم ، لم تأتِ تصنيفاتهم على نسق واحد ، بل اختلفوا فيه .

وقد تحددت هذه الوتيرة بمنحيين تصنيفيين ، مفادهما :

. منحى الترتيب العام الخالي من فواصل اصطلاحية .

. منحى الترتيب الخاص المقطّع على وفق فواصل اصطلاحية .

فالأول ، يعني استناد البلاغي إلى ترتيب الأصوات بمعزل عن المسميات الاصطلاحية الفاصلة بين مخرج وآخر ، على وفق معايير التوليد الصوتي من نقاط النطق داخل الجهاز الصوتي .

في حين يأتي الثاني بنحو الترتيب المسلسل على وفق مسميات نقاط النطق الرئيسة المتولّد منها الصوت اللغوي .

ولعل ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) أسبق البلاغيين إلى ارتياد الوتيرة التصنيفية التفصيلية بمنحاها العام ، ولعل ريادته ، وانشغاله بموضوع الفصاحة هو الذي دفعه إلى تبني هذا المنحى .

فقد جعل الأصوات مرتبة على نحو تفصيلي تسلسلي من دون أن يقطّعه إلى مفاصل على وفق نقاط توليد الأصوات .

فالأصوات العربية عنده ((تسعة وعشرون ... ، وهي : الهمزة والألف و الهاء والعين والحاء والغين والخاء والقاف والكاف والضاد والجيم والشين والياء واللام والراء والنون والطاء والدال والتاء والصاد والزاي والسين والظاء والذال والثاء والفاء والباء والميم والواو ، فهذا ترتيبها في المخارج))[1].

أما الإمام فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) فلجأ إلى هذه الوتيرة بمنحاها الخاص المتقّطع ، وسار مساره أبو يعقوب السكاكي (ت٦٢٦هـ) وكمال الدين ميثم البحراني (ت٦٧٩هـ) .

---

١) سّر الفصاحة : ٢٦ وهو ترتيب يشابه ترتيب سيبويه ينظر: ٤٣١/٤ .

وقد وافق الرازي في ترتيبه ترتيب علّي بن عيسى الرماني (ت٣٨٤هـ) ، وذلك بنقله ترتيب الثاني بنصّ جاء فيه : ((ذكر علّي بن عيسى الرماني ، عن النحاة، أن مخارج الحروف ستة عشر .

الأول : أقصى الحلق . ويخرج منه الهمزة و الهاء والألف .

الثاني : وسط الحلق . وهو العين و الحاء .

الثالث : أدناها مخرجا من الفم . وهو الغين و الخاء .

الرابع : أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الاعلى . وهو القاف .

الخامس : من أسفل من موضع القاف من اللسان قليلاً ، ومما يليه من الحنك الاعلى. وهو الكاف .

السادس : من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك . وهو الجيم و الشين و الياء .

السابع : من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس ، وهو الضاد .

الثامن : من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ، ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى ، مما فويق الضاحك و الناب والرباعية والثنية ، وهو مخرج اللام .

التاسع : من طرف اللسان بينه و بين ما فويق الثنايا مخرج النون .

العاشر : من مخرج النون ، غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلاً لانحرافه إلى اللام مخرج الراء .

الحادي عشر : مما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال و التاء.

الثاني عشر: مما بين طرف اللسان وفويق الثنايا مخرج الزاي والسين والصاد .

الثالث عشر :مما بين طرف اللسان و أطراف الثنايا مخرج الظاء والذال والثاء .

الرابع عشر : من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا مخرج الفاء .

الخامس عشر : فيما بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو .

السادس عشر : من الخياشيم مخرج النون الخفية))[١].

ولم يخالف السكاكي سلفه الرازي كثيراً في تصنيفه الترتيبي ، بل قاربه ، وقارب رأي الجمهور من علماء العربية ؛ لأن مخارج الأصوات ((عند الأكثرية ستة عشر على هذا النهج :

---

١) نهاية الإيجاز ودراية الإعجاز :١١٨ – ١١٩ .

أقصى الحلق للهمزة والألف والهاء . ووسطه للعين والحاء . وأدناه إلى اللسان للغين والخاء .

وأقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى مخرج القاف ، ومن أسفل من موضع القاف من اللسان قليلاً ومما يليه من الحنك الأعلى مخرج الكاف ، ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء .

ومن بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد ، ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان من بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى مما فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية مخرج اللام ، ومن طرف اللسان ، بينه وبين ما فويق الثنايا العليا مخرج النون ، ومن مخرج النون ، غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلاً لانحرافه إلى اللام ، مخرج الراء .

ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا العليا مخرج الطاء والدال والتاء ، ومما بين الثنايا وطرف اللسان مخرج الصاد والزاي والسين ، ومما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا مخرج الظاء والذال والثاء ، ومن باطن الشفة السفلى ، وأطراف الثنايا العليا مخرج الفاء .

ومما بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو . ومن الخياشيم مخرج النون الخفيفة))[1].

أما كمال الدين ميثم البحراني[2]فجاء على نسق الترتيبين السابقين ، على الرغم من بعض الخلافات الجزئية التي وقعت بين ترتيباتهم ، ويمكن إجمال تلك الخلافات بالآتي:

١ . وافق البحرانيُ السكاكَي في ترتيب أصوات الحلق ، في حين خالفا ترتيب الرازي لها ، بحيث قدّما الألف على الهاء التي كانت متأخرة في ترتيب الرازي .

٢ خالف البحراني كلاً من الرازي وابن سنان في ترتيب أصوات طرف اللسان وأصول الثنايا العليا ، إذ قدّم البحراني التاء على الطاء ،في حين جاءت متأخرة في ترتيب الرازي وابن سنان .

٣. خالف السكاكي الرازي في ترتيب أصوات ما بين الثنايا وطرف اللسان ، بحيث جاءت الصاد متقدمة على السين و الزاي ، وهو خلاف ترتيب الرازي الذي جعلها متأخرة عنهما ، وجاء ترتيب البحراني موافقاً لترتيب الرازي .

---

١) مفتاح العلوم : ١٢ .

٢) أصول البلاغة : ٣٧ – ٣٩ .

٤. عاد البحراني لمخالفته توافق الرازي والسكاكي في ترتيب أصوات ما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ، إذ قدّم الثاء على الذال ، بعدما كانت متأخرة عن موقعها هذا في ترتيب الرازي والسكاكي .

المبحث الثالث

((الصفات الصوتية))

من غير الممكن أن يكون الصوت صوتاً ، من دون أن يتهيأ له عنصران تكوينيان مفصليان ، هما : المخرج والصفة .

وكنا قد تحدثنا في المبحث السابق عن المخارج الصوتية ، لذا لا يتسنى لنا أن نختتم حديثنا عن النظام الصوتي في اللسان العربي ، عبر هذا المبحث ، من دون أن نتمم حديثنا ذاك ، بحديث تكميلي عن الصفات الصوتية للأصوات التي تحددت مخارجها .

إذ تتم العملية الكلامية بضغط الحجاب الحاجز على الرئتين ليدفع ما فيهما من هواء " الزفير " ، فيواجه الهواء المندفع عدد من الحوائل و الفراغات الرنانة التي تحدد بعض صفاته أو تمنحه شيئاً من العمق ، فالحنجرة مثل تكون أشبه بحجرة رنين وفيها الوتران اللذان تحدد ذبذبتهما طبيعة الصوت من حيث الجهر والهمس .

ثم أن الهواء يتجه من الحنجرة أما إلى التجويف الأنفي عن طريق حجب اللهاة له، أو إلى تجويف الفم ، بعد مروره في الحلق وربما يتم إغلاق مجرى الهواء في الفم عن طريق التقاء عضو بآخر من أعضاء جهاز النطق ، فإذا كان الالتقاء محكما بحيث يفصل كل منهما انفصالاً مفاجئاً سّمي الصوت شديداً "أو انفجارياً " كالحاصل في الدال والتاء والباء مثلاً ، وإذا جرى تضييق في مجرى الهواء من جراء التقاء عضوين التقاءًيسيراً بحيث يسمح لسماع احتكاك مسموع ، فإن الصوت يسمى عندئذ صوتاً رخواً "أو احتكاكياً كالحاصل عند النطق بالذال والفاء والثاء ، ولالتقاء عضوين من أعضاء النطق ثلاث حالات : شدة وتوسط ورخاوة " .

وللسان أثر واضح في تعيين الكثير من مخارج الأصوات وتحديد صفاتها ، وربما قامت الشفتان وحدهما أو بالمشاركة مع الأسنان بهذه المهمة ، كما قد يتخذ اللسان شكلاً مقعراً في الفم فتسمى الأصوات الناتجة عن هذه الحالة مطبقة .

وتعّد أصوات العربية كلها عدا أصوات الواو والياء والألف وما يتفرع منها من حركات أصواتاً صامتة ، وللأصوات الصامتة بعض الصفات الخاصة بها كالتكرار مثلاً فإنه صفة الراء وحدها لأن اللسان يضرب في سقف الفم ضربات عدة[1] .

---

١) ينظر: في البحث الصوتي عند العرب : ٣٩ – ٤٠ .

وقد توقف علماء البلاغة العربية عند هذا المبحث ؛ ليتمموا المبحث الأول الذي عرضوا له ، والمتمثل في مبحث المخارج .

ولم يكن توقف البلاغيين عند هذا الموضوع ذا بال كبير ؛ لأنهم لم يضيفوا إليه الشيء الكثير ، بل كانت لهم فيه بعض الملاحظات والإسهامات القليلة هنا وهناك .

وسنقسم الموضوع هنا على قسمين :

. قسم التوصيفات العامة للصفة الصوتية .

. قسم الإضافات التي أضافها البلاغيون إلى هذا المبحث

أولاً : التوصيفات العامة للصفة الصوتية :

تحدث علماء البلاغة على نحو الإجمال عن هذه الصفات ، من دون التوقف عندها على نحو تفصيلي مدقّق .

وقد جرت توصيفاتهم ، ولا سيما عند ابن سنان و السكاكي ، على نهج علماء العربية السابقين ، ولم يضيفوا إلى عدّة هذه الصفات صفة جديدة .

لذا سنعرض لها . هنا . بحسب تعريفاتهم على هذا النحو :

١. الجهر والهمس :

لم يكن عرض البلاغيين لهاتين الصفتين مخالفاً لما ذكره القدماء من علماء العربية فيها ، بل ساروا على هديهم .

فمعيارا : النَّفس و الاعتماد ، حاضران في وصف علماء البلاغة ممّن تعرض لهما، ولاسيما ابن سنان و السكاكي .

إذ تحدث عنهما ابن سنان بعد أن عرض لمخارج مجموع الأصوات ، قائلاً : ((ومن هذه الحروف المجهور والمهموس ، ومعنى الجهر في الحرف أنه اشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت ، ومعنى الهمس فيه أن يضعف الاعتماد في الصوت حتى يجري معه النفس ، والحروف المهموسة عشرة أحرف : وهي الهاء والحاء والخاء والكاف والسين و الصاد والتاء والشين والثاء والفاء ، ويجمعها في اللفظ – ستشحثك خصفه –وجمعت أيضاً – سكت فحثه شخص – وما سوى هذه الحروف هو المجهور))[١] .

---

١) سر الفصاحة : ٣٠ .

ولم يخالفه السكاكي في وصفه لهما ، غير انه جاء على نحو أكثر إجمالا مما عند ابن سنان . المذكور آنفا . [١].

٢. الشدة والرخاوة والتوسط بينهما :

وجرى ابن سنان مجرى توصيف علماء العربية القدماء في وصف هذه الصفات الصوتية ، ولم يخالفهم فيها .

فقد عرّف بها بنصّ قال فيه : ((ومنها أيضاً – أي أصوات العربية – الرخو ، والشديد ، والذي بين الشديد والرخو ، فالشديد الحرف الذي منع الصوت أن يجري فيه، وهي ثمانية أحرف : الهمزة والقاف والكاف والجيم والطاء والدال والتاء والباء، ويجمعها في اللفظ : أجدك قطبت ، والتي بين الشديد والرخو ثمانية أحرف : وهي الألف والعين والراء واللام والياء والنون والميم والواو ، ويجمعها في اللفظ : لم يروعنا ، والرخوة الحروف التي لا تمنع الصوت أن يجري فيها ، وهي ما سوى هذين القسمين المذكورين))[٢].

٣. الإطباق والانفتاح :

وعرّفهما ابن سنان بقوله : ((ومنها أيضاً المنطبقة والمنفتحة ، معنى الإطباق أن يرفع المتلفظ بهذه الحروف لسانه فينطبق بها الحنك الأعلى فينحصر الصوت بين اللسان والحنك ، وهي أربعة أحرف : الصاد والضاد والطاء والظاء ، وما سواها من الحروف مفتوح غير منطبق)) [٣] .

٤. الاستعلاء والاستفال :

وعرّفهما ابن سنان بقوله : ((ومن الحروف أيضاً حروف الاستعلاء وحروف الانخفاض ، ومعنى الاستعلاء أن تصعد في الحنك الأعلى،وهي سبعة أحرف : الخاء والغين والقاف والضاد والظاء والصاد والطاء،وما سوى ذلك من الحروف منخفض))[٤]

٥. الذلاقة و الإصمات :

توقف أغلب البلاغيين عند هذا الوصف لأهميته في بيان اللفظ العربي الفصيح من سواه ، وهي غاية كبيرة سعى لتوظيفها البلاغيون في معظم مباحثهم .

---

١) ينظر: مفتاح العلوم : ١١ .

٢) سر الفصاحة : ٣٠ ، و ينظر : مفتاح العلوم : ١١ – ١٢ .

٣) سر الفصاحة : ٣١ ، و ينظر : مفتاح العلوم : ١٢ .

٤) سر الفصاحة : ٣١ ، وينظر : مفتاح العلوم : ١٢ .

فقد عرّفها ابن سنان بقوله : ((ومنها حروف الذلاقة ، ومعنى الذلاقة أن يعتمد عليها بذلق اللسان وهو طرفه ، وذلق كل شيء حدّه ، وهي ستة أحرف : اللام والراء والنون و الفاء والباء و الميم ، وما سواها من الحروف فهي المصمتة)) [1].

في حين نقل وصفها بعضهم – كما هو الحال عند الرازي – عن الخليل بن أحمد الفراهيدي ، صاحب المقولة الرئيسة في هذا الوصف في تراثنا العربي .

إذ نقل الرازي الوصف عن الخليل بنص جاء فيه : ((وقال الخليل : الذلاقة في المنطق إنما هي بطرف أسلة اللسان . وذلق اللسان تحديد طرفيه كذلق السنان وقال ولا ينطلق طرف شباة اللسان إلاّ بثلاثة أحرف ، وهي : الراء واللام والنون . ولهذا تسمى هذه حروف الذلاقة ، ويلحق بها الحروف الشفهية وهي ثلاثة أيضاً : الفاء والباء والميم ثم قال : ولما ذلق هذه الحروف الستة ، ومذل بهن اللسان ، وسهلت في المنطق كثرت في أبنية الكلام ، فليس شيء من بناء الخماسي التام معرى منها . فإن وردت عليك كلمة خماسية أو رباعية معرّاة من الحروف الذلق أو من الحروف الشفهية فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة ليست من كلام العرب))[2] .

ثانياً : الإضافات التي أضافها البلاغيون على هذا المبحث :

لم يكن البحث البلاغي في هذا الموضوع بالبحث المستفيض ، العميق ، ذي الإضافات الجّمة ، بل جاءت بعض الإضافات التي يمكن وسمها بالقلة .

وتتحصر إضافاتهم في منحيين ، هما :

١. تعديل المصطلح :

لم يكن هذا المنحى طاغياً على الكثير من المصطلحات الدالة على الأوصاف الصوتية القارّة في منظومة الدرس اللساني العربي القديم ، بل تحددت بمصطلح واحد خصّ صفة " التوسط : أي التوسط بين الشدة و الرخاوة " .

إذ حاول السكاكي في مقدمته الصوتية أن يُحدِث في بعض بحثه ، تغيير الاصطلاح على صفة " التوسط " بـ " المعتدلة " ، إشارة إلى آلية تلك الصفة في الانحصار – على حدّ تعبيره – [3].

---

١) سر الفصاحة : ٣١ .

٢) نهاية الإيجاز ودراية الإعجاز : ١٢٠ ، وينظر : أصول البلاغة : ٣٩ وما بعدها .

٣) ينظر : مفتاح العلوم : ١١ .

ومصطلح الأصوات المعتدلة عند السكاكي ((يعود بصورة أو بأخرى إلى مصطلح الأصوات " المتوسطة "))[1].

٢ـ سبك عبارات للّم أصوات الصفات :

لقد اهتم السكاكي بهذا المنحى بنحو خاص ، وسعى إلى إضافة بعض العبارات الجامعة لأصوات بعض الصفات الصوتية ، لا سيما الصفات التي لم تجمع أصواتها في عبارات خاصة .

إذ دأب علماء العربية على تقديم الحديث عن الأصوات المهموسة ويلخصون الكلام على المجهورة بقولهم " وما عدا هذه الأصوات فمجهور " ولعل سبب هذا الامر أن عدد المهموس أقل من المجهور فيذكر ما قلّ وما سواه يستثنى من المجموع الكلي من الأصوات ، لكن السكاكي حاول كسر هذه العادة وبدأ الحديث عن الأصوات المجهورة واستثنى من المجموع الكلي للأصوات ما همس منها .

وحاول أيضاً جمع تلك الأصوات بعبارة ، جرياً على عادة علماء العربية في جمع أصوات المجموعات بعبارات خاصة ؛ ليسهل على المتعلم حفظها ، فجمعها بعبارة " قد أترجم و نطايب " ، لكنه لم يخالف السابقين في عددها[2].

---

١) قراءة في إرثنا الصوتي ، إشكالية صفة التوسط وأصواتها : (بحث): ٥٩ .

٢) ينظر: مفتاح العلوم : ١١ .

المبحث الرابع

منهج المدرسة ، المحاسن والمآخذ

إنّ أية أطروحة في أي حقل معرفي ، يمكن أن تُقرأ من زاويتين : زاوية الإفادة ، وزاوية الفحص النقدي ؛ لأنّ أية أطروحة لا تخلو من وجهات نظر ، سواء أكانت تلك الوجهات مؤيدة لما هو مطروح فيها أم مخالفة له ، ولا يبتعد مضمون البحوث المطروحة في المتن البلاغي عن هذا الفرض ، لذا يجوز لنا أن نتعامل معه معاملة المفيد ، أو المتفحص .

ولما كان مضمون بحثنا في المباحث الثلاثة السابقة يندرج تحت زاوية الإفادة ، سنعرض في هذا المبحث لزاوية الفحص النقدي ؛ لنكمل بذا زاويتي النظر إلى مقالات هذه المدرسة ، ليتسنى لنا تقييمها تقييماً عادلاً .

ومثلما قلنا إنّ زاوية الفحص النقدي قد تؤدي إلى تأييد ما هو مدروس في المقالات المنتقدة أو مخالفة له ،سنسعى هنا إلى رصد معالم الخلل في مقالات البلاغيين الصوتية، وفي الوقت نفسه لا ننسى إضافاتهم المثرية إلى الدرس اللساني العربي القديم .

وعليه سنقسم هذا المبحث على قسمين ، قسم لرصد الخلل ، فيكون مضمون المآخذ، وقسم لرصد الإضافات ، ليكون مضمون الجهد الحقيقي للبلاغيين في مستوى درسهم الصوتي .

أولاً : المحاسن (الإضافات) :

لم تخلُ مؤلفات البلاغيين من إضافات في مباحثهم الصوتية – على نحو خاص ، بل كانت ثرّة من حيث المباحث التي تخدم الوظيفة الرئيسة التي ابتغوا ارتيادها .

فغايتهم لم تكن متساوقة مع غاية دراسة النحويين لمباحث الصوت العربي ، وكذا الحال في غاية المعجميين و الفلاسفة ناهيك عن علماء التجويد والقراءات القرآنية .

نعم ، الغاية الكبرى كانت متّحدة بين جميع علماء العربية و مقالاتهم ، ألا وهي : خدمة كتاب الله وتسهيل فهمه وحفظه ونقله إلى العربي وغير العربي بوتيرة واحدة .

لكن هذا لا يمنع من أن يتخصص كل حقل من حقول المعرفة ، وأن يندرج اشتغال كلّ عالم تحت مفاهيم تلك الحقول ، بوظيفة أو غاية مغايرة لغاية الوظيفة أو غاية الدارسين الآخرين .

ولولا ذاك لما تنّوعت العلوم ، وتنّوعت المقالات ووجهات النظر ، بين علماء العربية ذوي المرجعيات المعرفية و الاشتغالية المتنوعة .

وللبلاغي من هذا الفرض حظٌّ أيضاً ، إذ لهم ما لغيرهم من علماء العربية الآخرين في تحقيق غاية معينة من وراء درسهم ، وتحليلهم للسان العربي .

ولعلّي لا أُخطئ الصواب بقولي ، إنّ هذا التوظيف المتنوع لدراسة اللسان العربي، جاء على نحو الاتفاق غير المقصود بين علماء العربية ، أي أن كلّ علم من العلوم وكل عالم من أتباع تلك العلوم ينهض بوظيفة تخصّ بحثه و غاية درسه في إطارها العام .

فللنحوي وظيفة يسعى إلى تحقيقها كل نحاة العربية ، وكذا حال المعجمي ، وعالم التجويد والقراءة القرآنية ، فضلاً عن البلاغي .

ومن خلال تتبع دراسات البلاغيين أستطعنا حصر وظائفهم في ثلاث فقط ، وذلك من خلال دراستهم للنظام اللساني بمستواه الصوتي – على نحو خاص – .

وفيما يأتي عرض لهذه النقاط الثلاث :

١. معايير الفصاحة :

نظر أغلب المحدثين إلى مبحث الفصاحة نظرة دونية ، تهّون من خطر إهماله في دراساتهم ، ظنّاً منهم أنها مباحث تقليدية لا أهمية لها في تبيين مفاصل التحليل البلاغي ، لذا تركوا بحثها وتوجهوا صوب المباحث الإجرائية للبلاغيين .

في حين يعدّ هذا المبحث من أهم المباحث التنظيرية عند البلاغيين ، وهو مقدمة مهمة في دراستهم ، إذ لا بد أن يكون الأساس قوياً ومطابقاً لمواصفات ما يبنى عليه، ليكون البناء المقام عليه قوياً ، لذلك دأب البلاغيون على توضيح أساس الدرس البلاغي وميَّزوا بين القوة والضعف فيه بقواعد وضعوها لمعرفة اللفظ وطرائق صوغه وتأليفه ، إفراداً وتركيباً .

لذلك لم يترك البلاغيون مقدمة " الفصاحة والبلاغة " وشروطهما .إلاّ من ندر . وتوزعت تلك المقدمة بين الإسهاب والاعتدال والاختصار ، على وفق غاية المؤلف في تأليف الكتاب أو غير ذلك .

ولم يهتّم عدد من الدارسين بتلك المقدمة في كتبهم ولا سيما المحدثون ظناً منهم أن شروط فصاحة اللفظ المفرد والمؤلف ليست من موضوعات البلاغة ، لكن الأمر خلاف ذلك فهذه المقدمة مهمة جداً لأن ترك البناء من دون أساس يجعل هيكله خاوياً .

وعلى الرغم من التفريق بين " الفصاحة والبلاغة " عند أكثر البلاغيين ، لا يعدّ هذا الأمر سبباً للتقليل من شأن مباحث الفصاحة ؛ لأن ترادفهما يحسب على تعدّد المسميات من دون فائدة ، فالفارق موجود لكنه ليس على حساب الفصاحة ، بل على العكس يؤكد علّو مكانتها وأهمية مباحثها في فهم الدرس البلاغي ، لذلك ألمح الرازي إلى هذه الفضيلة في فصله الذي عنونه بـ " في شرف علم الفصاحة ".

ولم يكتف الرازي في ذلك الفصل ببيان الفضل ، بل عدّ الفصاحة علماً من العلوم التي تعدّ عماداً للعلوم الأخرى ؛ الصميمية والخادمة .

وحاول بعض البلاغيين التقريب بين الفصاحة والبلاغة ، كالعسكري الذي ربط بينهما بقيد الإبانة " فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما؛ لأن كلّ واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار "(١).

ولأهمية هذا الموضوع حاول البلاغيون تعميمه على مستويي الكلام الرئيسين :

. اللفظ .

. التركيب .

لذا وضعوا شروطاً لمعرفة الفصاحة في اللسان العربي وقياسها ، عبر بنيته اللفظية الصغرى " الكلمة " ، وبنيته الكبرى " التركيب " (٢) .

والغاية من هذه المقدمة : تشكيل آلية رئيسة لتحديد المادة الرئيسة للكاتب أو القائل ، للكتاب أو القول البليغ ، سواء أكان الكاتب عربياً أم غير عربي ، لذا قال البلاغيون : كل بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغاً : أي إن الفصاحة أساس البلاغة ، ولولاها ما استطاع العربي أو غيره ممن يكتب بالعربية أن ينال شرف البلاغة .

٢. آلة البلاغة :

إن مبحث البلاغيين الرئيس ، هو البحث عن أمرين مفصلين في كلام العرب :

أ . صور الفصاحة .

ب . الجمالية في الكلام الفصيح .

---

١) ينظر: أثر التفكير الصوتي في دراسة العربية (اطروحة) :٣٠٩ – ٣١٠، وينظر:الصناعتين: ١٦ ، ودلائل الإعجاز :٤٥٦ ونهاية الإيجاز :٨٣ – ٨٤ ،و بلاغة الكلمة والكلام والجملة والجمل :٢١ .

٢) ينظر : منهاج البلغاء وسراج الأدباء :" الملحق " ، و الأقصى القريب :٣٧ – ٣٨ ، وشروح التلخيص : ١ / ٧٧ وما بعدها ، والفصاحة " مفهومها ": ١٦ وما بعدها .

وعلى هذا الأساس ، اشتغل البلاغيون في مقدمات أغلب مؤلفاتهم بوضع معايير الفصاحة ، سواء أكان ذلك في اللفظ أم التركيب .

وقد تحدثنا في الفقرة السابقة من هذا المبحث ، عن معايير الفصاحة لديهم ، وهنا سنعرض إلى الوسيلة ، أو الآلة الرئيسة في التوصيل إلى تلك الغاية المفصلية في تحليلاتهم .

فمن المعروف أن لكل شيء آلةً أو أداةً أوسيلةً توصل إليه ، والبلاغة تندرج في ضمن هذا الفرض ، لذا سعى البلاغيون إلى تأسيس مفردة تحليلية جديدة تقوم بمهام هذا الاشتغال الرئيس في تحليلاتهم .

وعليه ، وضع البلاغيون مبحث " آلة البلاغة " للقيام بهذه الوظيفة الرئيسة في مباحثهم التنظيرية والإجرائية ، لكن الدارسين أهملوا الخوض في عرض مفردات هذا المبحث ، لا سيما المحدثون منهم ، وسعوا إلى دراسة المباحث الأخرى ، مهملين هذا الموضوع .

لكن الدكتور مشتاق عباس معن وقف عنده وقفة تفصيلية ، وسعى إلى كشف مفاصلها ، وأهم نقاطها التحليلية و التنظيرية .

وقد كان أساس هذا المبحث هو معطيات الدرس الصوتي ، فلما ((تركب الجهاز النطقي عند الإنسان من تكونات معقدة تألفت من أعضائه : اللسان وغيره ، أصيب أداؤه في بعض الأحيان بأعطاب توزعت بين " التلف أو المرض أو التشويه أو سوء التركيب في أي عضو من أعضاء الجهاز الكلامي مما يؤدي إلى خلل في تأدية وظيفة هذا العضو ، فيحدث نتيجة لذلك اضطراب أو عيب في النطق " .

فيكون العيب تبعاً لذلك في جانبين :

- آلة النطق : في أعضاء الجهاز النطقي .
- أداء النطق : في كيفية تأدية الأصوات .

ولتأكيد أهمية هذين الجانبين في الدرس البلاغي ، اصطلح البلاغيون عليهما بمصطلح " آلة البلاغة " ، وأرادوا بها : سلامة آلة النطق وأداء الأصوات الناتجة عنها، وعبّر عنها أيضاً بمصطلح " آلة البيان " و " آلة المنطق " .

وكان منشأ هذا الاصطلاح " الصحيفة الهندية " التي ضمّنها الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) – كتابه (البيان والتبيين) ، واعتمد عليها أغلب اللاحقين من البلاغيين في بيان محاور البلاغة ومضامينها ...

وتختلف " الآلة " من بليغ إلى آخر ، بحسب مقدار تمامها ، وآلية استغلالها في التواصل الشفهي .

فهناك تام الآلة ، وهناك ناقصها))[1] ، وسمّي تام الآلة بـ " كامل الآلة "أيضاً ، وهذا التقابل في التوصيف أمر معروف في حياتنا .

٣. العيوب النطقية :

إنّ من نيل شروط الفصاحة ، أن يكون العربي أو متعلم العربية من غير العرب ، سالما في آلة النطق ، وبالتالي يكون سالما في آلة البلاغة ؛ ليستطيع الناطق أن يبين عما يريد ؛ ليتسنى للسامع معرفة كنه ما يقصده الناطق من نطقه ، ((فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما ؛ لأن كلّ واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار " له : وقال بعض علمائنا : الفصاحة تمام آلة البيان ، فلهذا لا يجوز أن يسمّى الله تعالى فصيحا ، إذ كانت الفصاحة تتضمن معنى الآلة ، و لا يجوز على الله تعالى الوصف بالآلة ، ويوصف كلامه بالفصاحة ؛ لما يتضمنه من تمام البيان ، والدليل على ذلك أن الألثغ والتمتام لا يسميان فصيحين ؛ لنقصان آلتهما عن إقامة الحروف ، وقيل زياد الأعجم ؛ لنقصان آلة نطقه عن إقامة الحروف ، وكان يعبر عن الحمار الهمار ، فهو أعجم ، وشعره فصيح لتمام بيانه " فعلى " هذا تكون الفصاحة والبلاغة مختلفتين ، وذلك أن الفصاحة تمام آلة البيان فهي مقصورة على اللفظ ؛ لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى ، والبلاغة إنما هي إنهاء المعنى إلى القلب ، فكأنها مقصورة على المعنى))[2].

لذا تعرض البلاغيون إلى أمر آخر مكمل لعملهم الأول ، مفاده رصد العيوب التي يمكن أنْ تصيب آلة النطق ، فتعطب آلة البلاغة بذلك ؛ سعياً منهم لرصد الخلل ، ومحاولة معالجته أو تجنبه . إن أمكن . .

---

١) أثر التفكير الصوتي في دراسة العربية(اطروحة) : ٢٩٢ – ٢٩٣ ، وينظر : البيان والتبيين : ٥٨/١ ، وقانون البلاغة : ٢٨ ، والصناعتين : ١٦ – ١٧ .

٢) كتاب الصناعتين : ١٦ – ١٧ .

وعليه وجدت لديهم مجموعة كبيرة من المفردات الدالّة على العيوب النطقية ومفاهيمها ، مثل " البحة "[1] و " التمتمة أو التمتام " [2] و " الحبسة " [3] و " العجز أو العي " [4] و " الفأفأة " [5] ، لتكون هذه الحصيلة وغيرها اللبنة الرئيسة لموضوع علم " العيوب النطقية وأمراضها " عند علمائنا القدماء .

ثانياً : المآخذ :

يمكن حصر المآخذ التي رصدناها في مقالات البلاغيين الخاصة بدرسهم الصوتي في ثلاث نقاط رئيسة مفادها :

١. متابعة علماء العربية السابقين في توصيفاتهم :

لقد شاع بين دارسي اللسان العربي ، لاسيما في البحوث الحديثة ، أن كل الجهود التي طرحها علماء العربية في حقولهم المختلفة ، وخاصة في مقالاتهم المتعلقة بدراسة النظام الصوتي للسان العربي ، بحوث عيال على ما طرحه نحاة العربية.

ولم يسلم واحد من علماء العربية – على مختلف مشاربهم المعرفية – من هذا الفرض ، سواء أكانوا بلاغيين أم غير بلاغيين .

ونحن نؤيد هذا الطرح في مضمون مقالات البلاغيين الخاصة بدراسة الصوت العربي ، ولكن لا نؤيد تعميمه على جميع ما طرحوه .

فهناك – والحق يقال – الكثير من المقالات التي كان فضل السبق في القول بها للبلاغيين ، وهو ما سنعرضه في القسم الثاني من مبحثنا هذا .

وتتبع تلك المقالات التي أضافها البلاغيون ، من سعيهم لتخصيص درسهم بوظيفة معرفية خاصة بهم ، وهي بالتالي وفّرت لهم المناخ السليم لطرح ما جدّ من مقالات تندرج في ضمن إطار سبيل تحصيل وظيفتهم تلك .

ولكن هذا لا يعني أن جميع ما قالوا به إيجابي ، أو جديد ، بل على العكس ، زخرت مقالاتهم بالتقليدي / الاتباعي ، لا سيما في مباحث المقدمة الصوتية ، وأعني بها :

---

١) ينظر : قانون البلاغة : ٧٨ .

٢) ينظر : البيان والتبيين : ٣٧/١ – ٣٨ ، وقانون البلاغة : ٧٨ .

٣) ينظر : الكامل : ٢ / ٢٢١ ، و قانون البلاغة : ٧٨ ، و البرهان في وجوه البيان : ٢١٥ .

٤) ينظر : البيان والتبيين : ١٢/١ ، و البرهان في وجوه البيان : ٢١٥ ، و العمدة : ٢٤٧/١ .

٥) ينظر : قانون البلاغة : ٧٨ .

. آلية التصويت .

. المخارج .

. الصفات .

وحتى هذه المباحث لم تكن محضة التقليد ، بل شهدت بعض مفاصلها محاولة للتغيير ، أو الإضافة ، لا سيما في مبحث " آلية التصويت " .

لكنهم كانوا أكثر تقليدية في مبحثي " المخارج الصوتية " ، و " الصفات الصوتية " على نحو خاص .

ولعلهم معذورون في ذلك ؛ لأنهم لم يكونوا منشغلين بدراسة هذه المباحث وتفحصها تفحصاً جديداً ؛ لأن النحاة والصرفيين فضلاً عن المعجميين أفاضوا في الحديث عنها ، فلم يرد البلاغيون أن يشغلوا أنفسهم بما قّر بحثه ، واستقرت دراسته.

ولكن هذا لم يمنعهم من الإضافة إن أحسّوا بفائدة تلك الإضافة ، كما هو الحال في إضافة الرسم التوضيحي / التقريبي للجهاز النطقي .

وعلى هذا الأساس قلّدوا بحث السابقين في هذه المباحث ، وحاولوا تقديم القضايا الجديدة على مستويي : التنظير والإجراء ، في المباحث الأخرى التي تماسّت تماساً مباشراً مع ما أرادوا الوصول إليه من خلال مقالاتهم التحليلية .

٢. إهمال الحديث عن الأحكام التعاملية :

إنّ حديث البلاغيين عن الأحكام التعاملية في اللسان العربي في مستواه الصوتي ، يكاد يكون معدوماً لولا بعض الإشارات القليلة القصيرة في بعض فقرات مؤلفاتهم .

فالإدغام والإظهار والإخفاء والإقلاب وغيرها من أحكام التعامل الصوتي في لسان العربية ، تكاد تكون معدومة ، وفي حقيقة الأمر إنّها معدومة إلاّ بعض الإشارات المقتضبة عن الإدغام ، لا سيما الإدغام المتماثل ، كما هو الحال في حديثهم عن فكّ الإدغام وأثره في فصاحة اللفظ .

ولعلّ شاهدهم الأثير في هذا الجانب ، هو قول الشاعر العربي القديم :

الحمد لله العلي الأجلل الواهب الفضل الكريم المجزل[1]

وفيما عدا هذا لا تجد لأحكام التعامل الصوتي في اللسان العربي ذكراً في كتاباتهم – إلاّ ما ندر و قلّ – .

ولعل سبب غياب دراسة ، أو التطرق إلى دراسة هذه المباحث التركيبية / السياقية من الناحية الصوتية ، يعود إلى السبب عينه الذي دعاهم إلى تقليد السابقين في مقالاتهم التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة .

٣. إغفال الحديث عن المقدمة الصوتية :

إنّ بعض المؤلفات البلاغية حفلت بأمر آخر يعدّ منقصة من ناحية توصيف النظام الصوتي الكامل للسان العربي ، لا سيما في غياب بعض المباحث من بعض الكتب البلاغية .

ففي النقطتين السابقتين كان التقليد ، أو التقصير ، هو المأخذ على مقالاتهم ، لكننا هنا نجد أمراً آخر حاضراً في مؤلفاتهم ، ألا وهو غياب المقدمة الصوتية ، ونعني بها: مباحث آلية التصويت والمخارج والصفات ، من مؤلفاتهم ، و لا يكاد البلاغي يتطرق إليها لا من قريب ولا من بعيد .

ولعلّ هذا الأمر يعود إلى أسلوب الكاتب في تأليفه ، أو إلى الغاية الرئيسة من تأليفه الكتاب .

---

١ ينظر : المثل السائر : ١ / ٣٧ ، والإيضاح في علوم البلاغة : ٨ .

فمثلاً مؤلفات عبد القاهر الجرجاني : " أسرار البلاغة " و " دلائل الإعجاز " ، تجدها خالية من هذه المباحث ، اللهم إلاّ بعض الإشارات العامة التي تخدم مقام البحث[1] ، ذلك أن هّم الباحث لم يكن تفحّص النظام الصوتي للعربية في مستواها المنعزل ، بل كان همّه تفحّصه في مستواه المتصل / المركب ، فنظرية النظم – كما هو معروف – كانت هّم الجرجاني ، لا مباحث المقدمة الصوتية .

لذا وجدناه يتجاوزها ولم يتطرق إلى بعض مناحيها – على قلّتها – حين اقتضت الحاجة إلى الإشارة إليها .

لذا كان موضوع الترك أو إهمال ذكر بعض المباحث الصوتية – لا سيما المقدمة الصوتية – في كتابات بعض البلاغيين تتبع من : غاية التأليف الرئيسة ، ومنهجه في طرحها .

---

١) كإشاراته إلى بعض صور مخالفة الفصاحة في أسرار البلاغة ، وموضوع ذوق الحروف وأثره في نظم النص ، ينظر : أسرار البلاغة : ٥ – ٦ ، ودلائل الإعجاز : ٤٥٦ وما بعدها .



الخاتمة

الخاتمة

ارتبطت دراسة الأصوات اللغوية عند العرب ارتباطا وثيقا بمعطيات وظيفية مؤدية إلى غايات متنوعة ومختلفة باختلاف دارسيها وعلى وفق اختصاصهم ، فلم تكن دراسة الأصوات عندهم دراسة هامشية أو لغرض الترف اللغوي وإنما هي دراسة جادة مرسومة على خطى علمية دقيقة لها أسبابها ومسبباتها ودوافعها وغاياتها ، أي بمعنى أدق انه لابدّ من دراسة الأصوات للدخول في الموضوع المراد دراسته .

فالخليل بن احمد الفراهيدي عندما وضع معجمه الكبير (العين) كان الأساس الصوتي هو منهجه في ترتيب ذلك المعجم،لأنه أراد أن يعطي ألفاظ العربية ترتيبها ، وتكون أصوات الألفاظ من ابعد نقطة مخرجية،وفي ضوء ذلك أوضح أنّ اتحاد المخارج أو تقاربها قد يؤدي إلى إهمال بعض الألفاظ،وأشار إلى المهمل وسبب إهمال من الناحية الصوتية فوضع معيارا ينظر من خلاله إلى ألفاظ العربية المستعمل منها والمهمل بالاستناد إلى مخارج الأصوات وصفاتها،وفي ضوء ذلك ،أيضا،بيّن الدخيل من الألفاظ على ألفاظ اللغة العربية بالاستناد إلى معيار (الذلاقة والاصمات) فإذا جاءت لفظة من الألفاظ خالية من أصوات الذلاقة(ل،ر،ن،ف،ب،م) فيحكم عليها إنها من الدخيل.

أما سيبويه ومن تابعه من علماء مدرسة النحاة الصوتية فكانت غايته وهدفه من دراسة الأصوات هي دراسة موضوع الإدغام الذي يعد الأساس الصوتي المرتكز الأساس له،ولذا ذهبسيبويه إلى أنّه قد وصفت حروف المعجم بهذه الصفات للتعرف على ما يحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه الإدغام وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه، وهكذا خصص النحاة بعض الأبواب لهذا السبب،إذ عدّوا ذلك تمهيدا لدراسة ظاهرة الإدغام .

وكانت دراسة علماء مدرسة التجويد والقراءات القرانية تشتمل على مباحث في مخارج الأصوات وطريقة نطقها وصفاتها فكان علم التجويد محاولة لتقنين قواعد القراءة واقتفاء أثرها وتوجيهها وبيان عللها وبيان طرائق الأداء القرآني وظواهره من مدٍّ وقصر وإدغام ووقف وإخفاء وروم وإشمام وغيرها من الظواهر .

أما الفلاسفة المسلمون فقد كان اشتغال بعضهم بالموسيقى سببا في دراسة الأصوات التي هي ضرورة ملحة لمن يدرس النغم وطرائق الأداء الصوتي له ، فضلا عن دراسة عيوب النطق لمن اشتغل منهم بمهنة الطب لاسيما الكندي في رسالته (اللثغة) وابن سينا في دراسته للصوت .

أما علماء المدرسة البلاغية فقد كانت غايتهم في دراسة الأصوات مختلفة أيضا إذ اتخذوا من نظرية مخارج الأصوات معيارا بلاغيا ونقديا لبيان فصاحة اللفظة ، فكان التقارب المخرجي والتباعد هما الفيصل في تمييز الألفاظ الفصيحة من غيرها ، لان

ذلك يؤدي إلى تنافر الأصوات وتآلفها لذلك قسّموا الكلام إلى متنافر ومتلائم .

ومن هنا فقد حاول البحث تتبع خطى هؤلاء العلماء في دراستهم للصوت وحصر هذه الخطى ضمن مفهوم المدرسة والمذهب الذي نظرنا له في تمهيد الرسالة ، ومن خلال هذا المفهوم استطاع البحث أن يفرز خمس مدارس لعلماء العربية هي (مدرسة المعجميين ، ومدرسة النحاة ، ومدرسة المجودين والقراء ، ومدرسة الفلاسفة المسلمين، ومدرسة البلاغيين) ، وحاول البحث رصد جوهر الخلاف بينها وبيان الفرق بين مناهجها وغايتها من دراسة الأصوات ، وبين البحث أن لكل مدرسة وظيفة خاصة فضلا على وجود وظائف متداخلة فيما بينها.

ووقف البحث على عدد من المفاهيم التي كان يعتليها بعض الالتباس في الدرس الصوتي القديم كما في مصطلح المخرج الذي سُمّي بـ(الحيز والموضع والمدرج)،حيث بيّن البحث أن هناك فرقا في هذه المسميات وان علماء العربية كانوا يفرقون بينها على الرغم من عدم وضوح الفكرة في تصور عدد منهم .

كما بيّن البحث قدرة المعجميين في تتبع مواضع نطق الأصوات من أبعد نقطة مخرجية يمكن أن يتحسسها الإنسان وهي الحلق ، كما أوضح سبب اهتمام علماء هذه المدرسة بمخارج الأصوات أكثر من اهتماهم بالصفات الصوتية إذ إنّ ذلك يعود إلى الغاية التي من اجلها دُرس الصوت عند علماء هذه المدرسة .

ولم يكن منهج علماء هذه المدرسة في ترتيب الأصوات سهلا ، ولذلك صعب على الكثير من العلماء الذين ساروا على خطاها كابن دريد مثلا الذي لم يأخذ بهذا الترتيب على الرغم من اعتماده نظامي الأبنية والتقاليب وهما جوهر عمل مدرسة العين المعجمية .

رصد البحث الصفات التي درسها علماء هذه المدرسة وبيّن أن هذه الصفات المدروسة كانت تتمثل بالصفات التي لها أثرها في معيارية الكلمة العربية ، فعلى سبيل المثال أنهم كانوا يرون أنه ليس في كلام العرب كلمة واحدة رباعية أو خماسية إلا وفيها حرف من حروف الذلاقة ، بالإضافة إلى ذهابهم إلى أن الأصوات الصحيحة هي التي تشكل أصوات أبنية الكلمة ، حيث خضعت صفتي (الصحيحة والمعتلة) إلى التقسيم على أساس نطقي ومخرجي وهما من أهم غايات المدرسة وأهدافها لمعرفة أصول الكلمة .

حاول البحث الوقوف على مميزات ومآخذ منهج المدرسة في دراستها للأصوات ، وقد كان من محاسنها انها استطاعت أن تطلق ألقاباً محددة على مجاميع الأصوات ، وان تدرج تحت كل مصطلح عدد من الأصوات ، فظهر على أيديهم عدد من المصطلحات الصوتية كالشجرية والاسلية والمذلقة والحلقية وغيرها .

بين البحث المعايير الصوتية التي ميزت دراسة النحاة الصوتية حتى كونت مدرسة صوتية عرف عندنا بمدرسة النحاة الصوتية ، تلك المدرسة التي درست مخارج الأصوات فتحددت عندهم بستة عشر مخرجا وهو ما ذكره سيبويه وتابعه بعد ذلك علماء هذه المدرسة ، وبين البحث الخلاف بين مدرسة المعجميين ومدرسة النحاة ، ولم يقتصر على هذا الخلاف بل تعداه إلى الخلاف في الترتيب الداخلي لحروف بعض المخرج .

وبيّن البحث ان دراسة الصفات عند علماء هذه المدرسة كانت لغاية جعلها معيارا نقديا للتمييز بين الأصوات ، وخصوصا الأصوات التي تشترك في المخرج ، وقد شغلت دراسة الظواهر الصوتية حيزاً أكبر من غيرها وذلك لأنها كانت مكملة لدراستهم للصفات اذ تقوم عليها تفسيرات التغييرات الصوتية التي تطرأ على بنية الكلمة كما هو الحال في الإدغام والإبدال والإعلال والإمالة وغيرها من الظواهر الصوتية التي درسوها ، إذ استطاعت هذه المدرسة أن توظف الدرس الصوتي في إطاره التركيبي للجملة فدرسوا الأصوات في حيز التركيب بعد أن تناولوها من حيث هي وحدات صوتية من المخرج والصفات وبينوا كيف تؤثر هذه الأصوات في النظام النحوي للغة .

وقد كانت دراسة هذه المدرسة للظواهر الصوتية قائمة على متابعة النطق بالظاهرة الصوتية عند العرب الا أن هذا الرصد كان يصيبه بعض الاضطراب نتيجة لإهمالهم بعض اللهجات العربية .

وقف البحث على الجهد الكبير الذي قدمه علماء التجويد والقراءة القرانية على مستوى آلية التصويت ومخارج الأصوات وصفاتها والأحكام التعاملية وحاول أن يبين محاسن هذا العمل ومآخذه وصولا إلى ان هذا المتن اللساني ، الذي يعد من المتون المعرفية العربية الصوتية المهمة من خلال نظرياته والنتائج التي توصل إليها ، اذ كان حديثهم عن المخرج وتتبعهم إلى حقيقة مهمة تعد من معطيات الدرس اللساني الحديث وهي تنوع المخارج الصوتية بين العامة والخاصة .

كما بيّن البحث ان وصف الأصوات عندهم كان يقوم على أساس التفصيل من دون الإجمال ، اذ فضلوا هذا الاتجاه على الاتجاه الثاني القائم على أساس التفصيل بعد الإجمال ، وهو ما سار عليه عدد قليل من علماء هذه المدرسة ، وبين البحث مقدار حيوية التفكير الصوتي عند علماء هذه المدرسة في نظرتهم إلى الأصوات من جهتين تكمن الأولى في المشافهة في توصيف الأصوات ، وأما الثانية فهي تقسيم الأصوات من حيث الحسن والقبح .

ولقد استطاع علماء هذه المدرسة أن يحددوا الظواهر الصوتية بمعايير ثلاثة هي (معيار الكمية) وهو أمر غالبا ما يتعلق بالصوائت (صغيرها ، ومتوسطها ، وطويلها) و(معيار

الوضوح) الذي يرتبط بوضوح الصوت من حيث الأداء والسمة الصوتية ، أما المعيار الثالث فهو (معيار القطع النطقي) وهو أمر يتعلق بوسيلة استمرار الأداء النطقي أو قطعه .

عزل علماء التجويد النون والتنوين ودرسوهما على وفق أحكام خاصة وفي باب خاص سُمي بأحكام النون الساكنة ، وكان سبب ذلك الفصل هو الاهتمام الكبير الذي أولاه علماء هذه المدرسة بظاهرة الغنة وأهميتها في آلية التأثير والتأثر بين الأصوات في السياق الصوتي .

وقد وقف البحث على مقولات علماء هذه المدرسة في نظرية اللحن الجلي واللحن الخفي وحاول عرض آراء بعض المحدثين وتحليلاتهم لهذه الظاهرة وبيان أوجه الدقة والضعف فيها

وقف البحث على الصرح العلمي الصوتي لمدرسة الفلاسفة المسلمين في دراسة الأصوات، وبيّن أن هذه المدرسة لم تكتفِ بدراسة الأصوات من زاوية واحدة بل تعددت وجهات نظر علمائها فمنهم من درس اللثغة ومنهم من عني بالنبر والتنغيم ، إلا أنهم جميعهم درسوا الصوت من الجانب الطبيعي (الفيزيائي) وهو ما أفرد هذه المدرسة عن بقية المدارس الصوتية ، حيث كان رصد هذه المدرسة للجانب الفيزيائي للصوت من الدقة بحيث شابه إلى حدٍّ كبير ما ذهب إليه المحدثون في دراساتهم .

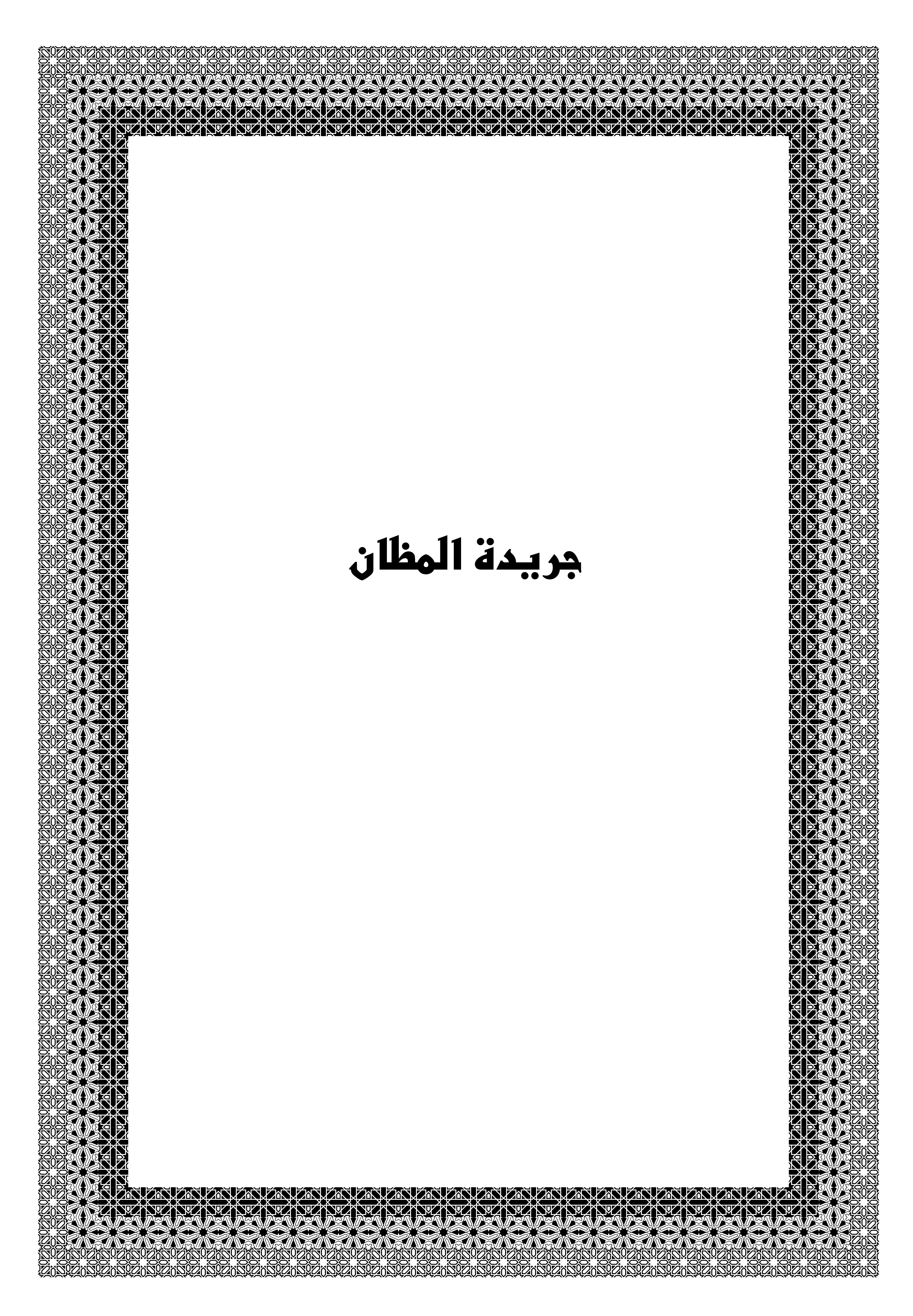
وقد اعتمدت هذه المدرسة مصطلحات خاصة بها كمصطلحات (القرع والقلع والرطوبة واليبوسة) وغيرها ، فقد تميزت هذه المدرسة بظهور عدد من المصطلحات التي لم يسبقهم إليها احد من الدارسين للصوت العربي ، وان لم يكن مفهوم بعضها متفقا عليه تماما عند جميع علمائها وهذه سنة من سنن التطور وانتقال المصطلح من فوضى العموم إلى دقة الدلالة.

كما استطاع البحث ان يرصد الجهد الصوتي للمدرسة البلاغية وأن يبين أركان آلية التصويت عند علماء هذه المدرسة والتي تمثلت بـ(التصويت والوسط الناقل للصوت واستقبال الصوت)،وبيّن البحث ان توليد الأصوات عندهم يكون على وفق أمرين أساسيين هما (الاعتماد والمصاكة) .

كما وقف البحث على محاولة علماء هذه المدرسة العمل على إحداث بعض التعديل في المنظومة الاصطلاحية للصوت العربي وذلك عن طريق تغييرها للمصطلحات على وفق ما تراه اقرب إلى الدلالة على المعنى ، كما في حديث السكاكي حول صفة (التوسط) وتسميته لها بالمعتدلة إشارة منه إلى آلية تلك الصفة في الانحصار . على حدّ تعبيره . ، إلا أن الأمر الذي يؤخذ على دراستهم هو أنهم لم يتحدثوا عن الأحكام التعاملية في اللسان العربي ،وان وجدت بعض الإشارات عند عدد منهم ، فهم لم يدرسوا الإدغام والإظهار والإخفاء والاقلاب وإن أشاروا إليها .

وقد بين البحث ان الوظائف الصوتية عندهم تنحصر في ثلاثة فقط هي (معايير الفصاحة، وآلة البلاغة ، والعيوب النطقية)، فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحدد الوظيفة التي يسعى إليها البلاغيون ، وإنّ المعايير التي اعتمدوها في التمييز بين الأصوات كانت مختلفة عن معايير المدارس الأخرى .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين



جريدة المظان

جريدة المظان

القران الكريم .

❖ إبراز المعاني من حرز الأماني : عبد الرحمن بن اسماعيل أبو شامة :(ت ٦٦٥ هـ) ،مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، القاهرة : ١٣٤٩ هـ .

❖ أحوال النفس، رسالة في النفس وبقائها ومعادها، مع ثلاث رسائل : علي بن الحسين ابن سينا(ت ٤٢٨ هـ) ، تحقيق: د. احمد فؤاد الأهواني ، الطبعة الأولى، ١٩٥٢م.

❖ الإدراك الحسي عند ابن سينا: محمد عثمان نجاتي، دار المعارف، مصر، ١٩٦١م.

❖ ارتشاف الضرب من لسان العرب: ابو حيان الاندلسي (ت ٧٤٥ هـ) تحقيق مصطفى احمد النماس الطبعة الاولى، مطبعة النسر الذهبي ١٩٨٤ م .

❖ أسباب حدوث الحروف :علي بن الحسين ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) تحقيق : محمد حسّان الطّيان ويحيى مير علم – مطبوعات مجمع اللغة العربية – دمشق – الطبعة الأولى– ١٩٨٣م .

❖ أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) ، قرأه و علق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني ، جدّة ، ١٤١٢هـ–١٩٩١م.

❖ أسرار العربية: أبو البركات الأنباري (ت٥٧٧هـ) ، تحقيق: محمد بهجت البيطار ، مطبعة الترقي ، دمشق، ١٩٥٧م.

❖ أصوات العربية بين التحول والثبات : د . حسام سعيد النعيمي ، دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة الموصل ، (د . ت) .

❖ أصوات اللغة العربية : د. عبد الغفار حامد هلال، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م.

❖ الأصوات عند سيبويه وعندنا : ارتور شاده ، تصحيح: د. صبيح التميمي، صنعاء، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

❖ الأصوات اللغوية : د. إبراهيم أنيس ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الرابعة – ١٩٧١م.

❖ أصول البلاغة: كمال الدين ميثم البحراني (ت٦٧٩هـ) ، تحقيق: د. عبد القادر حسين، دار الشروق، ١٤٠١هـ–١٩٨١م.

❖ الأصول في النحو : أبو بكر بن السراج (ت ٣١٦هـ) ، تحقيق : د . عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثالثة – ١٩٨٨ م .

❖ الإقناع في القراءات السبع : ابن الباذش (ت ٥٤٠هـ)، تحقيق : د.عبد المجيد قطامش : منشورات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى ، مطبعة دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٣هـ .
❖ الإمالة في القراءات واللهجات العربية : د . عبد الفتاح إسماعيل شلبي دار الشروق بيروت ، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م .
❖ الأمالي : أبو علي بن القاسم القالي : (ت٣٧١ هـ) ، مطبعة السعادة ، مصر ، الطبعة الثالثة ١٩٥٤م .
❖ الإيضاح في شرح المفصل: أبو عمر_بن الحاجب (ت٦٤٦هـ) ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٨٢م.
❖ الإيضاح في علوم البلاغة والبيان والبديع: الخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ) ، راجعه وصححه وخرج آياته الشيخ بهيج غزاوي ، دار إحياء العلوم بيروت ، ١٠٤٨هـ،١٩٨٨م.
❖ إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل : ابن الأنباري : تحقيق : محيي الدين عبد الرحمن رمضان : مجمع اللغة العربية / دمشق / ١٩٧٦م .
❖ البارع في اللغة: أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي (ت ٣٥٦هـ)، تحقيق: د. هاشم الطعان، مكتبة النهضة ، بغداد ، ودار الحضارة العربية ، بيروت، ١٩٧٥.
❖ البرهان في وجوه البيان: ابن وهب الكاتب (ت٢٥٢هـ) ، تحقيق: د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي ، مطبعة العاني ، بغداد ١٣٨٧هـ ،١٩٦٧م.
❖ البلاغة العربية قراءة أخرى : د. محمد عبد المطلب ، مكتبة ناشرون ، لبنان ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان ، القاهرة ، ط١ ١٩٩٧ م.
❖ بلاغة الكلمة والجملة والجمل : د. منير سلطان ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، ١٩٩٢م.
❖ بيان العيوب التي يجب أن يتجنبها القرّاء : أبو علي الحسن بن أحمد بن البناء(ت ٤٧١هـ) : تحقيق : د. غانم قدوري الحمد : دار عمار ، الأردن ، ط١ ، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠١م .
❖ البيان والتبيين: أبو عمرو بن عثمان بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) تحقيق:عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ،١٩٧٩م.

❖ تاريخ آداب اللغة : مصطفى صادق الرافعي، مطبعة الأخبار، مصر، الطبعة الأولى، ١٩١٢.

❖ تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين : جورج مونان : ترجمة : بدر الدين القاسم ، وزارة التعليم العالي ، طبعة جامعة حلب ، ١٩٨١م.

❖ التحديد في الإتقان والتجويد : أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني(ت٤٤٤ هـ) : تحقيق : د. غانم قدوري الحمد : دار عمار، الأردن ، ط١ ، ١٤٢٠هـ ، ١٩٩٩م.

❖ التطور اللغوي التاريخي : د. إبراهيم السامرائي ، دار الأندلس ، بيروت الطبعة الثانية ،١٤٩١ هـ. ١٩٨١ م .

❖ تفسير ما بعد الطبيعة : ابن رشد (ت٥٩٥هـ)، دار المشرق، بيروت ،١٩٦٧ .

❖ التفكير الصوتي عند الخليل : د . حلمي خليل ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨ .

❖ التكملة : أبو على الفارسي (ت ٣٣٧هـ) تحقيق : كاظم بحر المرجان، مطابع مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٨١.

❖ التمهيد في معرفة التجويد : أبو العلاء الحسن بن أحمد الهمذاني العطار (ت ٥٦٩ هـ) : تحقيق : د. غانم قدوري الحمد ، دار عمار ، الأردن ، ط١ ، ١٤٢٠هـ ، ٢٠٠٠م .

❖ التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي : أبو الحسن على بن جعفر السعيدي : تحقيق : د. غانم قدوري الحمد : ضمن كتاب " رسالتان في تجويد القرآن " ،دار عمار ، الأردن ، ط١ ، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م.

❖ تهذيب اللغة : أبو منصور الأزهري (ت٣٧٠هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون واخرين، القاهرة ١٩٦٤-١٩٦٧م .

❖ توحيد المفضل : أبو عبد الله المفضل الجمحي (كان حيا ١٨٣هـ)، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٦٤م.

❖ التيسير في القراءات السبع : أبو عمرو الداني (ت٤٤٤ هـ) : صححه : أبوتو برتزل : مطبعة الدولة ، استانبول ، ١٩٣٠م .

❖ جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب : د.ماهر مهدي هلال، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م.

❖ جمال القراءة وكمال الإقراء : علم الدين أبو الحسن علي بن محمد السخاوي (ت ٦٤٣ هـ) : تحقيق : د. علي حسن البواب ، مطبعة المدني ، ط١ ، ١٩٨٧م .

❖ الجماهر في معرفة الجواهر : أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني(ت٤٤٠هـ) ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، الدكن ، ١٣٥٥هـ.

❖ الجمل في النحو : أبو القاسم الزجاجي (ت ٣٣٧هـ) ، تحقيق : د. علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت ، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

❖ جمهرة اللغة : ابن دريد (ت ٣٢١ هـ) تحقيق : رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٧ .

❖ جهد المقل : محمد بن أبي بكر المرعشي الملقب بساجقلي زاده (ت١١٥٠ هـ) : تحقيق : د. سالم قدوري الحمد : دار عمار ، الأردن ، ط١ ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

❖ حاشية الدسوقي: الدسوقي (ت)، ضمن شروح التلخيص، دار البيان العربي ، دار الهادي ، بيروت ، ١٤١٢هـ–١٩٩٢م.

❖ حاشية الصبان على شرح الاشموني : محمد بن علي الصبان (ت ١٢٠٦ هـ) دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، د . ت .

❖ الحروف : أبو نصر الفارابي (ت٣٣٩هـ)، تحقيق محسن مهدي، دار الشروق، بيروت، ١٩٦٩.

❖ الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ) : تحقيق : محمد علي النجار ، دار الكتب المصرية ،١٣٧١ هـ – ١٩٥٢ م .

❖ الخليل بن احمد الفراهيدي اعماله ومنهجه : د. مهدي المخزومي ، مطبعة دار الرائد العربي ، بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٦م .

❖ الدراسات الصوتية عند علماء التجويد : د. غانم قدوري الحمد،وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ،إحياء التراث الإسلامي،سلسلة الكتب الحديثة،بغداد، ط١٤٠٦،١هـ ، ١٩٨٦م.

❖ الدراسات الصوتية عند علماء العربية : عبد الحميد الهادي إبراهيم الاصيبعي ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي الجماهيرية الليبية العظمى ، طرابلس الطبعة الأولى ، ١٩٩٢ م .

❖ دراسات في التجويد والأصوات اللغوية : د. عبد الحميد محمد أبو سكين : مطبعة الأمانة ، مصر ، ط١ ، ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٣م .

❖ دراسات في علم أصوات العربية : د. داود عبده ، مؤسسة الصباح للنشر والتوزيع، د . ت.
❖ الدراسات اللغوية عند العرب إلى القرن الثالث الهجري ، د. محمد حسين آل ياسين ،دار مكتبة الحياة ،بيروت ط١ ،١٤٠٠هـ. ١٩٨٠ م .
❖ الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني : د. حسام سعيد النعيمي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام جمهورية العراق ، دار الرشيد للنشر ، ١٩٨٠ م .
❖ دراسة السمع والكلام : د. سعد مصلوح ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م .
❖ دراسة الصوت اللغوي : د. احمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.
❖ دروس في علم أصوات العربية : جان كانتينو ، تعريب صالح القرمادي مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية ، تونس ١٩٦٦ م .
❖ دروس في علم الصرف : د. أبو أوس إبراهيم الشمسان : مكتبة الرشد ، الرياض ، ط١ ، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٧م.
❖ دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) ، تحقيق:د. محمد رضوان الداية ود. فايز الداية ، مكتبة سعد الدين ، دمشق ،١٤٠٧هـ ،١٩٨٧م.
❖ رسائل ابن رشد ، كتاب النفس،: ابن رشد (ت٥٩٥هـ) مطبعة المعارف العثمانية، حيدر اباد الدكن، الطبعة الأولى ١٩٤٧.
❖ رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا: إخوان الصفا (ق٤هـ) دار صادر ، بيروت د . ت.
❖ رسالتان في الحواس : عبد اللطيف البغدادي (ت٦٢٩ هـ) ، تحقيق: بول غليونجي ، وسعيد عبده ، وزارة الإعلام – الكويت ، ١٩٧٢.
❖ رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية: د. غانم قدروي الحمد ، مؤسسة المطبوعات العربية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م .
❖ الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة : مكي بن أبي طالب (ت٤٣٧ هـ): تحقيق : د. أحمد حسن فرحات : دمشق / ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .
❖ الزينة في الكلمات الإسلامية: أبو حاتم الرازي (ت٣٢٢هـ)، تعليق وتحقيق: حسين بن فيض الله الهمداني، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٥٧م.

❖ السبعة في القراءات : ابن مجاهد : تحقيق : د. شوقي ضيف : دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٢م .
❖ سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ)، تحقيق عبد المتعال الصعيدي، مكتبة محمد علي وأولاده، مصر، ١٩٦٩.
❖ سر صناعة الإعراب : ابو الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ) ، تحقيق : مصطفى السقا ومحمد الزفزاف وابراهيم مصطفى وعبد الله امين ، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٤ م .
❖ شرح ابن عقيل: بهاء الدين عبد الله بن عقيل (ت٧٦٩هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الثانية عشر، ١٩٦١م.
❖ شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين الاسترابادي (ت٦٨٦هـ) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد وآخرين، مطبعة حجازي ، القاهرة، ١٣٥٨هـ.
❖ شرح الفارابي لكتاب أرسطو في العبارة: الفارابي(ت٣٣٩هـ) ، نشر ولهم اليسوعي، وستانل مارو اليسوعي، المطبعة الكاثولوكية، بيروت، ١٩٦٠م.
❖ شرح المفصل : موفق الدين ابن يعيش(ت٦٤٣هـ)،مكتبة المتنبي، القاهرة، د . ت.
❖ شرح الملوكي في التصريف:موفق الدين ابن يعيش، تحقيق: د.فخر الدين قباوة، المكتبة العربية، حلب، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م.
❖ شرح الواضحة في تجويد الفاتحة : ابن أم قاسم المرادي (ت ٧٤٩هـ) تحقيق : د. عبد الهادي الفضلي ، دار القلم ، بيروت .
❖ الصاحبي في فقه اللغة : احمد بن فارس (ت٣٩٥هـ) تحقيق: د.مصطفى الشويمي ، مؤسسة بدران للطباعة والنشر – بيروت . الطبعة الثانية ١٣٨٢هـ – ١٩٦٣م .
❖ الصحاح في اللغة : إسماعيل بن حماد الجوهري ،مكتبة مشكاة الاسلامية (د. ت).
❖ الصناعتين ، الكتابة والشعر،: أبو هلال العسكري ، تحقيق:د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠١هـ– ١٩٨١م.
❖ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة العلوي (ت٧٠٥هـ) ، تحقيق: د.عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية ، صيدا، ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٢م.
❖ العربية دراسات في اللغة واللهجات والاساليب : يوهان فك ، ترجمة ، د. عبد الحليم النجار، دار الكتاب العربي ١٣٧٠ هـ – ١٩٥١م .

- ❖ علم الأصوات : بارتيل مالبرج ، تعريب د. عبد الصبور شاهين ، مكتبة الشباب ١٩٨٥م .
- ❖ علم الأصوات العام : د. بسام بركة مركز الانماء القومي ، بيروت ، د . ت.
- ❖ علم اللسان :انطوان ماييه ، ترجمة محمد مندور " ضمن كتاب منهج البحث في الأدب و اللغة " دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٤٦م.
- ❖ علم اللغة العام: فردينان دو سوسير، ترجمة : د. يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٥م.
- ❖ علم اللغة العام " الأصوات ": د. كمال محمد بشر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٦م.
- ❖ علم اللغة ، مقدمة للقارئ العربي : د. محمود السعران ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٢م .
- ❖ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣ هـ) تحقيق:د. عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية ، صيدا ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م.
- ❖ العين : الخليل بن احمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) ، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. ابراهيم السامرائي ، مطابع الرسالة ، الكويت . ١٩٨٠ م .
- ❖ فقه اللغة العربية : د. كاصد ياسر الزيدي ، مطابع مديرية دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة الموصل ، ١٩٧٨م .
- ❖ الفهرست : ابن النديم (ت ٣٨٠هـ) ، تحقيق رضا تجدد طبعة فلوجل ، طهران ،١٩٧١م .
- ❖ في الأصوات اللغوية "دراسة في أصوات المدّ العربية":د.غالب فاضل المطلبي ،منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، سلسلة دراسات " ٣٦٤ " ، بغداد ، ط١ ، ١٩٨٤م .
- ❖ في البحث الصوتي عند العرب : د. خليل ابراهيم العطية ، منشورات دار الجاحظ بغداد ، سلسلة الموسوعة الصغيرة رقم (١٢٤) ، ١٩٨٣م .
- ❖ في البنية و الدلالة : د. سعد أبو الرضا ، منشأة المعارف ، الاسكندرية .
- ❖ في اللهجات العربية : د. ابراهيم انيس ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الرابعة ، د .ت.

❖ قانون البلاغة في نقد النثر والشعر :أبو طاهر البغدادي (ت٥١٧هـ) تحقيق:د.محسن غياض عجيل ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م .

❖ القانون في الطب : أبو علي الحسين ابن سينا(ت ٤٢٨ هـ)، تحقيق ادور القش وعلي زيعور، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٧ .

❖ الكامل في اللغة والأدب: أبو العباس المبرد ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة .

❖ الكتاب : سيبويه (ت ١٨٠هـ) نسخه مصورة عن طبعة بولاق، ١٣١٧هـ مطبعة المثنى ، بغداد .

❖ الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها: مكي بن ابي طالب القيسي (ت ٤٣٧ هـ) تحقيق: محي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة ،بيروت الطبعة الثانية ١٩٨١ م .

❖ الكلام انتاجه وتحليله : د . عبد الرحمن ايوب ، مطبوعات جامعة الكويت ، الطبعة الأولى ١٩٨٤ .

❖ كلام العرب : حسن ظاظا، مطبعة العصري، الاسكندرية، ١٩٧١.

❖ لسان العرب : ابن منظور (ت٧١١هـ)، طبعة مصورة عن بولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ت.

❖ لطائف الإشارات لفنون القراءات : شهاب الدين القسطلاني (ت٩٢٣هـ) تحقيق الشيخ عامر السيد عثمان، د. عبد الصبور شاهين، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٢.

❖ اللغة الشاعرة : عباس محمود العقاد، مطبعة مخيمر ، القاهرة، ١٩٦٠م.

❖ اللغة العربية معناها ومبناها . د. تمام حسان الهيأة المصرية للكتاب . الطبعة الثانية ، ١٩٧٩م .

❖ ما ذكره الكوفيون من الإدغام : أبو سعيد السيرافي (ت٣٦٨هـ) : تحقيق : د. صبيح التميمي ، دار البيان العربي ، جدة ، من النصوص الصوتية النادرة " ٢ " ، ط١ ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م.

❖ مبادئ الألسنية العامة : أندريه مارتينيه : ترجمة أحمد الحمو ، وزارة التعليم العالي ، دمشق ، ١٩٨٥ م.

❖ مبادئ اللسانيات : د. أحمد محمد قدور ، دار الفكر ، دمشق ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٦ – ١٩٩٦ م.
❖ محاضرات في اللغة – القسم الأول : د. عبد الرحمن أيوب ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٦٦م .
❖ المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها : محمد الانطاكي ، مكتبة دار الشرق بيروت، الطبعة الأولى ، ١٩٧٢ م .
❖ مخارج الحروف وصفاتها: أبو الإصبع الاشبيلي المعروف بابن الطحان، (ت٥٦٠هـ) ، تحقيق: محمد يعقوب تركستاني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.
❖ مختصر العين : أبو بكر الزبيدي (ت ٣٧٩هـ) ، تحقيق :د.صلاح مهدي الفرطوسي ،دار الشؤون الثقافية بغداد ط١ ، ١٩٩١م .
❖ المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي . د. رمضان عبد التواب . مطبعة المدني ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ – ١٩٨٢م .
❖ المدخل إلى فقه اللغة العربية : د. أحمد محمد قدور، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م.
❖ مدرسة الكوفة ومنهجها في اللغة والنحو د. مهدي المخزومي، دار الرائد العربي – بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٦م.
❖ المزهر في علوم اللغة وانواعها : جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) ، تحقيق: محمد احمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار احياء الكتب العربية ، الطبعة الأولى – د . ت .
❖ المصطلح الصوتي في الدراسات العربية : د. عبد العزيز الصيغ ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، دار الفكر ، دمشق ، ط١ ، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م.
❖ المعاجم اللغوية : د. إبراهيم أبو النجا، مطبعة السعادة ، مصر، ١٩٦٢م.
❖ المعجم العربي نشأته وتطوره : د. حسين نصار ، دار مصر للطباعة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٨م.
❖ المعجم المفصل في علوم اللغة " اللسانيات " : د. محمد التونجي و أ. راجي الأسمر : دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٣ م.
❖ مفتاح العلوم: أبو يعقوب يوسف السكاكي (ت٦٢٦هـ) ، ضبطه شرحه: نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٣هـ–١٩٨٣م.

❖ المقتضب : ابو العباس المبرد (٢٨٥هـ) تحقيق : عبد الخالق عضيمة ، عالم الكتب ، بيروت . د . ت .

❖ مقدمة لنظرية المعجم : إبراهيم بن مراد ، دار الغرب الإسلامي ، د.ت.

❖ المقرب: علي بن مؤمن المعروف بأبن عصفور (ت٦٦٩هـ)، تحقيق احمد عبد الستار الجواري، وعبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٨٦.

❖ المقطع الصوتي في ضوء تراثنا اللغوي : د. عبد المنعم عبد الله محمد ، ضمن سلسلة دراسات لغوية (١) ، ط١ ، ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨م.

❖ المكتفى في الوقف والابتداء : أبو عمرو الداني : تحقيق : جايد زيدان مخلف ،مطبعة وزارة الأوقاف ، بغداد ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .

❖ الممتع في التصريف: علي بن مؤمن المعروف بابن عصفور (ت٦٦٩هـ) ، تحقيق : د . فخر الدين قباوة ، منشورات دار الآفاق الجديدة ،بيروت، ١٩٧٩م.

❖ من اسرار اللغة : د. ابراهيم انيس ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة السابعة، ١٩٨٥م .

❖ مناهج البحث في اللغة . د. تمام حسان . دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ١٤٠٠هـ – ١٩٧٩ م .

❖ المنح الفكرية على متن الجزرية :علي بن سلطان محمد القارئ(ت١٠١٤ هـ) : المطبعة الميمنية ، مصر ، ١٣٢٢هـ .

❖ المنصف : ابو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ) ، تحقيق : ابراهيم مصطفى ومحمد امين . ١٩٥٤م.

❖ المنظومة الكلامية دراسة في فيزياء وبيولوجيا اللغات الشفهية: د. بيتر ب – دنيس، ود. اليوت ينشن، ترجمة د. محي الدين حميدي، معهد الانماء العربي، بيروت، ١٩٩١.

❖ منهاج البلغاء وسراج الأدباء: أبو الحسن القرطاجني (ت ٦٨٤ هـ) تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٦م.

❖ المنهج الصوتي للبنية العربية ،رؤية جديدة في الصرف العربي: د. عبد الصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م .

❖ الموجز في النحو : ابو بكر بن السراج(ت ٣١٦هـ)، تحقيق : مصطفى الشويمي . مؤسسة أ . بدران للطباعة والنشر ، بيروت، الطبعة الأولى ، ١٩٦٥م .

❖ الموسيقى الكبير : ابو نصر الفارابي (ت٣٣٩هـ) : تحقيق : غطاس عبد الملك خشبة ، دار الكتاب العربي للطباعة ، القاهرة . د . ت .
❖ الموضح في التجويد : عبد الوهاب القرطبي (ت ٤٦١هـ) ، تحقيق : د.غانم قدوري الحمد ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الكويت، ١٩٩٠.
❖ النشر في القراءات العشر: محمد بن محمد ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) مراجعة : علي محمد الضباع ، دار الفكر، بيروت ، د . ت.
❖ النفس : أبو بكر بن باجة (ت٥٣٣هـ)، تحقيق: د. محمد صغير حسن، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٦٠م.
❖ النكت الحسان في شرح غاية الاحسان: أبو حيان الأندلسي(ت٧٤٥ هـ) تحقيق:د. عبد الحسين الفتلي، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.
❖ النكت في اعجاز القرآن، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، (ت٣٨٤هـ)، ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ١٣٨٧هـ – ١٩٦٨م.
❖ نهاية الإيجاز ودارية الإعجاز:فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) ، تحقيق:د.بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٥م.
❖ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع : السيوطي(ت ٩١١هـ)، تحقيق محمد بدر الدين النعساني، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
❖:S.A. Hanna ,K.Z.AL-Din , N.greis: (1997) : Dictionary of Modern Linguistics : Librarie du Liban Publishers .
❖ Matthews.P.H:(1974):Morphology An Introduction to he theory of Word- structure, cambridge University press , London .

البحوث :

❖ الإبدال اللغوي في ضوء علم اللغة الحديث : د. إسماعيل احمد الطحان، مجلة آداب المستنصرية العدد الأول – السنة الأولى، ١٩٧٦م .
❖ الأصوات عند سيبويه : د. كمال بشر، مجلة الثقافة – القاهرة السنة الثانية، العدد (٢١) سنة ١٩٧٥ م .

❖ أنماط صفة الغنة وقيمتها التمييزية " قراءة في المصطلح والمفهوم " : د. مشتاق عباس معن : مجلة الدراسات اللغوية / مركز الملك فيصل ، الرياض ، مج ٤ ، ع ٢ ، ربيع الآخر – جمادى الآخرة ١٤٢٣ هـ ، يوليو – سبتمبر ٢٠٠٢م .
❖ البحث اللساني عند اخوان الصفا وخلان الوفا : علاء جبر محمد ، مخطوط .
❖ تأملات في بعض ظواهر الحذف الصرفي : د. فوزي الشايب : حوليات كلية الآداب ،جامعة الكويت ، الحولية العاشرة ، الرسالة الثانية و الستون ، ١٤٠٩– ١٤١٠هـ، ١٩٨٨–١٩٨٩م.
❖ التفكير الصوتي عند العرب في ضوء سر صناعة الاعراب لابن جني: الأب هنري فليش، تعريب، د. عبد الصبور شاهين، مجلة مجمع اللغة العربية ، القاهرة، ج ٢٣، ١٩٦٨ .
❖ جهود ابن سينا في اللغة والاصوات: د. احمد مختار عمر، مجلة البحث العلمي والتراث الاسلامي، المملكة العربية السعودية، مركز البحث العلمي واحياء التراث الاسلامي لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة، العدد الخامس، ١٩٨٢م.
❖ جهود الكوفيين في علم الأصوات : د. خليل إبراهيم العطية، مجلة كلية الآداب ، جامعة البصرة ، العدد (١٥) سنة ١٩٧٣م .
❖ حركة الحنجرة : د. جعفر ميرغني : المجلة العربية للدراسات اللغوية : معهد الخرطوم العالي ، الخرطوم ، مج ٢ ، ع١ ، ١٩٨٣م .
❖ الخليل رائد علم الصوت : د. حازم سليمان الحلي، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق ، ج ٢ ، مج ٦٨ نيسان ، ١٩٩٣م .
❖ دراسة في المنهج الصوتي عند العرب: أكرم عثمان يوسف وقائع ندوة اللسانيات في خدمة اللغة العربية – مركز الدراسات تونس، نوفمبر ١٩٨١م.
❖ دور القواعد الصوتية في استعمال المعجم : د. داوود عبده : المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، ع ٢٣ ، مج ٦ ، صيف ١٩٨٦م.
❖ السكون في اللغة العربية : د . كمال بشر، مجلة مجمع اللغة العربية القاهرة، ج ٢٤، ١٩٦٩.
❖ علم الصوتيات الموجي والسمعي عند علماء المسلمين القدماء : يوسف الهليس، المجلة العربية للدراسات اللغوية – الخرطوم مج ٣، ع ٢، ١٩٨٥.

- ❖ علماء الأصوات العرب سبقوا اللغويين المحدثين في ابتكار نظرية التماثل : د. عبد العزيز مطر، مجلة اللسان العربي، جامعة الدول العربية ، المغرب ، مج ٧، ج١، ١٩٧٠م .
- ❖ الفكر الصوتي عند ابن دريد : د. خليل إبراهيم العطية، مجلة كلية الآداب – جامعة البصرة ع١٦ ، ١٩٨٠ .
- ❖ الفكر الصوتي عند السيوطي : عبد القادر مرعي خليل، مجلة مؤنه للبحوث والدراسات، مج ٨، ع ٦، ١٩٩٣ م .
- ❖ قراءة في إرثنا الصوتي ، إشكالية صفة التوسط وأصواتها : د. مشتاق عباس معن : مجلة الدراسات اللغوية ، مركز الملك فيصل ، الرياض ، مج ٢ ، ع ٤ ، شوال – ذو الحجة ١٤٢١هـ ، يناير – مارس ٢٠٠١م.
- ❖ قضايا صوتية في النحو العربي : د. طارق عبد عون الجنابي ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج ٢و٣ ، مج ٣٨ ، شوال ١٤٠٧هـ ، حزيران ١٩٨٧م.
- ❖ اللحن الخفي في الدرس الصوتي العربي : د. غانم قدوري الحمد : المجلة العلمية لجامعة تكريت ، مج ١ ، ع ١ ، ١٩٩٤م .
- ❖ المصوتات عند علماء العربية : د. غانم قدوري الحمد، مجلة كلية الشريعة ، جامعة بغداد ، عدد (٥) سنة ١٣٩٩ .
- ❖ من فكر الفرّاء الصوتي، قراءة جديدة في تراثنا الصوتي : د. صبيح التميمي، مجلة المورد، مج ١٩، ع د، ١٩٩٠ م .
- ❖ النظريات الصوتية في كتاب سيبويه : الطيب البكوش ، حوليات الجامعة التونسية ، العدد (١١) سنة ١٩٧٤م .
- ❖ نظرية اللحن الجلي واللحن الخفي في الدرس الصوتي عند علماء التجويد " قراءة في المقولة والإجراء " : د. مشتاق عباس معن : مقبول للنشر في حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت .
- ❖ نظرية تثقيف اللسان وترييضه : د. مشتاق عباس معن : مقبول للنشر في " مجلة الدراسات اللغوية ، الرياض " .

<u>الرسائل الجامعية :</u>

- ❖ أثر التفكير الصوتي في دراسة العربية : مشتاق عبّاس معن : اطروحة دكتوراه ، قسم اللغة العربية والترجمة ، كلية اللغات ، جامعة صنعاء ، جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ ، يوليو ٢٠٠٣م .
- ❖ الأصوات عند سيبويه : عبد العزيز سعيد الصيغ، اطروحة دكتوراه ،كلية الآداب – جامعة بغداد ١٩٩٩م .
- ❖ الإعلال في كتاب سيبويه في هدى الدراسات الصوتية الحديثة : عبد الحق احمد محمد، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ١٩١٣م .
- ❖ البحث الصوتي عند ابن السراج : علي خليف حسين ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب – جامعة بغداد، ١٩٩٨ م .
- ❖ البحث الصوتي والدلالي عند الفيلسوف الفارابي : رجاء عبد الرزاق الرفاعي ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، بغداد ١٩٩٢م .
- ❖ التوجيه الصوتي في دراسة النحو العربي ، علامات الإعراب والبناء أنموذجًا: ، عقيل رحيم علي ، أطروحة دكتوراه ، كلية الاداب جامعة بغداد ٢٠٠٢ .
- ❖ الدراسات الصوتية في كتاب العين في ضوء علم اللغة الحديث : موفق عليوي خضير ، ماجستير ، كلية الآداب ، الجامعة المستنصرية ، ١٩٨٥م .
- ❖ الدرس الصوتي عند ابن سينا : علاء جبر محمد ، رسالة ماجستير كلية الآداب ، الجامعة المستنصرية ، ١٩٩٨ م .
- ❖ الدرس الصوتي عند رضي الدين الاستراباذي : حسن عبد الغني الأسدي رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، الجامعة المستنصرية ، ١٩٨٥م .
- ❖ الدرس الصوتي عند المبرد : فاطمة البياتي ، رسالة ماجستير ، كلية التربية ، الجامعة المستنصرية ، ١٩٩٧ م .
- ❖ منهج الدرس الصوتي عند العرب : علي خليف حسين ، اطروحة دكتوراه ،كلية الآداب – جامعة بغداد ٢٠٠٢م

Schools of Phonology in Arabic: The Rise and Development

A Dissertation

Submitted to the Council of the College of Arts / Al-Mustansiriyah University in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Doctor of Philosophy in the Arabic Language and its Literature

By

Alaa J. Mohammed Al-Musawi

Supervised by

Prof. Abdullah Ahmed AL-Jiboori (ph.D)

2004

Abstract

Ancient Arab scholars spent invaluable efforts within the area of Arabic phonology. These efforts prove that such scholars are fully aware of the nature of sounds and the speech organs which were accurately described. Laws and rules for sounds were set up and the relationship between these sounds were shown. These efforts and contributions are easily recognized by Abualaswad Al-Dwali's self-observation and Al-Khalil Bin Ahmed's classification of speech sounds. The latter described speech sounds from an articulatory point of view which had laid the foundation for a school called lexical phonology. In addition Sibawaihi classified Arabic speech sounds in terms of place of articulation. Such a classification gave rise to what is called the grammarians' school of phonology.

It is beyond dispute that the subfields of Arabic linguistics are interrelated to one another and to the Glorious Quran. It is very rare to find a given topic which is for instance, purely morphological, i.e. other levels of linguistic analysis are in valued in it. Due to this characteristic, there is a variety of studies as far as the general attitude of works is concerned.

The present study sets itself to gather the contributions of these schools of phonology and clarifies the procedures followed by the leading figures of each school. Such schools have been classified in the light of the aims behind studying the phonological material. Accordingly, five schools have been investigated in the present work. In addition, an introductory chapter entitled "schools of phonology and knowledge Heritage by Arabs' is devoted to the perspective of the study and how far it is applied to the schools of phonology by ancient Arab scholars.

As for the first chapter, it is concerned with the school of "lexical phonology" and how those "lexicophonolgists dealt with the phonological material.

The leading scholar here is Al-Khalil Bin Ahmed Al-Farahidi who was taken as an example by other lexicophonologists. The second chapter is devoted

to the treatment of phonological material by Arab grammarians who gave rise to the "grammarians' school of phonology." within this school, the phonological study underwent development which started before Sibawaihi. It is true to say that the latter brought it to maturity. in his famous book " Al-Kitab".

The third chapter is named as "The phonology school of Readers". The efforts of a group of scientists have been dealt with. Those scholars gave priority to the phonological study which farmed the basis for their investigations.

The fourth chapter concerns itself with the treatment of the phonological material by some Muslim philosopher. They investigated the material from a physical and articulatory standpoint.

Although such a school had lasted for a long period of time, it had not attracted a large number of scholars. Concerning chapter five, it has studied the phonological efforts of rhetoricians. These efforts have not been given due attention by previous studies. The study of phonology by those scholars is not a marginal one, rather it is serious and systematic.

Al-Kahalil Bin Ahmed Al-Farahidi organized his dictionary (Al-Ain) on the basis of phonology to give the lexical units a phonological arrangements.

As to Sibawaihi, he focused on the study of Arabic speech sounds in order to precisely investigate assimilation. He maintains that he described the letters of the dictionary so that one can recognize where assimilation is possible or not. Regarding the rhetoricians, they adopted a totally different approach to study sounds where the theory of articulation of sounds is considered as a rhetorical and critical criterion to judge whether a particular word is standard or not.

Scholars of readings are concerned with how sounds are articulated or produced. The dealt with the distinctive features characterizing speech sounds. They also viewed speech sounds from a physical point of view.